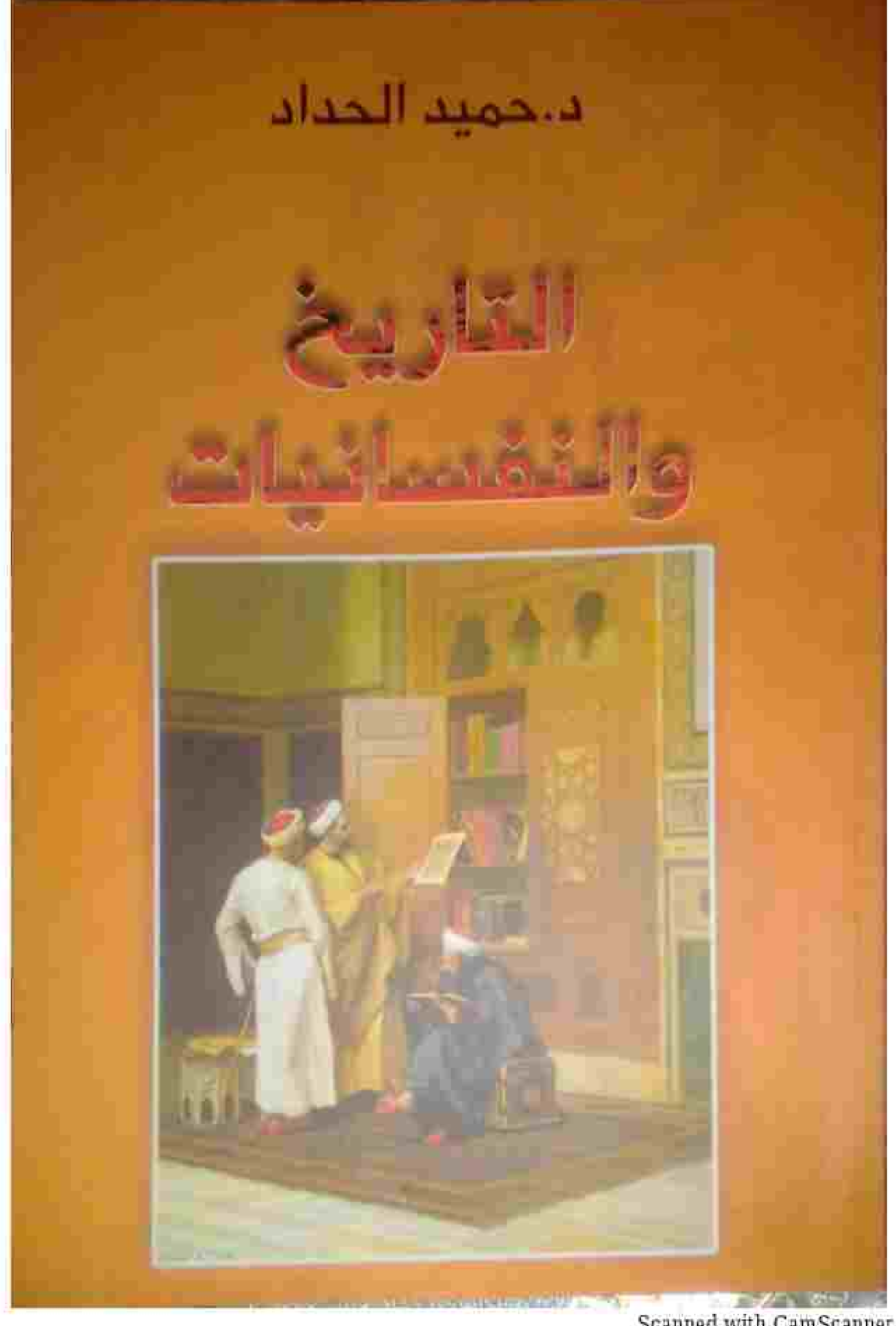

د.حميد الحداد
التاريخ
والنفسانيات

التاريخ والنفسانيات

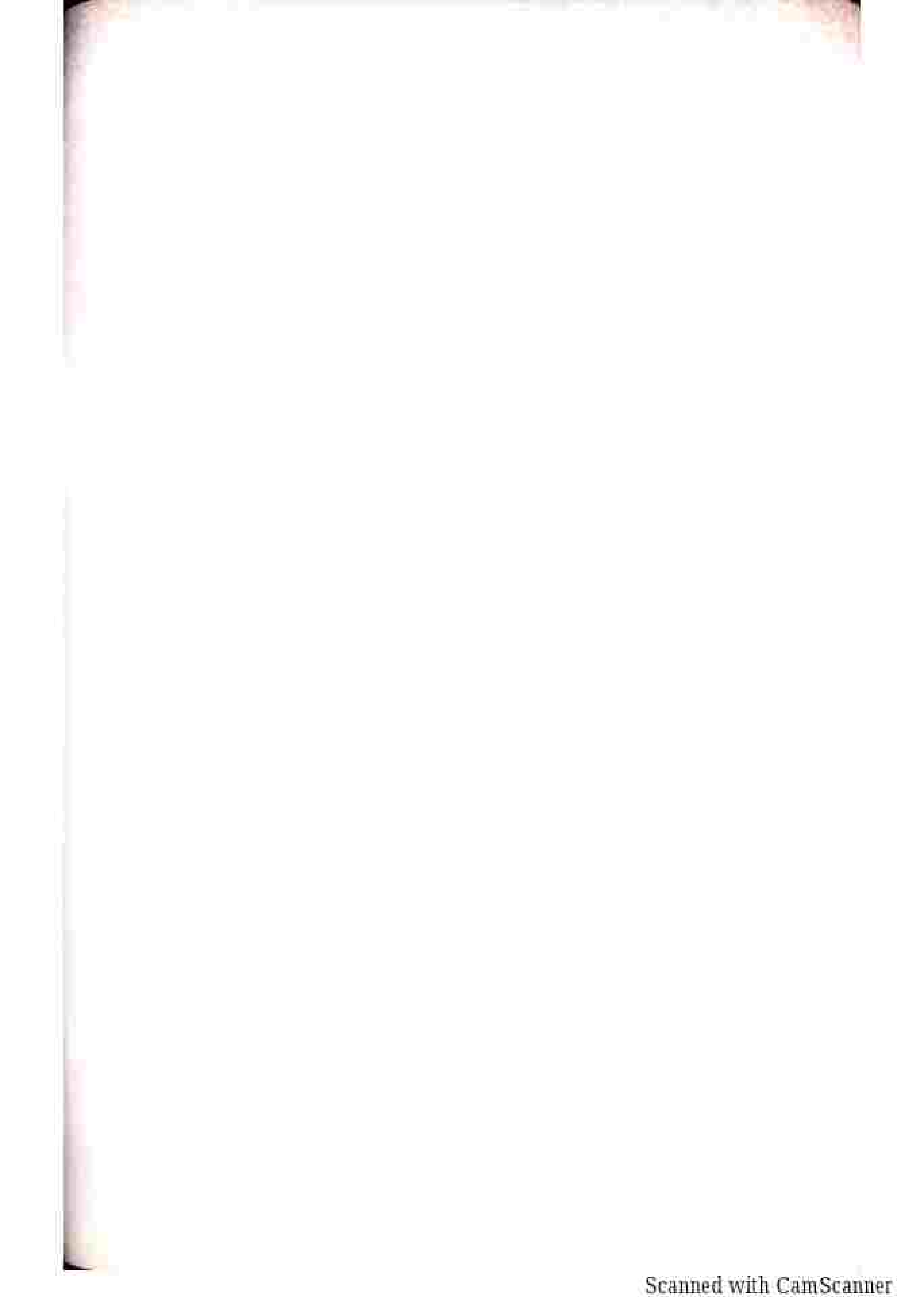
تأليف: د. حميد الحداد

الطبعة الأولى: 1441هـ/ 2019م
رقم الإيداع القانوني: 2019MO5162
ردمك: 978-9920-9896-9-5
الطبع: شمس برينت – سلا

التصميم

الباب الثاني

مقاربة نفسانية لسلوك ابن خلدون وابن الخطيب وابن مرزوق



مقدمة:

أود أولا توضيح نقطتين أساسيتين:

❖ فقد تحفزت لاقتحام هذه المغامرة وإنتاج هذا العمل لغياب شبه تام لدراسات نفسانية تطبيقية تتعلق بمواضيع تاريخية، وبشخصيات عربية إسلامية[1] ولاسيما خلال العصر الوسيط. إذ أن اهتمامات بعض الباحثين ومنهم المغاربة ركزت على الجانب النظري، وترجمت أعمال باحثين ومؤرخين غربيين خاصة الذين انتموا إلى مدرسة الحوليات. وأشير أن اهتمامي بهذا الموضوع أو المحور انطلق منذ فترة ليست بالقصيرة، أنجزت خلالها عملين متواضعين نشرا سابقا.[2]

ونظرا لارتباط موضوع الدراسة بمجال الغرب الإسلامي وبفترة العصر الوسيط أرى ضرورة استحضار وأخذ بعين الاعتبار خصوصيات البيئة الإسلامية عند تطبيق تلك النظريات أو المناهج في مختلف المجالات المرتبطة بالإنسان؛ فقد أمدتنا بعض مؤلفات

---

[1] أشير إلى دراسات تتعلق أغلبها بالفترة المعاصرة: سعيد بحير، الزعيم السياسي والتطور الديمقراطي في المغرب الحديث: دراسة نفسية سياسية للزعيمين السياسيين محمد علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني، طوب بريس، الرباط، ط 1، 2014 م سمير عبده، التحليل النفسي لشخصيات سياسية عربية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط 1، 1999م مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط7، 1998م نوف بنت ناصر البنيان، " طبوغرافية الشخصية الموريسكية قبل التهجير وبعد الاستقرار من منظور سيكولوجي "، ضمن أعمال الندوة الدولية: المدجنون والموريسكيون في المصادر النصية والوثائقية: ذاكرتهم التاريخية في الوقت الراهن، إعداد وتنسيق: مصطفى اعديلة، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط 1، 2017 م، ص ص 93 – 107.إبراهيم ريكان، علم النفس والتاريخ، دار ومكتبة الكندي للتوزيع والنشر، ط 1، عمان، 1435 هـ-2014م

[2] "الخصائص المنهجية لكتابات للدكتور امحمد بن عبود: منهج التحليل النفسي ". وقدمت هذه المداخلة بمناسبة انعقاد ندوة تكريمية له أيام 16، 17، 18 دجنبر 2010 م، ونشرت ضمن مؤلف: من الأندلس إلى تطوان، أعمال الندوة التكريمية للدكتور امحمد بن عبود، تنسيق محمد الشريف، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة الخليج، تطوان، 2013 م، (ص ص 167 – 177). " المقاربة النفسية لظاهرة العنف: نماذج من البحث التاريخي المغربي ". وهي مداخلة شاركت بها في أشغال الأيام الوطنية الحادية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي التي نظمت بالرباط بين 14 – 16 نونبر 2013 م، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط: محورها العنف في تاريخ المغرب، ونشرت هذه الأعمال ضمن كتاب من تنسيق عثمان المنصوري ومحمد ياسر الهلالي، منشورات ملتقى الطرق، 2015 م، ص ص 59 – 79.

التراث الإسلامي[1] بمعطيات هامة، وبمفاهيم ومصطلحات تتعلق بالنفسانيات، ابتكرها علماء مسلمون، يمكننا استثمارها وتوظيفها في دراساتنا، وهذا ما حاولت نسبيا الأخذ به في هذه الدراسة لاسيما الباب الثاني.

❖وأؤكد عدم ادعائي القيام من خلال هذه الدراسة بالتحليل النفسي لظواهر أو لشخصيات، فقط أشير أني قمت بمحاولة اجتهادية في إطار تجديد الكتابة التاريخية، باحثا عن مسلك نفساني لفهم بعض القضايا، ودوافع وبواعث سلوك بعض الشخصيات، لاسيما المستورة والكامنة منها. فلا شك أن الحديث عن العلاقة بين التاريخ وعلم النفس بكافة فروعه ومذاهبه، والانتقال من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي، يحتاج إلى المزيد من التسلح بالعدة المعرفية والمنهجية، ومن ضبط المفاهيم والمصطلحات، كما يحتاج إلى الكثير من الأناة والصبر، قصد التمكن من سبر أغوار المصادر، واستنتاج المعطيات ذات الحمولة النفسية، واستخلاص المادة القابلة للتأويل، لتقديم قراءة وفرضيات، قد تشكل تصورا جديدا في مجال البحث التاريخي.

ثانيا: عرف علم النفس تحولا كبيرا في علاقته بالتاريخ مع سيغموند فرويد(1939 -1858 م)[2] رائد مدرسة التحليل النفسي، والذي لم يحصر نظرياته في نطاق العلاج النفسي فقط، بل أراد لها أن تكون فلسفة نفسية شاملة تفسر السلوك الإنساني، كما تفسر الحضارة والمجتمع.

فقد قام خلال سنوات عديدة من البحث ومحاولات العلاج النفسي للأعراض المرضية (كالهستيريا)بتطوير نظرية خاصة لتفسير عناصر تكوين وعمل النفس الإنسانية. فأصبح لتلك النظرية بالذات ومفرداتها وأدوات التحليل فيها تطبيقات خرجت عن حدود علم

---

[1] مثلا إبراهيم شوقي عبد المجيد وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، 3 أجزاء، إشراف وتقديم محمد عثمان نجاتي، عبد الحليم محمود السيد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط 1، 1429 هـ - 2008 م.

[2] انظر مؤلفات سيغموند فرويد التي بسط فيها آراءه مثل: حياتي والتحليل النفسي، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة، 1981م قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1979م أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1981م. وانظر أيضا:

Saul Friedlander, Histoire et psychanalyse, éd. Du Seuil, Paris , 1975.

Lucien Febvre, Histoire et Psychologies. Encyclopédie Française, t.VIII, Paris, 1938

النفس والتربية والتعليم، لتشمل دراسة أحداث التاريخ والسياسة والمجتمع، [1]واستخدمت معطيات تلك النظرية لتفسير تلك الأحداث واستخراج أنساق معينة من المعطيات التاريخية الأوربية بصورة خاصة أو العالمية.[2]

وإذا كان فرويد قد ركز في تفسيره للشخصية على الطبع بالدرجة الأولى، فإنه برز تيار من داخل المدرسة الفرويدية بزعامة إريك فروم[3](1900م-1980م) رأى أن فهم الشخصية مرتبط بفهم طبيعة العلاقة المعقدة بين الطبع والمحيط – البيئة، فهذه العلاقة ليست بسيطة لأن الطبع يحمل تحديداته الخاصة - الاستعدادات الفطرية. المفاهيم والأفكار الموروثة عن طريق الحياة الأسرية والعائلية، والأحداث الحاسمة والمهمة في الحياة – وبها يخوض علاقته التكاملية أو الصراعية مع عناصر البيئة. وإلى تعقيد سمات الطبع نفسه نضيف التعقيدات الكثيرة التي يملها التركيب الاجتماعي والثقافي والديني أو الإيديولوجي للمجتمع؛ فهذا الأخير ليس مجتمعا واحدا بل بنية يسودها نظام بالغ التعقيد[4]. لذلك ضرورة الحذر من الإغراق في التفسيرات النفسية للظواهر الاجتماعية والاقتصادية التاريخية.[5]

و تناولت بعض الدراسات[6]وإن باقتضاب تطور توظيف السيكولوجيا في البحث التاريخي، اتضح أن الألماني كارل لامبرخت(1856م-1915م)و الدنماركي- الألماني – الأمريكي

---

[1] انظر بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، ص 17 (من مقدمة المترجم). انظر أيضا في التفسير (أو التأويلية)، محاولة في فرويد، ترجمة وجيه أسعد، أطلس للنشر، دمشق، 2003م.

[2] منصور أحمد أبو خمسين، " نظرية فرويد وأثرها في البحث التاريخي "، مجلة المؤرخ العربي، العدد 2، يناير، 1994 م، ص 14، 16، محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 2، 1423 هـ - 2002 م، ص 123.

[3] عالم نفس وفيلسوف ألماني أمريكي، من أهم مؤلفاته: التحليل النفسي والدين، رسالة سيغموند فرويد: تحليل لشخصيته وتأثيره، أزمة التحليل النفسي: مقالات عن فرويد وماركس وعلم النفس الاجتماعي.

[4] أريك فروم، "العدوانية المؤذية والعدوانية غير المؤذية"، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 27-28، 1983 م، ص113.

[5] انظر على سبيل المثال: قدري حفني، "حول التفسير النفسي للتاريخ"، مجلة الفكر المعاصر، القاهرة، العدد 60، فبراير 1970 م،(ص ص 24 – 31)،و لمحات من علم النفس: صورة الحاضر وجذور الماضي، الهيئة العامة للكتاب، 2000م.

[6] عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، ج 1، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط 2، 1992 م، ص ص 161-174. محمد حبيدة، المدارس التاريخية: برلين – السوربون – ستراسبورغ، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2018 م، ص 9-10. خالد طحطح، "السيرة النفسية: لوثر والإصلاح الديني"، مجلة أمل التاريخ الثقافة المجتمع، العدد 51، 1918 م، ص ص 58-60.

إرك إريكسونErik Erikson(1902 – 1994 م)، والنمساوي وليم (فلهلم)رايش (1897م-1957 م)،[1] وإريك فروم كانوا من الأوائل الذين استخدموا هذا البعد في فهم التاريخ، لدرجة أثارت تحفظ المؤرخين الآخرين، فكان أثرهم الخفي أحيانا والمعلن أحيانا أخرى، ملموسا في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية بالخصوص.

وعندما برزت مدرسة الحوليات دعت إلى توسيع مفهوم الوثيقة، فقد نادى هنري بير HenriBerr(1863م–1954م) ولوسيان فيفر (1878م-1954م) إلى اعتبار التطور السيكولوجي في فهم التحولات التاريخية الكبرى، وعبر الأول عن ذلك بوضوح منذ سنة 1911م في التركيب والتاريخ: «إجمالا التاريخ هو علم النفس ذاته: إنه ميلاد النفس ونموها»[2].واقترح فيفر مشروع تاريخ آخر يعمل على إعادة وضع الأفكار والأعمال والسلوك داخل الشروط الاجتماعية التي أفرزتها، فجر مفهوم العقليات نحو ما هو سيكولوجي، في حين فضل مارك بلوك (1886م –1944م) ما هو سوسيولوجي.[3] وبعد انطلاقة فيفر الأولى كمؤرخ للعقليات في البحث فيما هو اجتماعي وتمثلي في ثقافات الماضي، كرس كل جهده في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته للبيوغرافيات الكبرى ومنارات التاريخ الفكري والديني في القرن السادس عشر: مارتن لوثر، فرانسوا رابلي.[4]

وفي هذا السياق سجل لوسيان فيفر، «نحن نعطي اهتماما أكبر للدور الذي لعبته الجغرافية الفيدالية والسوسيولوجيا الدوركايمية في قيام مدرسة الحوليات، لكن قد يكون من غير المنطقي إهمال البعد السيكولوجي»[5]، فالأفراد والجماعات لا يمارسون السياسة

---

[1] حاول التوفيق بين الماركسية والتحليل النفسي، من أهم مؤلفاته علم النفس الجماعي للفاشية، وتحليل الشخصية، Wilhelm REICH. La Psychologie de masse du fascisme, Paris . 1977 وكان قد ألفه سنة 1933 م ، أيضا ألف تحليل الشخصية 1933م.

[2] جاك روفيل، تاريخ العقليات، ضمن الكتابة التاريخية، التاريخ والعلوم الاجتماعية، التاريخ والذاكرة – تاريخ العقليات، ترجمة محمد حبيدة، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015م، ص 131.

[3] نفسه، ص 131، 134.

[4] نفسه، ص 132.

[5] نفسه، ص 130.جاك روفيل، "تاريخ العقليات "، ترجمة محمد حبيدة،، مجلة أمل، العدد 7، السنة الثالثة، 1996م، ص 64. فرانسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، المنظمة

والاقتصاد والاجتماع انطلاقا من آليات معيارية (قانونية – اجتماعية) عقلانية فقط، ولكن أيضا من خلال ضوابط نفسية مختلفة؛ وإن فهما أعمق للظواهر السياسية التي تخترق بشكل كثيف العوالم الاجتماعية، يستوجب المرور الإجباري عبر حقل علم النفس[1].

وهكذا تبلورت حقول معرفية مثل Psychographie الذي يهتم بدراسة الشخصيات من خلال الدراسة السيكولوجية وPsycho histoire الذي يهتم بدراسة التاريخ باستعمال مناهج التحليل النفسي[2]، فأنجزت أبحاث بيوغرافية هامة سمحت بربط علاقة الفرد بالمجتمع، وبرز عمل القديسلويس التاسع (1226م – 1270 م)[3]، والملك لويس الرابع عشر (1643 – 1715 م)،[4] والمارشال كيوم[5] والإمبراطور فريدريك الثاني(ملك ألمانيا 1212م– 1250م)،[6] كما ظهرت دراسات حول شخصيات أهمها ويلسون وهملر وستالين[7]، مما دفع بيير شونو(1923م- 2009 م) إلى الإشادة بهذه الأصناف من الأعمال، وسجل متمنا «أليس من السليم والمشروع أن يبذل تيار آخر غير التيار الجديد قصارى جهده ليتعرف إلى اختلاجات النفس، والقدر الفردي، ومأساة الضمير»[8].

العربية للترجمة، بيروت، ط 1، يناير 2009 م، ص 72.انظر أيضا محمد حبيدة، من أجل تاريخ إشكالي: ترجمات مختارة، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، الطبعة الأولى، 1425 هـ-2004 م، ص 138.

[1] حوكا بن أحمد، "التسلط في علم النفس السياسي: أية آفاق ابستملوجية في مرحلة ما بعد أدورنو"، مجلة وجهة نظر، العدد 49، السنة 14، صيف2011 م، ص 3.

[2] - مصطفى لخصاصي، قضايا إبستمولوجية وديداكتيكية في مادتي التاريخ والجغرافية، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001م، ص42.

[3] مارتن لوثر، 1928 م، مسألة الإلحاد في القرن 16 م: ديانة رابليه، 1942م.

Jacques le Goff, Le saint Louis , édition Gallimard,1996.

انظر خالد طحطح، البيوغرافيا والتاريخ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2014 م.

[4] Pierre Goubert, Louis XIV et vingt millions de Français ,Fayard , Paris ,1966.

[5] George Duby, Guillaume le Maréchalou le meilleur chevalier du monde , Fayard , Paris , 1984.

[6] Erst Kantorowicz , L'Empereur Frederic II , Gallimard, 1987.

[7] إريك فروم، المرجع السابق.ويلسون (رئيس الولايا ت المتحدة الأمريكية بين 1913 م – 1921م)، هملر(القائد العام للشرطة ووزير داخلية الرايخ الألماني بين 1936 م – 1945 م)، ستالين(رئيس الاتحاد السوفياتي 1924 - 1953 م)

[8] فتحي ليسير وخليفة بن عسكر، بيوغرافيا قائد غامض، مركز سرسينا للبحوث حول الجزر المتوسطية، صفاقس، ط 1، 2001م، ص 33 – 34، وهي في الأصل أطروحة دكتوراه نوقشت في تونس، نقلا عن خالد طحطح، المرجع السابق، ص21.

ونتج عن هذا حسب جاك لوغوف (1924 م–2014م)تصاهر مفهوم العقليات مع علم النفس الاجتماعي.[1] وتعرض جورج دوبي (1919 م–1996 م)في مقال حول تاريخ الذهنيات[2] - معتمدا على لوسيان فيفر - إلى كيفية استغلال علم النفس في الدراسات التاريخية. وحدد الموضوعات التي تستدعي الاستظهار بالنفسانيات في التربية والتغذية وأنساق العلاقات والقيم الاجتماعية والأمراض والأوبئة وحالات الحروب والصراعات الداخلية وحالات الاضطهاد[3].واستطاع أنصار هذا الاتجاه توسيع دائرة البحث التاريخي لتشمل قضايا جديدة كالجنون والجنس والانتحار؛ كذلك ألقت هذه الدراسات الضوء على العديد من المؤسسات التي لم تكن تحظى باهتمام يذكر لدى باحثي التاريخ كالسجون والمستشفيات والعيادات النفسية وغيرها.[4]

ثالثا: نستنتج أن النفسانيات تهدف بصفة عامة والتحليل النفسي التاريخي بصفة خاصة إلى البحث عن الدوافع أو الرغبات التي كانت وراء اتخاذ شخصيات أو جماعات قرارات أو ممارسة سلوك معين، مع تفسير ذلك. «فالتحليل النفسي في الجوهر هو النبش عن الأصول، عن الأوليات التي تركت آثارها منقوشة في الأعماق»[5]. أعماق ضمير المنصور بن أبي عامر والمعتضد العبادي وابن تومرت وعبد المومن الكومي وابن الأبار وابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون وغيرهم، أي العودة إلى سيرهم الذاتية. وهذا بالتالي «يعتبر أساس المصادر المفيدة للمحلل النفساني الذي يتصرف أيضا كأي مؤرخ، يبحث عن مصادر أولية ليكون منها وثيقة تتناسب مع مشاغله وأغراضه. يلجأ إلى المادة نفسها التي يستغلها المؤرخ أو الأنثروبولوجي أو اللغوي: الأساطير والطقوس والعقائد والأعمال الفنية و...»[6].

فقد سعت النفسانيات وتسعى إلى فهم أفضل وأكثر عمقا للإنسان وتاريخه، ومؤسساته المختلفة، وإنجازاته الحضارية المتفاوتة الأهمية. فالسيكولوجية يمكن أن

---

[1] جاك روفيل، المرجع السابق، ص 137.

[2] العروي، المرجع السابق، ص 168.

[3] نفسه، ص 168 – 169، جاك روفيل، نفسه، ص 138، والمصطفى لغصاضي، المرجع السابق، ص 37.

[4] منصور احمد أبو خمسين، المرجع السابق، ص 28.

[5] العروي، نفسه، ص165، نقلا عن فرويد، قلق في قلب الحضارة، 1929 م، ترجمة ف. باريس، 1971.

[6] نفسه، ص 166.

تقدم جانبا ذو معنى للتفسير التاريخي، تدفع إلى الاهتمام بعنصر اللاوعي فيه، وقد تساعد المؤرخ بتوجيه فكره إلى صياغة أسئلة جديدة أو فرضيات أكثر مما ستقدم له أجوبة، وتمكنه من توسيع آفاق الفهم التاريخي.[1]

خلاصة القول، إذا كان التاريخ يعتمد على النقد، نقد المصادر والوثائق، فإن موضوع علم النفس والتحليل النفسي تحديدا هو تطوير الوعي النقدي نفسه.

رابعا: قسمت هذه الدراسة منهجيا إلى بابين:

الباب الأول: خصصته لدراسة العنف بمجال الغرب الإسلامي من المنظور النفساني، إذ يعتبر من الثوابت في تاريخ الإنسانية، وقد بذل الباحثون في مختلف المجالات وشتى التخصصات جهودا لتوضيح أسبابه وأشكاله وخفاياه[2]، وتم طرح أسئلة وإشكالات تمحورت جلها حول ماهية العنف ومصادره ومسبباته، وما إذا كان يرتبط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أم بالجانب السيكولوجي الغريزي للفرد، أم بهما معا.

وقد أشرت إلى أهم المصادر التي توفر مادة «سيكولوجية» والتي يمكن أن تقدم إضافة للبحث التاريخي، إذا ما وظفت مناهج علم النفس، والمحاولات التي قام بها بعض المؤرخين المغاربة لاستثمار مفاهيم علم النفس في التاريخ أو الدعوة إلى ذلك، والتعريف ببعض الآليات النفسانية التي يمكن توظيفها في تفسير ظاهرة العنف، مثل الاقتداء والتماهي والتعويض والسادية والهو ومفهوم الزعامة وما يرتبط به من الاستمهاء والسخاء والجود والحلم وحسن التواصل.

أما الباب الثاني فقد هدفت منه محاولة الاقتراب منسمات وبواعث سلوك ثلاث شخصيات ساهمت في أحداث تاريخية خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهي ابن الخطيب (ت 776هـ / 1374 م) وابن مرزوق (ت 781 هـ / 1379 م)و ابن خلدون (ت 808هـ / 1406 م)؛ مع الإشارة أنه لابد للمؤرخ أثناء دراسة السير الذاتية من الأخذ

---

[1] المصطفى لخصاصي، نفسه، ص 39.

[2] انظر قصد المزيد من التفصيل: حميد الحداد، السلطة والعنف في الغرب الإسلامي، دار محاكاة للنشر والتوزيع، ودار النايا للنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 2011م. النفي والعنف في الغرب الإسلامي، دار إفريقيا - الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2013 م.

بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية التي عاش فيها الشخص، باعتبار تأثيرها كعوامل أو سياقات خارجية في تكوين تلك الشخصية.[1]

وافترضنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة اتسام الشخصيات الثلاث بالعجب بالذات -وهو مفهوم اقتبسناه من مصادر التراث الإسلامي التي اهتمت بالنفسانيات-، المتمثل في الميل إلى الاستعلاء والتطلع للمناصب العليا والسخرية والازدراء بالآخرين. كما افترضنا إصابتهم بالإحباط بعد فشلهم السياسي لعدم تمكنهم من إشباع جميع رغباتهم، فأصيبوا بالقلق والهم والغم، وحاولوا اللجوء إلى حيل دفاعية منها التبرير، والشعور بالذنب، والانسحاب. إضافة إلى نكوصهم، فلجأوا إلى التصوف بحثا عن الاطمئنان والسكينة، فرارا من الحياة السياسية المليئة بالمؤامرات والسعايات والمحن والكروب، وهو سلوك نقدر أنه سبق لهم أن مارسوه بشكل أو بآخر في فترات سابقة.

وقد حاولنا استخلاص المعطيات أساسا من السير الذاتية للعناصر الثلاثة، وإتمامها بنصوص أخرى من خلال مصادر متنوعة، فاعتمدنا على نفاضة الجراب(760هـ-763 هـ)[2]لابن الخطيب، ورحلة (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا)[3] لابن خلدون، والمناقب [4] والمسند [5] لابن مرزوق؛ مع توضيح أن المؤلفين الأولين يندرجان ضمن كتب الرحلة، ولكنهما في الواقع سيرتين ذاتيتين، أو مذكرتين شخصيتين، إضافة إلى ذلك اعتمدنا على الإحاطة التي ترجم فيها ابن الخطيب لنفسه، كما تناول وإن باقتضاب ترجمة

---

[1] انظر دافيد أو. سيرز، ليولي هادي، روبرت جير فيس، المرجع في علم النفس السياسي، ج 1، ترجمة ربيع وهبة، مشيرة العزيري، محمد الرخاوي، مراجعة وتقديم قدري حفني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2010 م، ص 219.

[2] نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ج 2، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 م. الجزء الثالث، تقديم وتحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989 م، كما يتبغي الاستعانة أيضا بالإحاطة والكتيبة الكامنة وروضة التعريف وغيرها.

[3] عبد الرحمان ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1425 هـ 2004 م.

[4] أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1429 هـ- 2008 م.

[5] المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م.

ابن خلدون وابن مرزوق. أما المسند فبالرغم من أنه يتناول مناقب السلطان أبي الحسن المريني، إلا أنه يقدم لنا معطيات غنية عن المؤلف والمحيط الذي احتضنه، والخبرات التي راكمها، والوظائف التي تقلدها، والإكراهات التي اعترضته.

وأعتقد أن هذه المؤلفات وغيرها مثل إحياء علوم الدين ومكاشفة القلوب والنهج المسلوك في سياسة الملوك تعتبر مصادر هامة للدراسة والبحث. الأمر الذي يتطلب تحليل مضمون نصوصها المكتوبة، بوصف بعضها تعكس الخصائص النفسية أو الشخصية للأفراد، ولاسيما قدراتهم وميولهم وبواعث كثير من سلوكهم.

كما اعتمدنا على بعض المؤلفات المتعلقة بالتحليل النفسي أو علم النفس مثل بعض مؤلفات فرويد المشار إليها سابقا، وإيريك فروم. إضافة إلى المعاجم مثل معجم التحليل النفسي لبونتاليس ولا بلانش[1]، وموسوعة علم النفس والمرجع في علم النفس السياسي وغيرها[2].

وأود أن أشكر صديقي الدكتور أحمد المطيلي (المتخصص في علم النفس) الذي كان له الفضل في تقديم اقتراحات تتعلق بجوهر هذه الدراسة، وإبداء وجهة نظره، فساعدني في ضبط كثير من المفاهيم، ووجهني إلى العودة إلى بعض المراجع أثناء المناقشات التي كنا نتبادل فيها الرأي. ولا يفوتني أيضا تقديم الشكر الجزيل للصديق الدكتور محمد الشريف الذي زودني بمراجع هامة ساعدتني في توضيح بعض القضايا التي كانت غامضة.

---

[1] جان لا بلانش، وج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي،، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4 منقحة ومزيدة، 1422 هـ - 2002 م.

[2] انظر مثلا رفيق العجم، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1999 م. أو سيرز، دافيد، ليوني هادي، روبرت جير فيس، المرجع السابق. عبد الرقيب أحمد البحيري، الشخصية النرجسية دراسة في ضوء التحليل النفسي، دار المعارف، ط 1، 1987 م.



الباب الأول:

مقاربة نفسانية لظاهرة العنف

أولا، حضور النفسانيات في تفسير ظاهرة العنف في تاريخ المغرب

1-نماذج لما توفره بعض المصادر من إمكانيات لتوظيف المعطيات النفسانية

لا بد في البداية من التأكيد على شح المصادر في توفير المادة المتسمة بحمولة نفسية من شأنها تمكين الباحث من استخلاص ما يمكن من دراسة وتحليل سلوك الأفراد-حكاما كانوا أو وزراء أو علماء أو متصوفة- والجماعات، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالتاريخ الوسيط، إلا أننا نعثر فيها-بالرغم من ذلك - على بعض الإشارات، وندلل على ذلك بهذه الأمثلة:

أ. كتب التراجم:

يبرز ليفي بروفنسال أهمية كتب التراجم قائلا: «إن محتواها يبدو لنا أكثر غنى وأكثر حيوية، وإن أردنا القول أقل رسمية من محتوى الإنتاج الإستغرافي، والتي هي موجهة دائما تقربيا نحو السلطان وحاشيته، وعلى عكس ذلك فإن الأدب المتعلق بالقضاة والقضاء يقبل الالتفات إلى الطبقات الدنيا في المجتمع، وبالتالي يظهر لنا بعض مميزاتها وواقعها ونفسيتها»[1]. ويتبين لنا أهمية هذا النوع من المصادر في توفير مادة تمكن من استخدام علم النفس في الكتابة التاريخية، ذلك أن المعطيات المتضمنة فيها أصبحت تستدعي توظيفا جديدا وتأويلا آخر، «إنها بحاجة إلى تحليل منهجي إذا ما أردنا تجنب مرحلة الجمع البسيط للمعلومات وتراكمها وتخطيها، إذ أن هاته المعلومات تبقى في عزلتها وخارج إطار تحليلي ما، غير ذات أهمية أو تبقى خاضعة للصيغ النمطية لكتاب التراجم»، [2] إضافة إلى ذلك تمكننا من استخلاص مادة غنية من الإشارات المختلفة المتعلقة بالسعايات والمؤامرات التي كانت تحاك داخل البلاطات.

---

[1] E.L. Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, T. III, Paris, 1967, p. 114.

[2] محمد الشريف، " ملاحظات منهجية لقراءة جديدة لكتب التراجم المغربية – الأندلسية: قراءة في كتاب عالم علماء الأندلس" لدومنيك أورفوا، ضمن التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ندوة 4، أبريل 1991م، ص 510.

تجدر الإشارة أن هذه المؤلفات أقرب إلى الصدق والاعتدال من مؤلفات الإخباريين، لأن البيوغرافيين لم يكونوا مدفوعين بحافز الحصول على هبات من الأسر الحاكمة أو صلات من الشخصيات البارزة التي يؤرخون لها، اللهم إلا إذا كانوا من نفس الأسر الحاكمة.[1] ومن أهم هذه المؤلفات الصلة لابن بشكوال (494 هـ - 578 هـ)[2] الذي لم يعن فيه بالجوانب الأدبية عند العالم، بل وجه عنايته نحو الجانب الأخلاقي والسلوكي عنده[3]، وقدم لنا عدة أمثلة تتعلق بالعنف - سجن قاضي الجماعة بقرطبة أبي بكر يحيى بن وافد اللخمي(ت 404 هـ)[4] وقتل الفقيه العالم عمر بن الحسن الهوزني[5]«أبا حفص»-تبين استبداد الملوك، وعدم رعايتهم لحرمة النفس الإنسانية. فملوك الطوائف وأمراء الأقاليم

---

[1] حميد الحداد، النفي والعنف، م س، ص 206.

[2] أبو القاسم خلف ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، جزآن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م، وهو في مجلدين. وقد وصل عدد العلماء الذين قام ابن بشكوال بالترجمة لهم إلى 1525عالما، ما بين محدث وفقيه وقاض وأديب. يقول ابن الأبار (ت 658 هـ/ 1260 م) " هو كتاب في فنه خطير القيمة، ضروري الاستعمال، لا يستغني أهل الفقه عن التبلغ به والنظر فيه والاحتجاج منه.. سلم له أكفاؤه فيه ولم ينازعه أهل صناعته الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق إليه." أبو عبد الله محمد ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، ضبط نصه وعلق عليه جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2008م، ص 211.

[3] ابن بشكوال، نفسه، ج 1، ص ع.

[4] نفسه، ج 2، ت 1457، ص 663- 664، أبو الحسن علي ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، حققه وعلق عليه د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1978م، رقم 98، ص 157.القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذاهب مالك، ج 7، تحقيق سعيد أحمد أعراب، تطوان، 1402هـ/ 1982م، ص 178- 180." نالته محنة شديدة من قبل البرابرة-زمن سليمان المستعين- حين تغلبهم على قرطبة، إذ حبس بقصرها إلى أن توفي به، وأخرج إلى الناس مغطى في نعش." وذكر ابن سعيد أنه "حمل راجلا، مكشوف الرأس، مهانا، يقاد بعمامته في عنقه، والمنادي ينادي عليه هذا جزاء قاضي النصارى، ومسبب الفتنة وقائد الضلالة.. والناس تتقطع قلوبهم لما نزل به.. وأدخل على سليمان بن حكم المستعين في تلك الحال، فأكثر توبيخه، وأغراه به البرابرة، فأمر بصلبه.. فاضطرب البلد له، فرفع عنه الصلب والمثلة.. وأمر بضمه إلى المطبق وتثقيفه.. واعتل ومات 404هـ. فوضعه الأعوان بالميضأة موضع غسل المحاويج، فاحتمله قوم إلى دار صهره ابن الأغبش الفقيه، فشد الباب في وجه النعش، وتبرأ منه تقية، وتكلف الزاهد حماد بن عمار." ابن سعيد، نفسه، ص156-157، والقاضي عياض، نفسه.

وكان ابن وافد ممن خالف- مع بعض المفتيين من العلماء والفقهاء- "المنصور بن أبي عامر في الفتوى بالتجميع في الجامع الذي بناه في مدينته بطرف قرطبة الشرقي المسماة بالزاهرة، فسخط على البعض منهم، فأسقط ابن وافد عن الشورى والشهادة وألزمه داره.

Viguera María Jesús,« Los Jueces de Córdoba en la primera mitad del siglo XI: (Análisis de datos) », Al-Qantara,V, 1984,p126

[5] -الصلة، ت 865، ص 402 (يذكر أنه دفنه ليلة 16ربيع الثاني 460هـ)

كانوا خصوصا في أواخر أيامهم أشد على إخوانهم من الروم الذين كانوا يجاهدونهم،[1] الأمر الذي يدفعنا إلى ضرورة توظيف النفسانيات للاقتراب أكثر من فهم دوافع بعض السلوكات التي قد تبدو لنا لأول وهلة غير منطقية وغير مبررة.

أما «الحلة السيراء»[2] لابن الأبار (597 هـ - 658 هـ/ 1199م – 1260م)فتشتمل على طائفة كبيرة من تراجم رجال السياسة والثقافة بالأندلس والمغرب، ابتداء من القرن الأول الهجري حتى أوائل المائة السابعة، وهو بجانب كونه مصدرا تاريخيا يعتبر من ضمن مصادر الأدب الأندلسي.[3] وقد زودنا بنصوص جد هامة في مجال دراستنا، تحتاج إلى معول البحث وتوظيف مناهج متنوعة منها المنهج النفسي.

ويقدم «الإحاطة في أخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب[4] (713هـ-776هـ)(1313م – 1374 م)معطيات هامة عن الشخصيات التي ترجم لها، كما ترجم لحياته الخاصة في أخر الجزء الرابع، مما قد يسمح للباحثين باستخلاص نتائج جديدة إذا ما وظف منهج التحليل النفسي في تحليل سلوك الشخصيات المترجم لها بما فيها ابن الخطيب نفسه، والذي سنحاول تقديم تأويلات وافتراضات بشأن سلوكه ومواقفه المتقلبة.

ويعتبر مؤلف «روضة النسرين في دولة بني مرين» لإسماعيل ابن الأحمر[5](725 هـ - 807 هـ / 1325 م – 1405 م)سجلا يتضمن أسماء ملوك الدولة وكناهم وألقابهم وأنسابهم، وتواريخ ميلادهم وولاياتهم ووفياتهم، والمدد التي قضوها في الملك، مع بيان أوصافهم الخلقية والخلقية، وذكر رجال دولهم وما خلفوه من بنين وبنات، إضافة إلى ذلك فإنه يعكس على

---

[1] كتاب الحلة السيراء، لابن الأبار، دراسة عبد الله أنيس الطباع، دار النشر العامميين، بيروت، 1381 هـ/ 1962 م، ص 327.

[2] ابن الأبار، الحلة السيراء، جزآن، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف القاهرة، ط 2، 1985م.

[3] للمزيد انظر مقدمة الكتاب خاصة ص ص7 – 19.

[4] حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، القاهرة، ط 2، 1973م، انظر مجلة كلية الآداب، تطوان، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، العدد الثاني، السنة الثانية، 1987م، والتي ضمت عدة مقالات منها: امحمد بن عبود، ابن الخطيب مؤرخا للأندلس في عهد الطوائف، ص ص159 – 184، وأمين توفيق الطيبي، لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس (القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي)، ص ص185 – 206.

[5] تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1411 هـ - 1991م.

صفحاته القليلة الصراع العنيف الذي نشأ بعد انهيار دولة الموحدين بين الأسرتين الزناتيتين الكبيرتين: بني مرين ملوك فاس، وبني عبد الواد ملوك تلمسان، وهو بذلك يتضمن مادة يمكن توظيفها في المقاربة النفسية لسلوك الشخصيات وتفسير الأحداث[1].

خلاصة القول تقدم هذه المصادر مادة نسبيا هامة في مجال دراستنا، تحتاج إلى اجتهاد الباحثين في توظيف المناهج الحديثة لإعادة قراءتها ولاسيما المنهج النفسي.

<u>ب. المؤلفات الأدبية</u>

لا يخفى على دارس العصر الوسيط ما يمكن أن تنقله المختارات الأدبية من معلومات تاريخية غنية وفريدة، لاسيما بالأندلس، إذ استفاد الأدباء كتابا وشعراء من تجربتهم الشخصية في مجال الآداب، وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من هذه الشخصيات كابن حزم، وابن زيدون، والقاضي أبي القاسم ابن عباد وابنيه، وابن الخطيب، تميزت بمشاركتها الفعالة في صنع أحداث الفترة الوسيطة.

وتتجلى قيمة الكتب الأدبية في تسليط الأضواء على الحياة الاجتماعية بإبراد بيئة ووسط ووضع الشاعر أو الأديب، إضافة إلى تبيان نظرة المجتمع إلى المهن ومستوى الحياة الاقتصادية للطبقات الفقيرة، ونظرتها إلى الطبقات الحاكمة والمالكة للثروة، كما أنه ينقل لنا صورة غنية عن عقلية الشرائح الاجتماعية الأكثر حظوظا.

إن تفسير الآداب وتقويمه يكون أكثر وضوحا ودقة إذا عرفت الظروف التي قيل فيها، والحوافز التي دفعت إليه، والملابسات التي صحبته، وفي نفس الوقت تسهم هذه المقدمات في توضيح الإشارات التي تحتويها القصائد وتحديد مدلولها.

ومن بين أهم المختارات الأدبية خاصة الأندلسية نجد «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام[2] على سبيل المثال لا الحصر، وكتاب «المقتضب من تحفة القادم»

---

[1] نفسه، ص 9، من مقدمة المحقق.

[2] أبو الحسن علي بن بسام (ت 542هـ/1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 8أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دا الثقافة، بيروت، 1417 هـ- 1997م

لابن الأبار، و«المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد و«النفح في غصن الأندلس الرطيب» للمقري، ومن الملاحظ أن هذه المنتخبات تختلف عن بعضها البعض من حيث المنهج والأهداف، ولكنها جميعا تمنح الباحث صورة فريدة في غناها عن بعض الشخصيات الأدبية التي تميزت بمشاركتها الفعالة في صنع أحداث الفترة.

ونشير إلى اعتماد ابن بسام على ابن حيان الذي اتسمت كتاباته بالنقد، وأشار إلى ظواهر اجتماعية كالعصبية، والتفاوت والصراع الاجتماعيين، وانتشار الظلم والتنكيل وفساد القضاة، وتدني الأخلاق، والاستهتار باللذات والتبذير، الأمر الذي يشكل مادة هامة للباحث في تحليل شخصيات الفترة كالمعتضد والمهدي وغيرهما.[1] ويمكن اعتبار البعد البيوغرافي للذخيرة جانبا مكملا، حيث إن وضع الشواهد الشعرية والنثرية في سياقها التاريخي وتحليلها والتعليق عليها يعتبر أساسيا[2].

وكان ابن بسام[3] نسبيا أكثر تفصيلا في تناول مقتل عمر بن الحسن الهوزني (أبو حفص)«ولما ثبتت قدم المعتضد في الرياسة، ودفع إلى التدبير والسياسة، أوجس منه ذعرا، وضاق بمكانه من الحضرة صدرا، وأحس بها أبو حفص، فاستأذن المعتضد في الرحلة 440هـ (الصحيح 444هـ)، ثم عاد وسكن مرسية. فلما غلب الروم على مدينة بربشتر456هـ، خاطب المعتضد برقعة يحضه فيها على الجهاد، فراجعه برسالة من إنشاء الوزير الكاتب أبي الوليد بن المعلم يستدرجه إلى ملحده، فلما كان يوم الجمعة 11ربيع الأول 460هـ، أحضره المعتضد القصر، وقد غلب – زعموا – عليه السكر، وأمر

---

[1] الطاهر أحمد مكي، الشعر الأندلسي: نشأته وخصائصه، مجلة البحث العلمي، العدد، 1966م، ص 189.

Juan Vernet , La cultura hispano árabe en Oriente y Occidente , Barcelona, 1978, p8.

[2] راجع دراسة أمين توفيق الطيبي حول هذا المصدر في كتابه، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، بيروت، 1984م، ص 248-257.

[3] الذخيرة، نفسه، ق 2، م 1، ص 82- 83، وابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار المعرفة، البيضاء، دون تاريخ، ص 153، (اعتبره شهيدا، انظر ترجمة 478).ابن سعيد، مص س، ج 1، رقم 158، ص 239- 240. أبو العباس أحمد المقري (ت 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 2، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان(دت)، ص 297، وج 3، ص 385، والقاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 8، تحقيق سعيد أحمد اعراب، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1403هـ / 1983م،ص 157، (ذكر أن القتل تم في جمادى الأول).

خادمين من فتيانه بقتله. فكلاهما أشفق من سوء فعله، وفر. فقام إليه هو بنفسه، وباشر قتله بيده، وأمر بدفنه بثيابه وقلنسوته، وهيل عليه التراب داخل القصر من غير غسل ولا صلاة».[1]

فتشفي المعتضد بأعدائه بهذه الطريقة تدل على حالة مرضية وشذوذ لا شك فيهما. وبخصوص أسباب هذه التصرفات اللا إنسانية، فإنها تكمن في الجزء الحيواني والعدواني من الكائن البشري (آثار الغضب الحيوانية).[2]

نستنتج أن ذخيرة ابن بسام تقدم للباحث صورة أكثر وضوحا عن عصر الطوائف بالخصوص، لما تتوفر عليه من نصوص تعبر عن البعد السياسي والاجتماعي لأصحابها، مما يستدعي الوقوف عندها وتوظيف المنهج النفسي لمعرفة جوانب متعددة من سلوك شخصيات وتاريخ ذلك العهد.

أما «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري (ت 1040 هـ/ 1630 م)[3] فبالرغم من الطابع العام الذي يسيطر على هذا المصدر، فهو يحتوي على معلومات سياسية واجتماعية إضافة إلى اقتصادية غاية في الأهمية، ويقدم نصوصا أدبية غنية ما تزال بحاجة إلى الدراسة والتحليل؛ فقد تناول مثلا بتفصيل نسبي شخصية ابن الأبار، حيث أورد نصا لابن سعيد في القدح المعلى[4] يستخلص منه سوء أخلاقه، وكبرياءه وعجبه بذاته مما نتج عنه تعرضه لعدة نكبات. فقد رشحه السلطان أبو زكرياء الحفصي (ت 647 هـ)(حكم من 1228م إلى 1249 م) لكتب علامته في صدور مكاتباته، فكتبها مدة ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها،[5] مما أدى إلى انفعال ابن الأبار وغضبه وسخطه، وأنشد:

---

[1] جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة القرن 5هـ/11م إلى سقوط غرناطة القرن 9هـ/15م، ج 1، تونس، 1994م، ص 126- 127.

[2] كونستان حامس، ابن خلدون والدفاع عن الملك الشرعي، مجلة أبحاث للعلوم الاجتماعية، عدد 28- 29، السنة العاشرة، خريف 1992م، ص19.

[3] المصدر السابق، وهناك نسخة من تحقيق إحسان عباس في 8أجزاء، دار صادر، بيروت 1388 هـ/1968م.

[4] المقري، النفح، ج 4، ص 282.

[5] نفسه، ج 3، ص 347.

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فحكم عليه السلطان «بالإقامة الإجبارية» واستشفع بابنه المستنصر، فأعاده إلى الكتابة، ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه. إلا أن طموحه وتطلعاته وتكبره أدت به إلى انزلاقات فاعتقل، ثم « قتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة 658 هـ، وأحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه.»[1]

نعتقد أن هذا المصدر يحتاج إلى سبر أغواره باستثمار مناهج متنوعة ومنها المناهج موضوع الدراسة.

ج. كتب الآداب السلطانية

قدمت كتب الآداب السلطانية معطيات هامة تتعلق بموضوع دراستنا. ومن أهم النماذج: السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، للمرادي(489 هـ / 1096 م)[2] الذي أشار إلى الفرار من سوء العادة ورياضة النفس قبل الحاجة،[3] وتناول الكلام والصمت،[4] والحلم والصبر،[5] والغضب والرضى،[6] والتجبر والخضوع،[7] والحزم والتفريط،[8] والكتمان

[1] نفسه، ص 348. وكان أعداؤه يلقبونه بالفار، وحصلت بينه وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي مهاجاة، فقال فيه:

لا تعجبوا لمضرة نـــالت ... جميع الناس صادرة عن الأبار

أو ليس فارا خلقة وخليقة ... والفار مجبول على الإضرار

[2] أبو بكر محمد المرادي الحضرمي، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، منشورات علي بيضون محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.1، 1324 هـ - 2002 م وهناك نسخة من تحقيق علي سامي النشار، دار السلام، القاهرة، ط 1، 2009م.

[3] نفسه، ص 27 – 29.

[4] نفسه، ص 47 – 48.

[5] نفسه، 49 – 50.

[6] نفسه، ص51.

[7] نفسه، ص 52.

[8] نفسه، ص 53.

والإذاعة،[1] والعجلة والتوالي والتوسط.[2] كما أشار إلى الغرائز والشهوات، والسلم والتأهب للحرب والخوف والفرار والثقة والمكر، وهي مفاهيم تحتاج توظيف معاجم التحليل النفسي لتقريبها إلى الأذهان واستثمارها بشكل جيد.

كما تناول الشجاعة والجبن معتبرا إياهما غريزتين في أصل الخليقة، والأصل في الشجاعة ربوط الجأش، وقلة التخوف في مواطن البأس، أما الجبن فهو شدة الخوف واضطراب الجأش..[3] «والشجاعة من محاسن الأخلاق، لأنها تكفي كثيرا من القتال، ويكون صاحبها منصورا بالرعب، بخلاف الوصف بالدهاء والحيلة، فإن الوصف بهذا مضرة على صاحبه.. ومما يستحق الإنسان به اسم الشجاعة، أن يكون لا يحدث نفسه بالفرار».[4] وأشار المرادي[5] إلى الحرب والسلم طالبا من العاقل مهما بلغت قوته ومنعته أن لا يجني أو يضيف عداوة وبغضا هو في غنى عنها، اتكالا على ما عنده من الرأي، وثقة بما لديه من القوة.. كما يحث على الصلح باعتباره أحد الحروب التي يدفع بها الأعداء عن المضرة[6]. كما يوصي العاقل بالحذر من عدوه حتى وإن بعد، وأن لا يأمن مكره وخداعه .[7] و يطالب المرادي[8] بالتأهب للحرب حتى في حال السلم، والخوف من العدو حتى في حال الصلح.

نستنتج أن هذا النوع من المصادر يقدم معطيات هامة ذات حمولة نفسية، مما يحتم على الباحثين إعادة قراءتها وتحليلها وتأويلها ثم استثمارها، إذ قد تقدم رؤى مختلفة، ونتائج جديدة في مجال البحث التاريخي.

---

[1] نفسه، ص 56.

[2] نفسه، ص 57.

[3] نفسه، ص 60.

[4] نفسه.

[5] نفسه، ص 61.

[6] نفسه.«فإذا كثر أعداؤك فصالح بعضهم، وأطمع بعضهم في صلحك، واستقبل بعضهم بحربك»

[7] نفسه، ص 61– 62.

[8] نفسه، ص 62.

د.المذكرات:

وهناك صنف آخر من المصادر يطلق عليه المذكرات أهمها التبيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين[1](خلع 483 هـ)، إذ يقول محققه ليفي بروفنسال عنه، إنه «**وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول**»[2]، وهو حسب الترجمة الإسبانية التي وضعها غارسيا غوميس له، «**القرن الحادي عشر في ضمير المتكلم**»، ويعكس العنوان البعد الشخصي بل الذاتي لهذا الكتاب على مستويات متعددة[3].

وقد سبق للدكتور ابن عبود أن أشار لهذا البعد النفسي للتبيان في تحليله لدوافع ملوك الطوائف وقراراتهم وأعمالهم[4]. فقد ترك لنا الأمير وصفا وتحليلا لما كان يدور في عقول عدد من الحكام وغير الحكام المعاصرين له. كما وصف ما كان يدور في ذهنه عند تطرقه لعدد من الأحداث والمواقف التي اتخذها، وقدم لنا أفكاره والدوافع الخفية وراء قراراته[5]، بل إنه ذهب إلى تحليل سلوك وعقلية خصومه أمثال ابن عمار وزير المعتمد(قتل 479 هـ)[6] أو ألفونسو السادس (465 –502 هـ / 1072 – 1109م)، فالمصدر غني بالألفاظ التي تحمل شحنة نفسية، فقد وصف النفوس بالفزع والوجس، والجزع

---

[1] الأمير عبد الله بن بلقين، التبيان – مذكرات الأمير عبد الله -، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر، 1955م

[2] نفسه، ص 8.

[3] امحمد بن عبود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبعة النور، تطوان، 1408هـ - 1987م، ص 158.

[4] نفسه، ص 59.

[5] امحمد بن عبود، "التجديد المنهجي والمجتمع الطائفي"، ضمن التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، منشورات جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، منشورات الكلية، ندوات 4، أبريل 1991م، ص 360

[6] انظر المراكشي عبد الواحد، (ت 647 هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978م، ص 188.

والجبن، والرغبات واليأس والثأر، وغيرها[1]، إضافة إلى المؤامرات،[2] والمبررات النفسية،[3] ونواياه ونوايا غيره[4].

وأشار ابن بلقين[5] أيضا إلى قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا، فقال: «والصبوة تحدث للإنسان ميجانا وهموما: كالمهتم بالنظر في ماله، أو المشغب بمحاولة ما يصلحه.. والنفس تواقة: متى سمحت إلى مرتبة، تاقت إلى ما فوقها؛ فالعاقل يرى أن كل كد وطلب دون السعي في طلب ما، لابد منه من قوام العيش فخر وأشر ورغبة وحرص.. .والإنسان ولو أن له الدنيا أجمع، لم يكن له منها زائدا إلا حظ العين الذي يستوي به فيه مع غيره من الناظرين، فسلم من تبعاته، وتورط هو في حسابه وأوزاره. وما كان إلى انقطاع ونفاد، فحقيق على اللبيب أن يزهد فيه؛ لو آلت حاله إلى السلامة بعد ذهابه، لا عليه ولا له. فكيف، وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحساب والجنة والنار؟»

ويضيف: «وأجدني في كثرة المال، بعد تملكي عليه مع ذهابه، أزهد مني فيه قبل اكتسابه، مع شفوف الحال إذ ذاك على ما هي عليه الآن، وكذلك شأني كله في كل ما أدركته قبل من الأمر والنهي، واكتساب الذخائر، والتأنق في المطاعم والملابس والمراكب والمباني، وما شاكل من الأحوال الرفيعة التي نشأنا عليها، حتى إنه لم يبق من ذلك ما تتمناه النفس، وما لا تظنه، إلا وقد بلغنا منه الغاية، وتجاوزنا فيه النهاية. ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكا، فتطول عليه الحسرة، ويعد من جملة

---

[1] ابن بلقين، نفسه، ص 42، 45- 47، 49، 51، 53، 55 -57. وانظر أيضا مجموعة: فرج عبد القادر طه، شاكر عطية قنديل، محمد السيد أبو النيل، حسين عبد القادر محمد، مصطفى كامل عبد الفتاح، معجم علم النفس والتحليل النفسي، إشراف ومراجعة فرج عبد القادر طه، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، (د ت)، ص 259.

[2] نفسه، ص 27 – 29. فقد تناول الأمير عبد الله بن بلقين المؤامرة التي دبرت لإسناد الإمارة إلى بدير بن حباسة قبل موت حبوس بن ماكسن باستعمال مفاهيم الشره والعداوة والإيثار.

[3] نفسه، ص 31، يبرر الأمير عبد الله سلوك الأميرين حبوس وباديس في استوزار اسماعيل بن النغريلة: " هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي، فيتقي منه إدخال داخلة مع غير جلسه من السلاطين ". انظر أمين توفيق الطيبي، م س، ص203.

[4] نفسه، ص 122 – 126و139.

[5] نفسه، ص 196.

الأحلام ابل تمادى برهة من عشرين عاما، وما كان قبله يكاد أن يوازنه، إذ ربينا في حجره.[1] »

«ووجدتني بعد فقد هذا كله، على الولد أحرص مني على ما سواه من كل ما وصفنا، لعدمه ذلك الوقت، وقلت في نفسي: الغاية التي إليها يسعى الناس من أمر دنياهم قد أدركناها، وشهرنا بها في الافاق، ولابد من فقدها باكرا كان أو مؤخرا، بحياة أو موت ! فنحسب هذه العشرين عاما هي مائة عام إذا تمت سواء، وكأن لم تغن بالأمس ! ونحن الآن جدراء بالنظر فيما نبتغيه.»[2]

خلاصة القول إن استعمال ابن بلقين لهذا البعد في كتابته التاريخية يبرز – حسب أحد الباحثين -[3]التطور الذي عرفته الكتابة التاريخية في الأندلس خلال هذه الفترة، إذ كانت تتقدم على نظيرتها في الممالك المسيحية.كما أن المادة الغنية التي قدمها ابن بلقين تسمح إذا ما وظف منهج التحليل النفسي باستخلاص غاية في الأهمية.. فقد أشار إلى اندفاع الشباب والتطلع لما هو أسمى وأفضل سواء على مستوى السلطة أو التملك المادي، مبرزا في النهاية ضرورة استحضار الجانب الروحي في حياة الفرد لإحداث التوازن النفسي، كما يستشف مما سبق حدوث انقلاب نفسي في حياة الأمير عبد الله نقدر أنه أصيب بالإحباط..

ه. مصادر متنوعة:

أخبار المهدي وبداية دولة الموحدين للبيدق:[4]

يعتبر كتاب أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين لأبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، من المصادر الأساسية للدولة الموحدية في فترتها الأولى التي اتسمت بكثير

---

[1] نفسه، ص 197.

[2] نفسه.

[3] ابن عبود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ط2، 1999، ص 161.

[4] أبو بكر بن علي الصنهاجي – البيدق –، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م

من العنف، ويكتسب مصداقيته من معاينة المؤلف للعديد من الأحداث التي يذكرها، وهو ما أشار إليه محقق الكتاب بقوله: «إن الكتاب قيم جدا من الوجهة التاريخية، ترجع أهميته إلى كون مؤلفه شارك بنفسه في صنع الوقائع التي وصفها، وإلى كون الأخبار التي تضمنها، فيها من الدقة والتفصيل والسذاجة أيضا ما يكشف جوانب غامضة من نفسية محمد بن تومرت، وسلوك أنصاره وحقيقة دعوته»[1].

إن البيدق وهو شاهد عيان يزودنا بمعطيات عن بعض القرارات التي اتخذها القادة الموحدون بزعامة ابن تومرت والبشير الونشريسي وعبد المومن، وخاصة ما يتعلق بقضيتي التمييز[2] والوعظ والاعتراف،[3] وهي أقرب أن تكون موضوعا للتحليل النفسي لشخصياتهم منها إلى البحث السياسي أو الاجتماعي الذي ينير طريقنا لفهم سلوكهم.

روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب[4]:

تتجلى قيمته في تناوله مرحلة هامة من حياة ابن الخطيب، تبرز نهاية تأزمه النفسي، بعدما عانى من النفي والمصادرة والتهميش، والقلق لاسيما الروحي الذي ميز مرحلة حياته الأخيرة، لذلك فهو يبرز جانبا آخر من حياة ابن الخطيب وهو التصوف وليس الأدب والتراجم والتاريخ.[5] وأشار الكتاني إلى أن هذا العصر (القرن الثامن الهجري) تحكمت في نفسيته عوامل التصوف والقيم الروحية، بالرغم من كونه لم يحكم هذه القيم في حياته إلى الحد البعيد، فلقد «كان التصوف ملاذ العازفين عن الدنيا، وأمل الغارقين في الواقع المروما يلابسه من ضلال وانحراف، وبلسم المكلومين بنكبات الدهر»[6].

---

[1] نفسه، من مقدمة عبد الوهاب بنمنصور، ص 5.

[2] نفسه، ص 41.

[3] نفسه، ص 70- 72وقد بلغ عدد القتلى الناتج عن هذه العملية 32030 قتيلا، انظر محمد المغراوي، الموحدون وأزمات المجتمع، جذور للنشر، الرباط، ط 1، 2006م، ص 27.

[4] لسان الدين ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 1970 م.

[5] نفسه، ص 53 (من مقدمة المحقق).

[6] نفسه، ص 49 (من مقدمة المحقق).

وقد تناول لسان الدين المحبة وأسبابها،[1] والقلق الروحي الذي سببه صراعه بين مغريات السلطان والجاه والنفوذ، وبين هواتف الضمير والقيم والدين،[2] وتحدث عن القلب،[3] والروح،[4] والنفس،[5] والنفس المطمئنة،[6] والنفس الأمارة،[7] والنفس اللوامة،[8] والكسل،[9] والغرائز، والأمزجة ومكتسباتها العامة من خبرات واعتقادات ومعارف، وأعطى بذلك صورة كاملة عن تحليل الإنسان، كما بلغت إلى ذلك معرفة عصره.[10] كما تناول نفس الإنسان وهو يجاهدها ويروضها من أخلاق مذمومة،[11] ومؤثرات معاكسة، وانحرافات وأمراض نفسية.[12]

وبذلك فإنه أشار إلى تأثير النكبات على حياته النفسية والمادية، فغيرت آمالها يأسا وظلاما، وذلك ما اعتقد الكتاني أنه حصل لابن الخطيب بعد نكبته الأولى مع سلطانه الغني بالله سنة 760 هـ حيث وفدا على البلاط المريني،[13] ففي ذلك ما يوضح لنا أسباب النقمة عليه والسعاية به، كما يوضح لنا أن ذلك الفرار من الأندلس لم يكن- حسب الكتاني -[14] إلا نتيجة حتمية لا تجاه نفسي قديم، ثم يقول بعد ذلك:

---

[1] نفسه، ص 287، 352 – 355، 383 –386.

[2] نفسه، ص 39.

[3] نفسه، ص 127.

[4] نفسه، ص 128.

[5] نفسه، ص 132 - 133

[6] نفسه، ص 164.

[7] نفسه، ص 165.

[8] نفسه، ص 166 – 167.

[9] نفسه، ص 194 – 195.

[10] نفسه، ص 41، (من مقدمة المحقق).

[11] نفسه، ص 213.

[12] نفسه، ص 42.(من مقدمة المحقق).

[13] نفسه، ص 51.

[14] نفسه، ص 57- 58: «... وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفي على الموت... وقد دالت الدولة، في أمة ليس فيها إلا مذنب بقول أو عمل، والمال معدوم، وبناء الملك مهدوم، والألقاب قد ذهبت رسومها، والأحوال قد تغيرت صفاتها، والدنيا قد اختلفت مألوفاتها، والخدام المتغلبون على الدولة قد سفكوا الدماء، واتبعوا الحسائف، واطاعوا المطامع، بحيث عادت الثورة، فلولا دفاع الله كانت القاضية فشمرت لإصلاح القلوب،

«وفي كل آونة وساعة، وأثناء كل تفرد وخلوة، بعد أن كبر الولد، واستراح من هم الحرص الخلد، أخاطب نفسي فأقول لها: يا مشؤومة، أما تشعرين لما نزل بك، حملت هذا الكل على ضعفك، وأوسعت هذا الشغب في فكرك، وعمرت بهذه الحظوظ حظ ربك، وتعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته، وتسخطي المعطي بما يرى أنك قد منعته من الزيادة في عطيته، وتسخطي الأجنبي بالقبول على عدوه، والميل إلى ضده، وتسخطي الجاني بإنفاذ العقوبة في جنايته والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه، وتسخطي الجيش باختباره وعرضه، ومنع المدفوع إليه في غير حقه، وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية، وأخذها بالإعداد لعدوها في الشدة. وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم، وتعادين الملوك المجاورة بالتوقف في أغراضهم التي يصعب قضاؤها، ويضر بالدولة إمضاؤها، وتعادين ولد السلطان وحظيته، فلكل منهم مطلب يختص به، وطور مثلك بعيد.. عن التهجم فيه والافتيات على صاحب الدار، وتعادين السلطان بعدله في الشهوات، والقيام دونه دون كثير من الأغراض.. وصرت أنظر إلى الوجوه فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها، والصبغة في كل يوم تستحكم، والشر يتضاعف، ونعمة الولد تطلق لسان الحسود.. والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يفتنون في الإطراء والمديح، وتحسين القبيح، والمحالات في الغي، والتقرب بالسعي، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون.. فإذا انصرفوا صرف الله قلوبهم، فقلبوا الأمور، ونقلوا العيوب، وأفسدوا القلوب وتعللوا بالأحلام وقواطع الأحكام.. »[1]

نستنتج من كلام ابن الخطيب سيطرة حالة العجز والضعف عليه، وفقدان الأمل، وانتظار المكروه، فقد قام بتقييم لماضيه وواقعه، فتبين له ضرورة إعادة النظر في سلوكه

وسد الحسائف وتأنيس الشارد، وتأمين الخائف، وإرضاء الجند، وتوفير المال، ومحاولة عدو الدين... وقد عادت مع ذلك عوائد العافية، وفتحت على الأندلس أبواب الخير»

[1] نفسه، ص 58 – 59.

وما بقي من عمره، عن طريق هجره الحياة السياسية والإقبال على الزهد والتصوف استعدادا للحياة الأخروية.[1]

تلك صورة دقيقة عن نفسية ابن الخطيب وأزمته، بصفها بنفسه، ولم يكن بد من أن تدفعه إلى الفرار بنفسه،[2] مادام استحالة إرضاء الجميع في الممارسة السياسية، فتحول دون إشباع رغباتهم، أو عدم تلبية مطالبهم، مما يؤدي غالبا إلى بروز أعداء ومعارضين فلاحقوه، وقضوا عليه.

أكيد أن النصوص المقدمة غنية بالدلالات النفسية العميقة التي تحتاج إلى المزيد من سبر أغوارها، وتوظيف مختلف المناهج لاسيما المنهج النفسي في محاولة فهم دوافع مختلف أنواع سلوك ابن الخطيب خلال فترات حياته السياسية المتقلبة، والتي انعكست على مصيره وأثرت في قراراته، وهذا ما سنتجرأ القيام به في الباب الثاني.

مقدمة ابن خلدون:

نجد في مواضع كثيرة من المقدمة ما يبين استكناهه لعدد من الظواهر النفسية المتعلقة بسلوك الفرد والجماعة وعلاقة الحكام بالمحكومين، ومن ذلك إشارته إلى آلية الاقتداء بالغالب التي كان له الفضل في اكتشافها، والتي تذكرنا بآلية التماهي بالمعتدي – التي سنتطرق إليها لاحقا- على نحو ما وصفها كل من المحللين النفسانيين فرنكزي1932م وأنا فرويد 1936م [3].

---

[1] نفسه، ص 59. لسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، القسم الثاني، اعتنى بنشره وتصحيحه إ. ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العليا المغربية، الرباط، 1353 هـ / 1934 م، ص 362–364. «وأنزل الله عز وجل علي حبال العجز والكسل، وسقوط الأمل، وتوقع الشر، وفساد الفكر، وجمع المطالب كلها، والآمال بأسرها، في حصول راحة، وتمني خلوة، وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمن وخلو من شغب، فألححت على السلطان، تارة أطالبه بإنجاز وعده، والوفاء بعهده، وتارة بالعمل على اكتساب بغضه... إلى أن لم يبق بيني وبينه إلا أن يذهب القشر وينكأ القرح» ص 364.

[2] نفسه، ص 59.

[3] أحمد المطيلي، الاغتراب الجسدي، مجلة قضايا، العدد 1، 2004م، ص 17.

يقول ابن خلدون: «من طبيعة الملك الانفراد بالمجد، ومن الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة، إذ يأنف زعيم العصبية من المساهمة والمشاركة له في الحكم، ويتسم بخلق التأله الذي في طباع البشر»[1]. فالنفس حسب ابن خلدون «أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أولما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا، فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء، أو لما تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب، تغالط أيضا بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول. ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائما، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم، حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر عن ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: العامة على دين الملك، فإنه من بابه، إذ الملك غالب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه، اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم ..»[2].

نستخلص أن المقدمة تحتوي على معطيات هامة تتعلق بالجانب النفسي، كما نستخلص اقتداء المغلوب بالغالب في أغلب الأحيان، إضافة إلى تبادل التأثير والتأثر بين الفرد والجماعة. وأدرج ابن خلدون أيضا فصلا في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها

---

[1] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة الأسرة، القاهرة، ط 2، 2006م، ص 531.

[2] نفسه، ص505.

أسرع إليها الفناء[1].وبذلك يتضح أن صاحب المقدمة قد سبق عصره لاسيما ما يتعلق بمجال علم النفس الاجتماعي، وهو ما دفع أحد الباحثين[2] إلى الإشارة أن ابن خلدون قد سبق ولخص أبرز أفكار علماء النفس والاجتماع مثل فرويد وباولو فبريري في حديثهم عن تعليم المقهورين، وتماهي المقهورين بالقاهرين، فعملية الاقتداء والتقليد تؤدي بالضرورة إلى التماهي والتوحد في سلوك وأفكار وعادات وأسلوب حياة الغالب من خلال المعادلة المعروفة «المنتصرهو الذي يصيغ الواقع المفروض على المغلوب وفقا لقواعد اللعبة»، الأمر الذي يؤدي إلى انعكاسات وتأثيرات تتخلل الجوانب المعنوية على كافة المستويات النفسية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية.

خلاصة القول كان ابن خلدون سباقا إلى إبداع فكرة التماهي بالغالب أو بالعدو كما صاغها فرويد في عالم علم النفس ومصطلحاته، وتحدث عنه فرانز فانون(1925م - 1960م)في كتابه معذبو الأرض.[3]

كما طرح ابن خلدون مسألة الأمور الخفية في الحروب، [4] معتبرا إياها «أمورا سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها. تلقى في القلوب فيستولي الرهب عليهم لأجلها. فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة، وأكثر ما تقع الهزائم عن هذه الأسباب الخفية لكثرة ما يوظف لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب، فلابد من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة».

---

[1] نفسه، ص 506.

[2] بلال عوض سلامة، ثقافة الغالب والمغلوب في فكر ابن خلدون: قراءة فلسطينية، جامعة بيت لحم، دائرة العلوم الاجتماعية، ص 1-2

https://scholar.najah.edu/sites/default/files/conference-paper/thqf-lglb-wlmglwb-fy-fkr-bn-khldwn-qr-flstyn

يوم 28-3 – 2019م.

[3] نفسه، ص 7. فرانز فانون، معذبو الأرض، دار القلم، بيروت، 1972 م، ص 37 وهناك نسخة أخرى من ترجمة الدكتور سامي الدروبي والدكتور جمال الأتاسي، دار الفارابي ومنشورات أنيبANEP ، بيروت- الجزائر، 2004 م.

[4] المقدمة، نفسه، ص 686.انظر مثلا محمد منير حجاب، الحروب النفسية، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2005 م. ولذلك قال الرسول (ص)«الحرب خدعة »، ومن أمثال العرب: «رب حيلة أنفع من قبيلة».

وانتقد ابن خلدون[1] أبا بكر الطرطوشي الذي أشار إلى دور العدد الزائد في أحد الجانبين في الانتصار، بينما أشار هو إلى أن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من التخاذل ما يقع في الجماعات المتفرقة الفاقدة للعصبية، إذ تنزل كل عصابة منهم منزلة الواحدة، ويكون الجانب الذي عصابته واحدة متعددة لا يقاوم الجانب الذي عصبيته واحدة لأجل ذلك.

نستخلص أن ابن خلدون يشير إلى دور العوامل المعنوية النفسية في الحروب، والتي لها تأثير كبير على الاستعداد والمثابرة والحماس وتحمل الشدائد.

وإذا كنا قد أشرنا باقتضاب في مقدمة هذا البحث المتواضع إلى أن للعنف تاريخا يتطابق مع تاريخ الإنسانية، فإن ابن خلدون يؤكد أن نشأة الدولة في المجتمع تكون نتيجة للصراع بين عصبيات، فتكون الدولة للعصبية الغالبة، ويكون العنف حاضرا في صراع العصبيات[2].

من جانب آخر أكد ابن خلدون على تأثير التربية في فترة الطفولة على حياة الإنسان، يستخلص من كلامه[3] أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم، مشيرا إلى الانعكاسات النفسية السلبية لذلك، إذ تثبط عزائمهم في النشاط والإقبال على المزيد من التعلم. كما أشار في

---

[1] نفسه، ص 687.

[2] محمد وقيدي، "هل هناك عنف مشروع "، مجلة الأيام، العدد 19، 11 – 17يناير 2002م، ص 24.

[3] ابن خلدون، نفسه، ج 3، ص 1118-1119: « فالولد مادام في الحجر، منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة» ويضيف: «وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر، من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين.. وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف.. فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبد عليهم في التأديب». انظر خليل شرف الدين، ابن خلدون، في سبيل موسوعة فلسفية رقم 6، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، 1995 م، ص 123-127.

المقدمة إلى أهمية التدرج في التعليم، والانتقال من البسيط إلى المركب، ومراعاة الفروق الفردية..

تبرز هذه العينة من المصادر، وإن تطرقنا إليها بإيجاز شديد، أن بعض المصادر المغربية الأندلسية وغيرها تتوفر على مادة، على الرغم من ضآلتها، ذات دلالات نفسية، مثل الرغبة في السلطة التي ترتبط بالدوافع لاسيما الدافع إلى الاستبداد والقهر والتجبر، وهي من سمات الشخصية، كما أشارت إلى العلاقة بين النفس والبدن، وتلبية الشهوات، والإقبال على الدنيا بالتطلع للوظائف السامية وتملك العقار، إضافة إلى مفهوم الاقتداء والتعلم وسيكولوجية الفروق الفردية، وسيكولوجية القيادة، والمثابرة وضبط النفس، والانفعالات، والدعوة إلى التوبة التي توحي إلى الشعور بالذنب(وهذا يمكن الاستفادة منه في علم النفس العام وعلم النفس التربوي وعلم النفس الاجتماعي وسيكولوجية الانفعالات). ويمكن اعتبارها إشارات أو مؤشرات قابلة للخضوع لأدوات التحليل السيكولوجي، لتجنب الاكتفاء بالقراءة السطحية التقليدية، مع تجنب الشطط في الاستنتاجات بعدم استخراج من النص أكثر مما يريد أن يقوله.

2- المقاربات النفسية لظاهرة العنف في الدراسات التاريخية المغربية المعاصرة:

لا تخلو الدراسات التاريخية المغربية المعاصرة من محاولات لتوظيف النفسانيات في البحث التاريخي، سواء في سياق الانفتاح على العلوم الإنسانية، أو من خلال الدعوة إلى التمكن من آلياته ومفاهيمه والاستعداد العلمي لتطبيقه، والتنبيه إلى فاعليته وأهميته في تطوير هذا البحث وتعميقه.

وقد سبق أن تناولنا في إحدى الدراسات[1] دعوة ابن عبود لاستثمار علم النفس في تفسير سلوك المعتضد، اعتمادا على ما لمسه من اطلاعه على مضامين بعض المصادر الهامة مثل كتب التراجم، و«كتاب التبيان» على الخصوص، التي حفزته للدعوة لتوظيف هذا العلم في التاريخ، وأكد على أنه يمكن أن يقدم إفادة حول التأثير على السلوك، وهو

[1] حميد الحداد، المناهج المستعملة في كتابات د.امحمد ابن عبود، المرجع السابق.

هنا يلتقي مع ما ذهب إليه وليم رايش،[1] بالرغم من الانتقادات التي وجهها للتحليل النفسي.

وقد أكد ابن عبود على إمكانية تفسير المواقف السياسية لبعض الحكام اعتمادا على هذا المنهج، وذلك بدراسة نفسيتهم وطباعهم ونماذج من سلوكهم، فمثلا لا يمكن فهم أسباب بعض المواقف الفظيعة والشنيعة للمحتضد إلا بعد الرجوع إلى طفولته وتحليل شخصيته[2]. وقد سبق عند تناولنا أهمية مقدمة ابن خلدون[3] الإشارة إلى تأكيده على تأثير التربية في فترة الطفولة على حياة الإنسان، ذلك أن أحداث الطفولة لها تأثير كبير على الإنسان خاصة في الست سنوات الأولى من العمر، إذ لا تكون لديه قدرة على الفهم والتحليل والتمييز، عكس المراحل الأخرى حيث يزداد الوعي والإحساس والقدرة على اتخاذ القرار بشكل مستقل. فبعض الأحداث أو السلوك تكبت في أعماق اللاشعور نتيجة الرجة التي تحدثها في النفس، لكنها تظل يقظة تعمل عملها في شكل أفكار أو هواجس أو أفعال لا يدرك كنهها، وقد تظهر آثارها على حين غرة محملة بشحنة كأنها قريبة زمنيا، مع العلم أنها تعود إلى زمن بعيد.

ويعتبر عبد الله العروي من أبرز الباحثين المغاربة جنوحاً إلى التجديد في الطرح والموضوعات والاستفادة من المناهج الغربية في إعادة كتابة التاريخ المغربي[4]، فقد تناول المدرسة النفسانية في مؤلفه مفهوم التاريخ[5]، وتطرق لمسلمتين: الأولى تشابه الناس في ظاهرهم وباطنهم، والثانية أن الوقائع تغير نفسانية المشاركين فيها. وأشار إلى أن المؤرخ يهدف إلى تقريب روايته من قدرات فهم معاصريه، إضافة إلى أنه يروي حوادث تاريخية،

---

[1] المادية الجدلية والتحليل النفس، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحداثة، (د.ت)، ص 86.

[2] انظر محمد بن عبود، التجديد المنهجي والمجتمع الطائفي، م س، ص 359 – 360، والتاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، تطوان، 1983م، ص 56، 63. ابن عذاري، أبو العباس أحمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 3، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وإ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص 295.عبد الله أنيس الطباع، المصدر السابق، ص 259. (رهن المعتضد لدى يحيى ابن حمود عام 414هـ وهو في سن السابعة)

[3] ابن خلدون، المقدمة، ج 3، ص 1118.

[4] عبد القادر عثمان محمد جاد الرب، "المدرسة التاريخية المغربية الحديثة، وتأثيرات الموقع الجغرافي في تحديد سماتها وخصائصها"، مجلة التاريخ العربي، العدد35، صيف 2005 م، ص 161.

[5] عبد الله العروي، المرجع السابق، ص ص 161 – 174.

أي تلك التي تركت آثارا واضحة في نفوس الأجيال اللاحقة، مفسرا بذلك الفوارق بين الأمم والشعوب، وتساءل هل الحدث وليد نفسانية الأفراد أم هذه هي التي تولدت عن الأحداث ؟

وعرض العروي أفكار بعض الباحثين الذين اهتموا بهذا الجانب أمثال لامبرخت وبوركهارت ثم فرويد، وطرح بعض الإشكالات[1] التي تعترض المؤرخ في هذا المجال، متسائلا هل يبقى التاريخ تاريخا بعد الخضوع لمنهج التحليل النفسي الذي اهتم أساسا بالأبطال والنوابغ، والروائع الفنية والأدبية، وبالحالات المرضية، بينما اهتم المؤرخون في المقابل بالأحوال العادية والحياة اليومية ؟[2]

وانتقد محمد زنيبر تخريجات بعض المؤلفين والمتضمنة لبعض التأويلات والاستنتاجات المتعسفة والمتعلقة بقضية المهدوية ومدى صدق ابن تومرت في ادعائها، كما رفض أطروحة بعض كتاب الأخبار القدماء في اتهام ابن تومرت بالدجل– دون تصريح -، أو تبرير مواقفه وإجراءاته من طرف البعض الأخر بانتمائه البربري[3].

وتساءل الباحث عن الأسباب التي دفعت ابن تومرت إلى ادعائه أنه المهدي، مشيرا إلى أهمية التحليل النفسي في معرفة شخصيته وسبر أغوارها، مع وضع مسار ابن تومرت في سياق تاريخي، وتتبع تطوره وتكون قناعاته لينطلق في تنفيذ مشروعه، متسلحا بالنزعة النقدية والإرادة والعزيمة.

وقد اختتم الباحث بحثه بإشكالات تتعلق بشخصية ابن تومرت داعيا إلى تطبيق المنهج النفسي الاجتماعي للإجابة على هذه الإشكالات.

واعتبر محمد المغراوي[4] أن قراءة التاريخ النفسي الجماعي لأهل العصر الوسيط باتت مسألة ضرورية الآن أمام المؤرخين، ومن أولى الخطوات الضرورية في هذا الاتجاه، محاولة

---

[1] نفسه، ص 164 و162، المصطفى لخصاضي، قضايا إبستمولوجية، م س، ص 40.

[2] لخصاضي، نفسه، ص 41.

[3] ابن تومرت، مساره النفسي والفكري، ترجمة محمد معتصم، ضمن المغرب في العصر الوسيط: الدولة – المدينة – الاقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، ط 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 24، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1999م، ص 133 – 150.

[4] محمد المغراوي، م س، ص14-15.

قراءة سلوك بعض الشخصيات المركزية، مثل الخلفاء الذين كتبت عنهم مادة أوفر نسبيا، وصفية ووثائقية، قد يؤدي استغلالها إلى اكتشاف عناصر مهمة في المشهد السياسي العام، وينسحب الأمر كذلك على النخب المختلفة. كما دعا إلى التعرف على الآثار النفسية الجماعية للأزمات المختلفة، وانعكاسها على تكوين الشخصية المغربية، باعتبارها مسألة مغرية من الناحية العلمية، لكنها تجربة تحتاج إلى الكثير من الأدوات والوقت لتحليل جميع أنواع الخطابات التي أنتجها أهل ذلك العصر، وقراءة العديد من المؤشرات السلوكية التي تمكن من اختبار ردود الفعل النفسية الجماعية من جميع الأحداث والأزمات، مما يعني أن الباحث يدعو إلى الانتقال من تحليل الشخصية إلى تحليل العقلية الجماعية: الأسرة أو القبيلة أو المجتمع، متأثرا في ذلك بما دعت إليه مدرسة الحوليات.

لكن سول فريلا ندر في مدخل كتابه التاريخ والتحليل النفسي يشير إلى فشل كل المحاولات المعروفة حتى اليوم للانتقال من تطبيق التحليل النفساني على الأفراد في التاريخ إلى تعميمه في النظرة الجماعية

ويمثل حميد تيتاو فئة الباحثين الذين اهتموا بالتفسير النفسي، فقد اعتمد في أطروحته[1] على نصوص مخطوطة ودراسات هامة تتعلق بالتاريخ والمجال النفسي[2]، وعالج الحرب من جانب الميول والرغبة والقبول والاستعداد لها من طرف المجتمع، إضافة إلى الثأر وإفناء الذات في مصلحة الجماعة (الرابطة العصبية)[3]، كما تطرق في بحثه إلى الانعكاسات النفسية لها خلال العصر المريني، مشيرا إلى أن آثارها تستمر حية في نفسية من حضرها وفعلت فعلها فيه[4]، وأنها تنتج عالما سيكولوجيا مختلفا تنقلب فيه القيم وتبرز سلوكات وتمثلات جديدتين. وأشار إلى المعاناة الناتجة عن ظاهرة الأسر والغارات

---

[1] الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010 م.

[2] يعقوب غسان، سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة، دار الفارابي، بيروت، 1999م. محمد عثمان نجاتي، علم النفس الحربي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1956م.

[3] تيتاو، م س، ص 430.

[4] نفسه، ص 464.

المتبادلة والحرب النفسية (قصف العقول) وإذلال المغلوب[1]، مقدما عدة أمثلة على ذلك، ومنها إصابة الأمير تاشفين بن علي المريني بمرض نفسي نتيجة أسره في وقعة عسكرية، إذ بقي ناقص العقل، مختل المزاج[2]، ومستخلصا أن إعادة التجربة أو الخطأ أو الإثم أو الجناية تعني إعادة العقاب نفسه[3]. وأشار إلى الآثار النفسية بين ثنايا كتابات علماء المرحلة، والغرق في الما ورائيات والخرافة[4].

واستخلص أنه كلما تراكمت مثل تلك المشاهد، تكررت وتضخمت مشاعر العجز والقلق، فأصبح الإنسان نتيجة ذلك في حالة تهديد دائم لحياته، صريحا كان أم مضمرا، وأضحى القلق على الصحة والرزق والأمن يلازمه على الدوام.

ويمكن أن نضيف إلى الأمثلة أعلاه، أطروحتنا[5] التي خصصناها لدراسة العنف والسلطة، معتمدين على مصادر متنوعة وعلى رأسها كتب التراجم والآداب، ومجموعة هامة من الدراسات، فقد تبين لنا أن تناول موضوع العنف والإحاطة بجوانبه المختلفة، لا يمكن أن يتم اعتمادا على منهج واحد، نظرا لتعدد أشكال العنف، واختلاف مستوياته، وأن التغلب على هذه الصعوبة المنهجية يتطلب تعاون أنواع مختلفة من التحليل ولاسيما علم النفس الاجتماعي[6].

وتبين لنا من دراستنا للحقبة الوسيطة، أن المجتمع السياسي في عهد ملوك الطوائف أو في العهد الموحدي أو المريني عرف عنفا متبادلا، نتيجة تدبير الدسائس والمؤامرات، وسيادة ظاهرتي الثأر والانتقام وهي أوصاف سيكولوجية. واستخلصنا أن السجن في الفترة

---

[1] نفسه، ص 465. " أمر يعقوب بن عبد الحق المريني أن يطاف برأس أبي دبوس الموحدي في شوارع فاس ليعتبر برؤيته الناس" انظر أبو الحسن علي ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972 م، ص 284.

[2] نفسه، ص 464. انظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 4، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ص. 41.

[3] نفسه.

[4] نفسه، ص 466.

[5] انظر هامش2.

[6] انظر محمد وقيدي، "العنف والإنسان"، مجلة الأيام، العدد 15، 14 – 20دجنبر 2001م، ص 22

المدروسة لم يكن مؤسسة للعقاب والإصلاح، بل كان في غالب الأحيان مؤسسة للتعذيب والتنكيل والترهيب. فعند تناولنا مثلا لشريحة الوزراء سجلنا أنهم كانوا يدبرون الدسائس لبعضهم البعض لدى أمرائهم وخلفائهم. وأشرنا اعتمادا على كتب التراجم بالخصوص إلى سمات غالبيتهم من الناحية النفسية والمتمثلة في القلق المستمر والوساوس وانتظار المكروه من عزل أو سجن أو قتل،[1] إضافة إلى صفات الأنانية والانكفاء على الذات، والغموض في الرؤية.

وفي علاقة الحكام بالمتصوفة، تبين لنا أن النظام الحاكم، كان يهدف أساسا من خلال اعتقالهم والتضييق عليهم إلى إحداث ضغط نفسي أولا على المعني بالأمر، باعتباره العنصر الفاعل، مثل ابن العريف وأبي يعزى، ليتولد لديه شعور بأن هذه الفكرة أو هذا المذهب أو هذا الاتجاه ما هو إلا مصدر شقاء وعنت له، ومن خلاله، إحداث تأثير نفسي شديد على من يحيطون بهذا الزعيم أو الولي من المريدين لينفضوا من حوله، تخوفا مما يمكن أن ينتظرهم من عقاب، لا يستثني كبيرا أو صغيرا. وغالبا ما يؤدي اعتقال هذه الرؤوس القليلة العدد، إلى إيقاف نشاط أكثرية العناصر، وتجنيب النظام الحاكم مخاطر مواجهة مجموع العناصر المنتمية للشيخ أو الولي[2]. فالمرابطون مثلا، وكذلك الموحدون كانوا حريصين على عدم توسيع الاعتقالات، إذ استخدم السجن في الغالب كأداة ترهيبوتخويف [3].

ولاحظنا أن التشهير والإهانة والمس بكرامة المعتقل، تترك لديه تأثيرا نفسيا أعمق من التأثير البدني، ومن ذلك نزع العمامة عن الرأس، لما لها من دلالة تتمثل في المس بهيبته ووقاره ومكانته الاجتماعية. كما أن إركاب المعتقلين على دواب حقيرة كالحمير أو بوضعية مقلوبة ومزرية، والطواف بهم في الأزقة، يعتبر تشهيرا مخلا بكرامتهم، ويعرضهم لتطاول الناس وإيذائهم، ويمس بمكانتهم ومكانة عائلاتهم وأبنائهم في المجتمع، وغالبا ما يكون التشهير بهم لجعلهم عبرة لكل من يحاول الخروج عن طاعة السلطان أو الأمير.

---

[1] حميد الحداد، السلطة والعنف، ص 68. انظر أيضا جمعة شيخة، نفسه، ص 66.

[2] نفسه، ص78- 79، 82.

[3] نفسه، ص99.

ويتوخى أصحاب التشهير فضح المشهر حتى لا تقوم له قائمة، وكان الحقد والانتقام وراء هذا الصنيع: **«وللتشهير في صاحبه ردود نفسية لا يحدث مثلها السجن بسرعة وقوة، فهو في مواجهة المجتمع بين شماتة الأعداء، وجزع الأحباء، وانتقام السلطان، ومعاناة الخذلان»**[1]. والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها حالات ابن وافد وابن عمار وأبي جعفر بن عطية، وغيرهم[2].

وأدت الصراعات والفتن التي شهدها الغرب الإسلامي إلى عقاب المنهزمين في كثير من الأحيان بحز رؤوسهم وتعليقها على أسوار المدن أو أبوابها، هادفة إدخال الرعب والخوف في نفوس الرعية، ومبرزة قوة السلطة وشرعيتها المنبثقة من قسوتها وبطشها بأعدائها المعارضين والمناوئين، وبرز في ذلك بعض الحكام أمثال محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، والمعتضد بن عباد وغيرهما[3] في الأندلس، إضافة إلى ابن تومرت وعبد المومن وغيرهما في العدوة.

وقد توقفنا أيضا عند عقوبة النفي، التي تظهر اقل شدة وأخف وطأة من أشكال العنف الأخرى، وبينا آثارها العنيفة على المتعرضين لها، واستنتجنا أن الهدف منها هو محاولة إبعاد المذنب أو الجاني أو المعارض عن المجال الذي يشكل بالنسبة له فضاء اجتماعيا حميما مألوفا مرتبطا بالأسرة والعائلة والعصبية، مع الحفاظ على هذا الجسد، لكن بمحاولة إرهاقه بدنيا ونفسيا وتفكيك أواصره وعلاقاته المتنوعة.

واستخلصنا الانعكاسات السلبية للنفي والمتمثلة في تغيير أسس حياة الفرد واستقراره وعلاقاته الأسرية، مما يؤدي إلى تغيير هويته أو «حالته المدنية» إن صح التعبير، وما يترتب عن ذلك من معاناة واضطرابات شخصية بليغة.

---

[1] أحمد البرزة، م س، ص 520-521.

[2] انظر على سبيل المثال: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، رقم 98، ص156- 157. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج 7، ص 178-181. ابن بسام، الذخيرة، ق2، م1، ص 423. المقري، نفح الطيب، ج 7، ص 110-111، ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص 266-267.

[3] - ابن بسام، نفسه، ص 27. جمعة شيخة، م س، ج 1، ص 127

هذه إذن، نماذج لبعض المحاولات التي توخت استغلال الإشارات النفسانية المتفرقة في المصادر من أجل التطرق إلى بعض أشكال العنف، وربطها أحيانا ببعض الظواهر والحالات النفسية ودراسة آثارها على شخصية المتعرضين له من الأفراد والجماعات. والأمل معقود على الباحثين المغاربة للتعمق في هذا المجال الشحيح بمعطياته، والواعد بما يمكن أن يفتحه للبحث التاريخي من آفاق.

ثانيا-مداخل أو فرضيات نفسية لتفسير ظاهرة العنف

توفر المادة التاريخية فرصا على ندرتها مهمة لتفسير الأحداث وسلوك الأشخاص، والدوافع الكامنة وراء تصرفاتهم، انطلاقا من بعض الظواهر النفسية، والحالات المعروفة في علم النفس، والتي يمكن العثور على بعض أعراضها وصفاتها في سير وتصرفات المعنيين، وبالتالي تقديم فرضيات لتفسيرها. ولتوضيح ذلك نقدم بعض النماذج التي يمكن للباحث في حقل التاريخ الاستعانة بها.

1) ظاهرة الاقتداء والتماهي:

سبق أن أشرنا إليها عند تناولنا مقدمة ابن خلدون باعتبارها من المصادر التي تمدنا بمعطيات هامة في المجال النفساني، وهي من الظواهر الاجتماعية التي تعني تشبه الشخص بالغير لا شعوريا سواء في مظهره أو سلوكه أو أفكاره.[1] وقد يكون ذلك نتيجة القوة أو المحبة اللتين يجدهما في الشخص أو النظام المقتدى به. فقد جعل ابن حيان من النوادر العجيبة «موافقة عبد الرحمان الداخل(113هـ - 172هـ)[2] لأبي جعفر المنصور العباسي (حكم بين 136هـ- 137هـ / 754م- 158هـ/ 775م)في الرجولة والاستيلاء والصرامة، والاجتراء على الكبائر والفساوة»[3]. إضافة إلى ذلك أكثر الأخير ذكر عبد الرحمان الداخل ووصفه بصقر قريش[4] و: «بالأحوذي الفذ في جميع شؤونه(..) قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيهم، وذل له أبيهم»[5]. أما

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 505.

[2] انظر المعجب، ص 29 – 30 وكانت مدة ولايته منذ أن استولى على قرطبة إلى أن توفي اثنين وثلاثين سنة.

[3] المقري، النفح، ج 1، ص 311.انظر أيضا ج 4، ص 54. انظر عماد البحراني، "أبو جعفر المنصور "المؤسس الحقيقي للدولة العباسية"، دورية كان التاريخية، العدد5، سبتمبر2009، ص 54 - 58.

[4] ابن الأبار، الحلة، ج 1، ترجمة 8، ص 35، المراكشي، نفسه، ص 30.

[5] نفسه، ص310. "وبعث المنصور العلاء بن مغيث البحصبي من إفريقية إلى الأندلس(...) فقاتله عبد الرحمان اياما، ثم انهزم العلاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه. وبعث عبد الرحمان برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكة. فالقيت

الحكم بن هشام(180هـ / 796م – 206هـ / 822م) فكان أفحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقداما ونجدة، وكان يشبه بأبي جعفر المنصور في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء.[1] ولقب عبد الرحمان الناصر وزيره أحمد بن شهيد بذي الوزارتين امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد.[2]

ويبدو من خلال نص لابن حيان أن المعتضد العبادي(433هـ/ 1041م / - 461هـ / 1068م) اختار لقبه تماهيا مع المعتضد العباسي نتيجة إعجابه به بعدما اطلع على سيرته ومنجزاته[3]. كما يبدو أيضا أنه قلد محمدا بن عبد الجبار الملقب بالمهدي(ت399هـ -400هـ / 1009م -1010م) في قسوته وجبروته[4]. «فقد كان تقيل سيرة أحمد المتوكل -آخر أشداء خلائف العباسيين-(232 هـ / 847 م – 248 هـ / 861 م) الذي سطا بالمترزين.. فحمل عباد سمته المعتضدية، وطالع بفضل نظره أخباره السياسية.. فجاء منها بمهولات تذعر من سمعها، فضلا عمن عاينها.. »،[5] يقول المراكشي[6]: «وجملة أمر المعتضد أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس، كان قد استوى في مخافته ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه واكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً.»

في أسواقها سرا، ومعها اللواء الأسود وكتاب المنصور للعلاء، فارتاع المنصور لذلك، وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيلنا وبينه البحر، أو كلاما هذا معناه" ص. 311.

[1]- النفح، ج 1، ص 340.(النسخة الإلكترونية)

[2]- نفسه، ص 356.

[3]- "وكان [المعتضد] قد تقيل سيرة أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل أحد أشداء خلفاء العباسيين، وسطا بالمترزين عليها، وبفقده انهدمت الدولة.فحمل عباد سمته المعتضدية". ابن بسام، الذخيرة، ق. 2، م. 1، ص. 25."فقد كانت للأخير [المعتضد]خزانة أكرم لديه من خزانة جواهره في جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي، ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهما الذين قرن الله رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحي بن علي بن حمود". نفسه، ص. 28. المراكشي، المعجب، ص. 143.

[4]- "وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي سبق عبادا إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه". ابن بسام، الذخيرة، مص س، ص. 27.

[5] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، ص 41 وكان ثاقب الذهن في الأدب من غير تمهد لها، ص 42.

[6] المعجب، ص143.

وكانت له خزانة في جوف قصره، أودعها هام الملوك الذين أبادهم بسيفه.[1] وكان محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي سبق عبادا إلى اتخاذ مثل هذه الحديقة المطلعة لرؤوس أعدائه، أيام أكثر له واضح الخصي العامري من إرسال برؤوس الخارجين عليه، لأول وقته وأصلح بهم باب مدينته سالم، «**فغرس منها فوق الخشب المعلية لها بشط النهر حذاء قصره حديقة هول عريضة طويلة، جمة عدد الصفوف المسطورة، فأضحت شغلا للنظارة**[2].. »

أما المعتمد (ت 488 هـ / 1095 م)(حكم بين 461 هـ - 484 هـ / 1069م – 1091 م)[3] فكان يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس (227 هـ - 232 هـ) ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان فيه من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة.

ويشير ابن الخطيب، من جانب آخر، إلى أن الجند الأندلسي في القديم كانوا يتشبهون في زيهم بجيرانهم وأمثالهم من الروم: «**في إسباغ الدروع وتعليق الترس.. واستركاب حملة الرايات خلفهم، كل منهم بسمة تخص سلاحه، وشهرة يعرف بها.. ثم عدلوا الآن عن هذا الزي**»[4]. وهذا يبرز أن القوة هنا لا يتم تفسيرها بحد ذاتها فحسب، وإنما ما انتحله المقلد من العوائد والمذاهب، وبهذا تكون نظرة الإعجاب بأسلحة الآخر ولباسه وأسلوب حياته.. [5]

نستنتج أن كثيرا من الشخصيات التاريخية والفئات الاجتماعية قد قلدت أو حاكت أو تماهت مع شخصيات أخرى أو مجتمعات أعجبت بها على نحو ما ذكرنا أنفا على سبيل الافتراض.

---

[1] الذخيرة، نفسه، ص 28، منها رأس محمد بن عبد الله البرزالي، ورؤوس الحجاب ابن خزرون وابن نوح وغيرهما الذين قرن الله رؤوسهم برأس إمامهم الخليفة يحي بن علي بن حمود.

[2] نفسه، ص27.

[3] المعجب، ص 149.

[4] اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. 3، 1400هـ/1980م، ص. 39.

[5] انظر بلال عوض سلامة، المرجع السابق، ص 2.

2)التعويض:[1]

اعتبر ألفرد أدلر(1870م - 1937م)-الذي انشق عن فرويد- أن إرادة القوة والتفوق وبلوغ الكمال، وقهر الاحساس بالدونية أو بالنقص أو بالقصور هو الدافع الرئيسي لدى الإنسان، الذي يسعى إلى أن يكون محققا لذاته في مجتمعه كأفضل ما يكون التحقيق.ويختلف معيار التحقيق بين الأفراد، فبينما يراه البعض في القوة والغنى والأمور الأنانية الضيقة كما يفعل المرضى النفسيون، يراه الآخرون في الأهداف النبيلة ذات الطابع الاجتماعي (التفوق العلمي مثلا) والتي تؤدي إلى تقوية المجتمع ومساعدته على النهوض وتحقيق تقدمه ورفعته، كما هو الحال لدى أصحاء النفوس. ومن هنا تتبدى نزعة أدلر الاجتماعية الواضحة، مما أكسبها بريقا هوى إليه بعض العلماء والمفكرين.[2]

وأبرز أدلر أهمية التعويض كآلية أو أسلوب من الأساليب التي تلجأ إليها الشخصية في تحقيق توافقها ورغباتها في مراحل نموها المختلفة لقهر عقدة النقص، والتي تصيبها من جراء إحساسها بالضعف أو العجز أو القصور أو الدونية. وبهذا تعيد الشخصية ثقتها بنفسها في امتلاك القوة والتفوق والسيطرة، فتندفع في نشاط، وتهيئ لنفسها من الظروف ما يمكنها من ذلك.[3] وبذلك نستنتج أن أدلر يختلف مع فرويد الذي اعتبر الدافع الجنسي هو القوة المهمة الفعالة في الحياة.[4]

فإذا ابتلي الشخص بنقص مثل قصر القامة أو الإعاقة أو الضعف الجنسي، فإنه يسعى إلى التعويض ليشعر بالعظمة والقوة. فقد كان عبد الرحمان الداخل أعورا، أخشم (أي فاقدا لحاسة الشم)، وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرب وقطع البر والبحر، وأقام ملكا قد أدبر وحده[5].وقد جعل ابن حيان – كما سبق أن سجلنا - من النوادر العجيبة

---

[1]أسعد أزرق، موسوعة علم النفس، مراجعة عبد الله الدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 4، 1992م ص 76.

[2]مجموعة، معجم علم النفس والتحليل النفسي، م س، ص 321.

[3]نفسه، ص 322.

[4]محمد عثمان نجاتي، مدخل إلى علم النفس الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1422 هـ - 2001 م، ص 80

[5]المقري، النفح، ج 1، ص 311.«لكن عوبروق بذمته لا عور شانه ولا قصره»، ص 232.

موافقة عبد الرحمان الداخل لأبي جعفر المنصور في الرجولة والاستيلاء والصرامة، والاجتراء على الكبائر والقساوة، وأن أم كل واحدة منهما بربرية.[1]

كما أن سلوك ابن تومرت المفرط في القسوة ربما يخفي معاناة دفينة أصيب بها، إذ كان حصورا أي لا يأتي النساء[2]؛ ذلك أن من القيم التي سادت مجتمع الفترة، قيمة الخصوبة وتكثير النسل، فمكانة الأسرة داخل العشيرة والقبيلة تحسب بمقدار ما تملكه من الذكور المحاربين، كما أن مكانة هذه الأخيرة داخل الجسم القبلي تقدر بما أنتجته من هؤلاء[3]. ويمكن أن نفترض تميزه بالشخصية العصابية التي تحاول بمختلف الوسائل والطرق أن تعوض عن شيء من النقص العضوي، أو يسعى بشكل عام إلى التفوق[4].

وهذا يؤكد ما ذهب إليه اليسار الفرويدي بزعامة ألفريد أدلر، الذي أرجع تكوين الطبع والعصاب إلى علة وحيدة وهي إرادة القوة وتملك السلطة لدى الناس وحاجتهم إلى التعويض عن دونيتهم[5]. ذلك أن اختلاف شروط الحياة الاجتماعية يؤدي إلى تباين في درجة الحاجة الشخصية إلى تعويض النقص أو العجز بالرغبة السادية في السيطرة، وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نفصل ما بين الشروط الخارجية وسمات الطبع الفردي، إلا بمقدار ما يستطيع إنسان أن يعي دوافعه ويفهمها ويحكم سيطرته عليها[6].

---

[1] نفسه، ص 331 – 332.

[2] أبو محمد ابن القطان الكتامي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص. 90. الحسين أسكان، الدولة والمجتمع في العصر الموحدي، 518 – 668 هـ/ 1125 – 1270م، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية: مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الدراسات والأطروحات، رقم 4، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2010م، ص. 61.

[3] حميد تيتاو، المرجع السابق، ص.431.

[4] أسعد أزرق، المرجع السابق، ص. 148.

[5] جان لا بلانش، وج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة مصطفى حجازي،، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4 منقحة ومزيدة، 1422 هـ- 2002 م، ص 291 – 292.

[6] حميد الحداد، المناهج المستعملة في كتابات د.ابن عبود، م س، ص 174.

3) الهو:

إحدى مكونات الشخصية وموئل الأشياء المكبوتة وكل ما يتستر عليه الإنسان في حالة الوعي، بدوافع القيم الدينية وغيرها، وهي تسمية تطلق على الجانب اللاشعوري من النفس باعتباره يؤلف مصدر الطاقة الغريزية أو البهيمية، ثم صار المحللون النفسانيون يعتبرونه بمثابة «الجانب الأكبر من الجهاز النفسي الذي يحتوي على الميول والرغبات الفطرية»[1]. وفي هذا الصدد أشارت كثير من النصوص إلى الخمر التي تعني فقدان القدرة على التمييز وتغييب ضوابط الأنا الأعلى، ورفع الستار والحاجز عن اللاشعور، لذلك برهن فرويد في نظريته عن اللاوعي «أن كل ما يعيه الإنسان تقريبا، ليس هو كل الحقيقة، فخلف الوعي تحتجب الحقيقة المستترة: اللاوعي، إن لكل فرد منا شخصية مجهولة، والخمر تؤدي إلى الكشف عن قدر داخلي من الشخصية يحل مكان القدر الخارجي»[2].

وهناك من اعتبر الشراب يسلي الهموم، بينما رأى ابن بلقين[3] أنها تهيج الهموم، ذلك أن السكر يؤدي أحيانا إلى اتخاذ قرارات قد لا يدرك كنهها صاحبها إلا بعد أن يصحو، مثالنا على ذلك ما جرى لزيادة الله الأغلبي (201 هـ / 816 م – 223هـ / 838 م) حين كتب إليه المأمون العباسي (198 هـ / 813 م – 218 هـ / 833 م) يدعوه إلى الدعاء على منابره لعبد الله بن طاهر بن الحسين، فأنف من ذلك وأمر بإدخال الرسول عليه – بعد أن تملأ من الشراب، واحمرت عيناه – فهال الرسول ذلك المنظر، ثم قال: «قد علم أمير المؤمنين

---

[1] اسعد أزرق، م س، ص285.

[2] فيصل عباس، التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1991م، ص 194.

[3] ابن بلقين، كتاب التبيان، ص ص 184 - 187." والهم إنما يكون بما ينتظر الإنسان من سوء : فذاك الذي لا يسليه عنه شيء، ولا يأتيه منه نعاس ؛ والغم إنما يكون بما مضى ؛ فربما سلت الخمر عن بعض ذلك، ولا شيء يولد النوم مثل الغم بتذكار ما خلف، أو النظر في كتاب لا ينبغي منه تعلما أكثر من مطالعة ما مضى" ص187 ويرى ابن بلقين في الخمر ما "إذا اعتدل مزاجه منه بالكثير، لم يجب أن يقال له قلل! ولا من شارب وافقه القليل، أن يقال له: « ازدد! " غير أن العاقل يرى ذلك بحسه، ويعلم ما يوافق طبعه ؛ فلا يزيد عليه شيئا، إلا أنه قال: « إذا أخذت كيف ينبغي ومع من ينبغي، فلا بأس بها: تفرح النفس، وتذهب بالهموم، وتشجع، وتحمل على الفضائل، والتزيد منها شر كثير، كما أن التقليل منها خير كثير "نفسه، ص 184 ويرى ابن بلقين في الخمر ما "إذا اعتدل مزاجه منه بالكثير، لم يجب أن يقال له قلل! ولا من شارب وافقه القليل، أن يقال له: « ازدد! " غير أن العاقل يرى ذلك بحسه، ويعلم ما يوافق طبعه ؛ فلا يزيد عليه شيئا، إلا أنه قال: « إذا أخذت كيف ينبغي ومع من ينبغي، فلا بأس بها: تفرح النفس، وتذهب بالهموم، وتشجع، وتحمل على الفضائل، والتزيد منها شر كثير، كما أن التقليل منها خير كثير "

طاعتي له وطاعة آبائي لآبائه، وتقدم سلفي في دعوتهم، ثم يأمرني الآن بالدعاء لعبد خزاعة ؟ هذا والله أمر لا يكون أبدا.. ثم مد يده إلى كيس إلى جانبه فيه ألف دينار فدفعه إلى الرسول ليوصله إلى المأمون، وكانت الدنانير مضروبة باسم إدريس الحسني، ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة العلويين، وكتب جواب الكتاب وهو سكران في آخره أبيات يصف نفسه فيها بالنار والليث والبحر، بينما يصف المأمون بالكلب.. ولما صحا بعث في طلب الرسول ففاته، وكتب كتابا آخر يتلطف فيه، فوصل الكتاب الأول والثاني، فأعرضوا عن ذكر الأول وجاوبوه عن الثاني بما أحب..[1] وكان زيادة الله يدعو للمأمون..»

يتضح من هذا النص أن زيادة الله الأغلبي كان يعبر عن ما تختلج نفسه من مواقف وأفكار، حيث أدى السكر إلى تعطيل ضوابط الأنا الأعلى لفسح المجال للهو للتعبير عن الحقيقة المكبوتة. لذلك فإن السكر من الأعراض الرديئة المفضية بصاحبها إلى البلايا والمحن، بل والأسقام، فهو يؤدي بصاحبه إلى فقد العقل، وهتك الستر، وإفشاء السر، ولا يكاد صاحبه يسمو له حال، ولا يستقيم له أمر في تدبير، مما ينتج عنه انحطاط منزلته عند نظرائه وأقرانه، ويسلب الوقار في أعين الناس. كما تبين أن أكثر الغوائل والمكائد التي تدبر للملوك والسلاطين تتم في حال سكرهم.[2]

وهناك من كان لا يستطيع مواجهة خصومه إلا بعد شربه الخمر، فقد نتج عن معاقرتها بروز شخصية أخرى للفرد، شخصية القوي القادر على اتخاذ قرارات جريئة كالقتل والتعذيب والطعن في الدين، وهكذا قتل المظفر عبد الملك (392 هـ / 1002 م - 399 هـ / 1008م) وزيره عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بالقطاع بيده في مجلس شراب، ثم قبض على هشام وأودع محبسا..[3] واستولى عبد الرحمان شنجول بن المنصور العامري - وذلك في الثالث من شهر رجب سنة 399هـ / ثالث مارس 1009م- على حجابة

[1]. الحلة السيراء، ج 1، ت61، ص 165.

[2] عبد الرحمان الشيزري، (ت 590 هـ)، النهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424 هـ - 2003 م، ص 137.

[3] الحلة السيراء، ج 2، ص 5. ابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 31-35. ابن الأبار، إعتاب الكتاب، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ط1380هـ - 1961م، ص 66.

هشام المؤيد (توفي حوالي 403هـ - 1013م). وأخذ في الانهماك شربا وزندقة، وحكي عنه من الطعن في الدين قولا وفعلا حكايات شنيعة، ومع هذا فإنه طلب من هشام أن يوليه العهد بعده، ففعل ولقبه بالمأمون، ورأى بنو مروان أن الخلافة خارجة عنهم، فثار عليه المهدي بن عبد الجبار، وحز رأسه.. »[1]، وصلبه.[2]

و عاقر الخمريحيى بن علي المعتلي (ت 427هـ)– صاحب قرمونة- ليخرج لفك حصار، فتعرض لكمين قتل على إثره.[3]

وكان المعتضد يتشفى في أعدائه بطريقة مرضية لاشك فيها. فقد كان يستمتع برؤية رؤوسهم، ووصل به الشذوذ إلى أنه كان يأمر بإحضارها كلما لعبت الخمر بعقله[4]. وكان قد اتخذ خشبا في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضا عن الأشجار التي تكون في القصور، وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتنزه.[5] وأكثر من ذلك أنه تقبض على ابنه اسماعيل، واستصفى أمواله وضرب عنقه، فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ[6]. إذ كان يبلغه عن ولده إسماعيل أخبارا مضمونها تذمره من استطالة حياته، وتمنى وفاته، فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد، إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلة، وتسور سور القصر - الذي يتواجد به أبوه- في شرذمة من

---

[1] ابن سعيد، مص س، ج 1، رقم 141، ص 213، والمقري، النفح، ج 1، ص 402، وابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 37. "كما احتز في القرن الرابع الهجري رأس زيري بن مناد وبعث إلى الحكم المستنصر، وذلك 360هـ". انظر ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان، القسم 2، المجلد6، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959، ص 315.

[2] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1، رقم 101، ص 270، وج 2، ترجمة 112، ص 6، المراكشي، المعجب، ص 63.كتاب الحلة السيراء، دراسة عبد الله أنيس الطباع، ص 284، 291، هامش 2. البيان المغرب، ج 3، ص 73.حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج 3، دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بيروت، ط14، 1996 م، ص 189- 190. "ولما قتل شنجول وتم الأمر للمهدي، أمر هذا الأخير ابن الرسان صاحب شرطة شنجول أن ينادى على جسد الأخير المصلوب: "هذا شنجول المأبون"، ثم يلعنه ويلعن نفسه ". خلاف محمد عبد الوهاب، تاريخ القضاء في الأندلس (من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 5هـ/11م)، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، 1992ط1، ص 496.

[3] المعجب، ص 82 – 83.

[4] جمعة شيخة، م س، ج1، ص 127.

[5] المعجب، ص 143، الذخيرة، القسم 2، المجلد 1، ص 27.

[6] نفسه.144.

مؤيديه، ورام الفتك بأبيه؛ فانتبه البوابون والحرس، فهرب أصحاب إسماعيل وأخذ بعضهم، فأقر وأخبر بالكائنة على وجهها.[1] فكانت نهايته على ما ذكر المراكشي.

ومن نادر أخباره المتناهية في الغرابة أنهأنجز انتصاراته دون تحمله مسؤولية قيادة جيوشه ميدانيا غير مرة أو مرتين، إذ كان يدير الأمر من جوف قصره.. فقد جرد نهاره لإبرام التدبير، وأخلص ليله للذات والشهوات، «فلا يزال تدار عليه كؤوس الراح، ويحيى عليها يقبض الأرواح.. ».[2] وأشار ابن بسام[3] إلى أنه «لم يكن أحد من رجاله يتمكن من سبر غوره، ولا إدراك خوالجه النفسية العميقة، ولا أمن مكره، لم يزل ذلك دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه».

واستعملت إضافة إلى الخمر الخنبشار وهي حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب.[4] وكان النبيذ ينتشر على ما يبدو بين علية القوم، فقد استقبل المنصور العامري (ت 392 هـ/ 1002 م) أبا الوليد محمد بن جهور بن عبيد الله الوزير مكسرا رائحة النبيذ عنه ومواريا الحرم، وأصغى إليه وقبل نصيحته، فقتل جعفر بن علي الأندلسي صاحب المسيلة..[5]

ويشير الطرطوشي[6] إلى حادثة فريدة تمثلت في حدوث مواجهة بين جيش طرطوشة وجيش الروم حيث انتصر الطرطوشيون، وعثروا على قربة فيها شيء من الخمر، فشربوه وسكروا، ثم اشتهوا شرائح اللحم، فقطعت من لحوم الروم وجعلت على النار، وأكلوا منها، ففزع الأسرى وبلغ الحديث إلى الروم، فتعجبت النصارى، وقذف الرعب في قلوبهم.

---

[1] نفسه، ص 143 – 144، وكانت للمعتضد أشعار في المدامة واللذات واللهو دون أن يغفل بغيته من المجد.الحلة السيراء، ج 2، ص 46.

[2] الذخيرة، القسم 2، المجلد 1، ص 26.

[3] نفسه، ص 24، الحلة، ص 42.

[4] ابن بسام، الذخيرة، ق 4، م 1، ص 32.

[5] الحلة السيراء، ج 2، ص 33.

[6] أبو بكر محمد الطرطوشي(ت 520 هـ)، سراج الملوك، مجلدان، حققه وضبطه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1414 هـ/ 1994 م، ص 672 – 673.

وانتقدت المصادر الموحدية[1] المرابطين بسبب ذيوع شرب الخمر، وتناول أحد الباحثين[2] جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، مارا بالفترة المرابطية ومركزا على الفترتين الموحدية والمرينية، مستخلصا توافر الإشارات عن تورط البلاط الموحدي في محظور الخمر، تفوق ما هو متوافر عن مثيلاتها بالبلاط المرابطي.[3] واعتبر[4] أن سرعة وتيرة سقوط الدولة المرابطية يعود في جزء منه ليس فقط إلى ظهور أسباب الخلل بالدولة، ولكن خاصة إلى قوة الدعاية الموحدية، وفعالية الحملة التشهيرية التي أسس لها المهدي بن تومرت، والتي كان اتهام المرابطين بمعاقرة الخمور إحدى أبرز آلياتها. كما اعتبر البوليك المرابطي الموحدي بمثابة حرب نفسية وظفت لإضعاف الخصم والنيل منه. فقد لقب المرابطون الموحدين بالخوارج بينما لقبهم الموحدون بالزراجنة التي قد تعني الخمر.[5]

و إذا كان ابن تومرت (ت 524هـ / 1229م)لجأ بنفسه إلى إراقة الخمر وكسر آلات اللهو حيثما حل، إلى أن وصل مراكش على عهد علي بن يوسف بن تاشفين(500هـ/ 1106م- 537هـ/ 1142م)، وشاع عنه نقد أمير المسلمين[6]، فإن محمدا بن عبد المومن الكومي - وهو أكبر ولده وولي عهده– اشتهر بإدمانه شرب الخمر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش،

---

[1] المعجب، 260". وانتشار مظاهر الفساد، خاصة بعد الخمسمائة، حيث استولت النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور."

[2] مصطفى نشاط، جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2006م.

[3] نفسه، ص 46.

[4] نفسه، ص 71.

[5] نفسه، ص 67 – 68.

[6] ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، القسم الثالث، الخاص بالمغرب، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964 م ص 267. ولقد أخبر بعض من شهده "وقد أتي برجل سكران فأمر بحده، فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها! فأعرض عنه، ثم أعاد عليه الحديث فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان ما نحن صانعون؟ فاستحيى الرجل وسكت، ثم كشف على الأمر، فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيما إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يخبر."المعجب، ص 284.

وجبن النفس،[1] فخلع، ولم يشر ابن صاحب الصلاة[2] إلى سبب خلع الأمير محمد عن ولاية العهد من طرف أبيه عبد المومن.

أما الوزير الكاتب أحمد بن طلحة فكان من المشهورين بالخلاعة والمجون بالأندلس، وكان شديد التهور، كثير الطيش، ذاهبا بنفسه كل مذهب (تضخيم الذات ويعتبر نفسه أفضل من أبي تمام والبحتري والمتنبي).[3] دخل سبتة خلال فترة التراجع الموحدي، حيث أحسن إليه أبي العباس اليانشتي، لكنه لم يكترث لذلك، إذ « أكثر الوقوع فيه، فرصده في شهر رمضان وهو يشرب الخمر وعنده عواهر، فكبسه وضرب عنقه.»[4]

نستخلص أن تعامل الموحدين مع الخمر ومعاقريها تختلف بين فترة الدعوة والتأسيس وفترة التآكل والتراجع.

أما خلال الفترة المرينية فقد تعاطى لها الأمير أبو مالك أعز أولاد السلطان أبي الحسن(731 هـ / 1331 م –752 هـ/1351 م)، فأقام الحد عليه، بحضور القاضي الذي نفذ الحد، وأقلع بعد ذلك.[5] نفس الأمر حدث بالنسبة لولد وزيره عامر بن فتح الله.[6]

وإذا كان بعض الساسة سلاطين ووزراء يعاقرون الخمر لاتخاذ وتنفيذ قرارات عنفية جريئة وصعبة، فإن بعضهم تعرض للتسميم إما بواسطة حشيشة أو في كأس خمر، فقد

---

[1] المعجب، ص 344 "لما مات عبد المؤمن(524هـ / 1129م – 558هـ / 1162م) اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافا كثيراً، فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً واربعين يوماً، وكان الذي سعى في خلعه أخواه يوسف وعمر"

[2] أبو مروان عبد الملك ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين) "، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص 154 – 155

[3] النفح، ج 4، 284 – 285، ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص 364، رقم 577، " وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر، من عمل بلنسية، وكتب عن ولاة الموحدين، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس، وربما استوزره في بعض الأحيان، وقال ابن سعيد: وهو ممن كان والدي يكثرمجالسته."

[4] ابن سعيد، نفسه، نشاط، م س، ص 49.

[5] ابن مرزوق، المسند، ص 142.

[6] نفسه.

سجل الصفدي[1] أن المستكفي بالله الأموي (414 هـ / 1024 م –415 هـ / 1025 م)كان أحمق متخلفا لا يصلح لشيء، فطردوه وأنفوا منه، ثم أطعموه حشيشة سامة فمات في سنة خمس عشرة وأربعمائة. ولما استقام أمر محمد بن إدريس بمالقة - وتلقب بالمهدي، وكان سفاكا للدماء-أعملت الحيلة في هلاكه بكأس مسمومة وجهها باديس بن حبوس الصنهاجي أمير غرناطة مع رجل من خاصته، فقال: «هذه كأس جلبت للحاجب المظفر باديس، فلم يرها تصلح إلا للخلافة فاختصك بها، فاعجب بذلك محمد بن ادريس وملأها خمرا وضمها إلى فيه، فأحس في نفسه ريبة، فأمر الرجل الذي أوصلها إليه، فشرب ما فيها، فتهرأ لحمه من حينه، وبقي محمد بن إدريس ثلاثة أيام ومات في آخر عام 444هـ».[2]

وأشار بعض المؤرخين إلى تمكن الوزير يوسف بن النغريلة من التخلص من بلقين بن باديس سنة 456هـ/ 1064م،[3] بعدما احتال عليه اليهودي بأن دعاه للشرب عنده، فدس له السم في كأسه، وتوفي بعد يومين،[4] أكثر من ذلك تمكن اليهودي أن يقنع أباه باديس باتهام بعض فتيان ولده وجواريه وقرابته، فقتل منهم باديس عدة، وفر الباقون.[5] ومن الأسباب التي مكنت لابن النغريلة في الدولة حسب ابن حزم[6] اشتغال باديس بالشرب حتى كان لا يكاد يصحو، بينما سلم الأمور كلها له.

---

[1] صلاح الدين خليل الصفدي، (ت 764 هـ)، الوافي بالوفيات، ج 3، طالعه يحيى بن حجي الشافعي ابن أيبك الصفدي، تحقيق واعتناء أحمد الأرناءوط – تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1420 هـ - 2000م، ص 191.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، مص س، ص 165.

[3] نفسه، ص 265.

[4] ابن بلقين، التبيان، ص 40.أبو محمد علي ابن حزم، الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، تحقيق إحسان عباس، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1380هـ/1960م، ص 12. وابن عذاري، البيان المغرب، ج 3، ص 265. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 434، وأ. الأعلام، ص 265. ولم يشر ابن بسام إلى قضية السم(الذخيرة، ق1، م 2، ص ص766-769).

[5] ابن الخطيب، الإحاطة، نفسه.

[6] نفسه. "وعظم استيلاء يوسف إلى أن كثرت فيه الأقوال، فاراد ان يثل عرش باديس بعرش المعتصم، وسعى إلى الإطاحة بباديس وتمكين المعتصم من الاستيلاء على غرناطة.. ثم اكتشف باديس عمل وزيره اليهودي، فاخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحما، وسود به وجهه وتنكر.." انظر مريم قاسم الطويل، مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443هـ-448هـ/ 1051م-1091م، دار الكتب العلمية بيروت، مكتبة الوحدة العربية، البيضاء، ط1، 1994، ص 37.

وخالف ابن عذاري[1] وابن أبي زرع[2] رواية المراكشي[3] فيما يتعلق بوفاة الناصر الموحدي (ت 610هـ / 1214م)، فقد أشارا إلى وفاته مسموما، إذ ذكر صاحب الروض «بعد هزيمة العقاب.. دخل الناصر قصره، فاحتجب فيه عن الناس والغمس في لذاته، فأقام فيها مصطبحا ومغتبقا إلى شهر شعبان المكرم من سنة 610هـ فمات مسموما بأمروزرائه، دسوا إليه من سمه من جواريه في كأس خمر، فمات من حينه، لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه قبل ذلك في 22دجنبر 1211م». أما المراكشي[4] فيشير أنه اختلف في سبب وفاته «فأصح ما بلغني أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه».ويؤكد الصفدي[5] في روايته شربه الخمر وخروجه لاختبار حراسه الذين تلقوا أوامره بتصفية كل من بدا لهم في الليل.

وحسب أحد الباحثين[6] فإن ابن أبي زرع أصر على إدخال عنصر جديد – إضافة إلى المرأة – ألا وهو الخمر، إذ النساء والخمر يتماشيان. إن ظهور المرأة في هذا المجال هو إدانة بضعف الدولة وتسرب الوهن إلى كيانها وهياكلها. أما الخمر التي نعرف أن الموحدين أراقوا قنانها وكسروا جرارها ووقفوا ضدها، بل إن المنصور بموجب مرسوم منع تداول شراب الرب الذي كان حلالا فيما قبل، ها هي الآن تظهر من جديد وتتداول حتى في القصور الخليفية. إن التلميح من طرف المؤرخ إلى النساء والخمر كسبب لموت الخليفة، لم يكن جزافا، بل يتطابق ونظرته إلى التاريخ الموحدي بين فترة ازدهار سالفة، وبداية انحطاط وتدهور واضحة، بعبارة أخرى إن ظهور النساء والخمر هو علامة على ضعف الجهاز الموحدي الحاكم.

---

[1] ابن عذاري، أبو العباس أحمد، البيان المغرب، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ/1985م، ص 265.

[2] روض القرطاس، ص 317.

[3] المراكشي، المعجب، ص 459.

[4] نفسه.

[5] الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 5، ص 148 نشاط، م س، ص 48.

[6] عبد اللطيف الصبان، "بعض أدوار النساء في البلاط الموحدي"، مجلة أمل، عدد مزدوج 22 – 23، السنة الثامنة، 2001 م، ص 167.

وقد تناول لوتورنو[1] الحدث متسائلا عن اختلاف روايات المؤرخين حول ظروف وفاة الناصر: هل مات مسموما ؟ أم قتل عرضا على أيدي عبيده السودان[2]؟ أو توفي بسبب عضة كلب[3] ؟ أو أصيب بنوبة صرع ؟[4].

وأشار ابن أبي زرع[5] إلى تميز ابنه وخلفه المستنصر (610 هـ / 1214 م - ت 620 هـ / 1224 م) بإدمانه على الخلاعة وركونه إلى اللذات، وتكشف إحدى الرسائل عن معاقرة بعض عناصر الخاصة للخمور، فثمة رسالة شكاية إلى قاض تتحدث وتكشف عن تعاطي عامل لها يوم الجمعة.[6]

نستخلص أن الخمر تعمل على إبراز الجانب اللاشعوري في شخصية الفرد، إذ يتراجع بل يغيب ضابط الأنا الأعلى ليفسح المجال للهو، أي للشخصية الداخلية الحقيقية للحاكم وغيره، مما كان يسمح لهم باتخاذ إجراءات عنفية خطيرة أثناء السكر مثل تحدي الخلفاء، وتصفية الأبناء، وممارسة التعذيب والقتل بشكل يثير الدهشة، قد يتزعج مرتكبه نفسه منه عند صحوه .وقد قدمنا عدة أمثلة على ذلك استقيناها من نصوص معاصرة للحدث، كان أبرزها ما يتعلق بسلوك زيادة الله الأغلبي والمعتضد العبادي الذي وصفه بعض الباحثين بالشذوذ وبالمرض النفسي، مما يوحي بضرورة إخضاع تلك النصوص لمزيد من التحليل خاصة على المستوى النفسي.

وشكلت الخمر حربا نفسية وإحدى مظاهر الجدال المرابطي الموحدي، ووظفت لإضعاف الطرف الآخر والنيل منه. كما استنتجنا اختلاف تعامل الموحدين مع معاقرة

---

[1] لو تورنو. روجي، حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12و 13م، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1982م، ص 98-99.

[2] نفسه، نقلا عن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 4، ص 346. وقد اعتمد محمود اسماعيل (تطور الانهيار، ص 169)على رواية ابن خلكان.

[3] نفسه، نقلا عن الحميري، الروض المعطار، ص 138، الزركشي، أبو عبد الله محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، سلسلة من تراثنا الإسلامي، تونس، 1966م، ص 19.

[4] نفسه، المراكشي، المعجب، ص 459.

[5] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 320 نشاط، م س، ص 49.

[6] نشاط، نفسه، نقلا عن أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج 2، 2001م، ص 244، هامش 147.

الخمر والرب بين فترة التأسيس وفترة التدهور والتراجع. كما سجلنا تعرض بعض الحكام للتسميم في كأس خمر نظرا لطبيعتها السرية وسهولة تنفيذها.

4)السادية:[1]

يميل فرويد في نظريته إلى الاعتقاد بأن السادية مزيج من «الإيروس» (الدافعية الجنسية أو الحياة) و«الثناتوس» (غريزة الموت)، عندما يكون هذا المزيج موجها إلى خارج الذات. أما عندما يكون موجها نحو الذات فإن السادية تصبح مازوشية[2]. ويعتقد إريك فروم أن جوهر السادية هو «الشغف بالسيطرة والتحكم المطلقين على كائن حي، سواء كان حيوانا أو طفلا أو رجلا أو امرأة»[3]، لأن جوهر السادية ليس فقط التسبب بألم أو إذلال الآخرين، فالإنسان الذي يسيطر سيطرة كاملة على كائن آخر يجعل من هذا الكائن ملكيته المطلقة، ويصبح هو بمثابة إله مطلق الصلاحية عليه. فالكائن الذي يكون موضوع السيطرة الكاملة يتحول إلى حالة من العجز والاختناق والحرمان. وعندما نعلم أن الفترة الوسيطة تميزت بسيادة الاستبداد والقهر وبروز ملوك وأمراء وخلفاء جبابرة، فإن الربط يصبح سهلا والتحليل ممكنا. «فالسلطة تمثل شهوة كشهوة المال والجنس والجاه أو تجمع بينها كلها، وينتج عن ممارستها في غالب الأحيان ارتكاب الظلم الذي يعتبر مظهرا من مظاهر طغيان النفس الأمارة على النفس اللوامة. إنه استجابة مباشرة لجنون الغرائز الشاذة التي يتماهى فيها الإنسان مع الحيوانات المفترسة الكاسرة حسب أحد الباحثين.»[4]

وقد استندت كتب الآداب السلطانية[5] على عدة آيات وأحاديث نبوية في مدح الشورى وتقبيح الاستبداد والظلم والطغيان، ونهت عن الغضب والانفعال والسرعة في تشديد العقوبات، حيث قتل أناس أهاليهم وأولادهم، ممن يعز عليهم، في وقت غيظهم بما

---

[1] انظر معجم مصطلحات التحليل النفسي، م س، ص280.

[2] نفسه، للمزيد من التفصيل عن السادية والمازوشية، انظر ص135 – 136، 151، 281-282، 438.

[3] أريك فروم، العدوانية المؤذية، ص. 111.

[4] أحمد السطاتي، "تخليق السلطة"، جريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 5663، الخميس 24شوال 1419هـ - 11فبراير 1999م، ص. 12.

[5] الشيزري، مص س، ص 139 – 140

طالت ندامتهم عليه.[1] لذلك فمن أخلاق الملك أن لا يعاقب وهو غضبان لأن هذه الحال لا يسلم معها من التجاوز لحد العقوبة.[2] أكثر من ذلك أشار الجاحظ إلى عدم تجاوز العقوبة الحد الذي سنتهالشريعة، فلا يقتل من استحق القطع والحبس والأدب، ولا يقطع من استحق الحبس والأدب، ولا يحبس غير من استوجب الحبس.[3]

وركزت هذه المؤلفات[4] على أهمية العدل الذي اعتبره الغزالي[5] من كمال العقل، ناصحا بالابتعاد عن الغضب الذي يماثل به الإنسان الحيوانات .[6] ذلك أن العدل قوام الملك ودوام الدول وأس كل مملكة.[7] وهو يولد لدى الرعية الطمأنينة والأمن الداخلي، وهذا ما ينتج عنه الأمل والطموح الضروريان لتطور الحياة. أما إذا فقد العدل فإن الرعية التي هي مصدر مالي تصاب بضعف بسبب الظلم والتعسف السائدين، لأن الظلم والفساد لا يؤديان إلا إلى فقدان الثقة وعدم الاهتمام بموارد الحياة نفسها، لليأس الذي يخيم على الرعية، وهذا ما يؤدي بدوره إلى الركود، فتنقطع الصلة بين الحكام والمحكومين ومن ثم تقل عائدات الدولة.[8]

---

[1] ابن رضوان، أبو القاسم المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدارالبيضاء،ط.1، 1404هـ/1985م، ص103.

[2] نفسه، ص 114. ابن رشد، بداية المجتهد، ج2، دار الفكر، بيروت، ص 348-349. (قرص مدمج)

[3] ابن رشد، نفسه.

[4] سراج الملوك، ص 460 - 461 " ومثل السلطان الجائر مثل الشوكة في الرجل، فصاحبها تحت ألم وقلق، ويتداعى لها سائر الجسد، ولا يزال صاحبها يروم قلعها، ويستعين بها في ميسوره من الالات والمناقيش والابر على إخراجها، لأنها في غير موضعها الطبيعي"

[5] أبو حامد الغزالي، (ت 505 هـ)، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، عربه عن الفارسية إلى العربية أحد تلامذته للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1409 هـ - 1988 م، ص 24.

[6] الشهب اللامعة، ص 87. انظر أيضا، سراج الملوك، ص 591 – 608.

[7] نفسه، ص86.

[8] عز الدين جسوس، موقف الرعية من السلطة السياسية، في المغرب والأندلس على عهد المرابطين، - دراسة في علم الاجتماع السياسي افريقيا – الشرق، الدار البيضاء، 2014 م، ص 19 يقول الطرطوشي: "إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية، وإذا جارلم يملك منهم إلا الرياء والتصنع"، سراج الملوك، ص 477.

وأوصت هذه المؤلفات بوجوب طاعة الملك،[1] داعية الأخير بضرورة التزام العدل والاعتدال.[2]

خلاصة القول ارتبطت السادية بالجور وهو العدل عن الحق، واستمراره يخل نظام الطاعة عن الرعية، وبعثهم على ترك المناصحة، وعدم النصرة.[3] لذلك فغياب العدل يؤدي إلى الاستبداد الذي ينتج عنه في كثير من الأحيان السادية التي ترتبط بالتجبر الذي يؤدي إلى الهلاك حسب مصادر الأدب السياسي[4]. وقد ساهمت كثير من مؤلفات الآداب السلطانية في ترسيخ نظرية التفويض الإلهي ولم تسمح بمناقشة أحكام السلطان حتى لا يؤدي ذلك إلى الفتنة وإشعال فتيل النزاع حولها. فتصرفاته وجب قبولها دون اعتراض حتى لا تكون الفوضى والاقتتال.[5] فطاعة أولي الأمر أداة لتجنب العنف السياسي،[6] مما يبرز أنها ساهمت في استبداد أولي الأمر، واستغلها الحكام لتمرير وإفراز ساديتهم وعدوانيتهم.

وقد ذهب القادري بوتشيش[7] في دراسته لبعض هذه المؤلفات إلى انه لترسيخ مبدأ الطاعة تبنى كتاب السلاطين استراتيجية من أبعادها البعد النفسي، حيث أسس ابن رضوان صورة الطاعة كقيمة أخلاقية ونفسية على أنها الطريقة المثلى لعلاقة سلمية بين

---

[1] نفسه، ص 66-70.

[2] سراج الملوك، ص 206 "فالسلطان إن أفرط أهلك الخلق، وإن فرط لم يستقيموا، وإن اعتدل اعتدلوا."

[3] الشيزري، المصدر السابق، ص 115، ثم قال (ص)" وإن أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله في سلطانه فجار في حكمه، قال أفلاطون: بالعدل ثبات الأشياء، وبالجور زوالها. وقال أيضا: إياكم والجور، فإنه أداة العطب، وعلة خراب البلاد".

[4] المرادي، ص 52- 53. "ويضمن المقت، ويذهب بحسن الأدب، كما أن إعجاب المرء بنفسه يلمع عنه تباعد أهله عنه، وليس لذي عنف شمل ولا ألف، ومن عادات القلوب أنها تكابر من استولى عليها، ومن سما فوق قدره، استحق الحرمان من ذوي النعمة عليه، والعجب مذهب للمحاسن وقبيح في كل المواطن، إلا في موضع المسابقة، ومأزق المحاربة، فإنه يحسن فيه إظهار القوة، والمشي بالتعبر والصلافة، والخضوع قبيح بالأحرار، ودلالة على الفقر، ومخبر بدناءة النفس، ومنبئ عن سقوط الهمة والقدر"

[5] إبراهيم القادري بوتشيش، «نصائح الآداب السلطانية كآلية استباقية لتجنب العنف بمغرب العصر الوسيط»، ضمن العنف في تاريخ المغرب، المرجع السابق، ص 96.

[6] نفسه، ص 97.

[7] نفسه، ص 98. ابن رضوان، الشهب، ص 65.

الراعي وبين الرعية، تجعل السلام النفسي يسود بين الطرفين، ولذلك رتبها في أرفع منازل السعادة. « فسعادة الرعية في طاعة الملوك»، فضلا عن كونها تساعد في تدبير شؤون الدولة بما يضمن الاستقرار والأمن والطمأنينة وإشاعة السلم النفسي المتولد من الأمن والاستقرار.

ولا تبخل علينا المصادر في تقديم نصوص عن سلوك كثير من السلاطين والأمراء والولاة، والتي يتضح لنا اتسامها بالسادية. فقدكان الحسن ابن قنون(قتل 375هـ)«فظا غليظا شديد الجرأة قاسي القلب، قليل الشفقة. كان إذا ظفر بأحد من أعدائه أو سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر، ويهوى به إلى الأرض مد البصر، يدفع الرجل بخشبة تمد إليه فلا يصل إلى الأرض إلا وقد تقطع»[1].

ووصف ابن الأبار[2] إبراهيم بن أحمد الأغلبي بالسفاك، وهناك من أشار[3] بأنه كان مصابا بشبه جنون جعل منه أكبر سفاك للدماء عرفه تاريخنا، ولم تقتصر جرائمه على خصومه السياسيين أو من يخشى خطرهم، بل كان يقتل للذة القتل، وقد أورد النويري – نقلا عن أبي إسحاق إبراهيم الرقيق – بيانا مفزعا ببعض المذابح التي أوقعها بأهل بيته وخدمه حتى لقد قتل ثلاثمائة(300) خادم بسبب منديل ضاع منه، وقتل ابنا من أبنائه أبا عقال وثمانية من إخوته، وقتل ست عشر (16) من بناته مرة واحدة، وكان به شذوذ وميل للغلمان، وكان عنده منهم نيفا وستون، فشك في أمرهم مرة فقتلهم جميعا على أبشع صورة، وكان يتلذذ لمنظر القتل ويتفنن فيه.[4] ومن هنا فإن لقب السفاك الذي سماه به ابن الأبار قليل في حقه.

---

[1] ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 117.

[2] الحلة السيراء، ج 1، ص 164.

[3] نفسه، نقلا عن النويري، ص 150.

[4] نفسه، ص 164 – 165، هامش 2، (حسين مؤنس)"وابتلي أهل القيروان بظلم إبراهيم بن أبي إبراهيم احمد الأغلبي وامتحنوا بإسرافه حتى سمي " الفاسق "، وكان أول امره قد أحسن السيرة فيهم نحوا من سبع سنين، ثم ارتكب من العدوان وسفك الدماء ما لم يرتكبه أحد قبله، وأخذ في قتل أصحابه وكتابه وحجابه، حتى إنه قتل ابنه وبناته، والأخبار عنه في ذلك فظيعة شنيعة "الحلة السيراء، ج 1، ص 172، ت 64.

وكان عبد الرحمان الداخل لا يكل الأمور إلى غيره، شديد الحدة، قليل الطمأنينة،[1] فقد فتك بمن عاونوه في ملكه بمن فيهم ابن أخيه،[2] مبررا ذلك باستهدافهم شخصه، وبطموحهم إلى السلطة، وكفرهم وجحودهم بالنعمة، فعاجلهم قبل أن يعاجلوه.[3] واتسم الحكم بن هشام بالجهر بالمعاصي وسفك الدماء حسب ابن حزم[4]. وقيل «إنه كان يمسك أولاد الناس ويخصيهم، ونقلت عنه أمور، ولعله تاب منها».[5]

وتميز الحكم الربضي (180 هـ / 796 م - 206 هـ / 822 م) بالاستخفاف بالدماء،[6] فقد كان طاغيا مسرفاً وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم.[7] وكانت ثورة الربض – حسب حسين مؤنس -[8] بعيدة الأثر في سلوك الحكم الربضي بصفة خاصة، وسياسة خلفائه من بني أمية الأندلسيين حيال أهل قرطبة وشعب الأندلس بصفة عامة. واتعظ الحكم بما وقع خلالها، فلم يعد إلى الاستبداد والعسف والاستخفاف بالناس، كما كان يفعل قبلها، لأنه عرف أن سلوكه الأول واستخفافه بالدماء هما سبب هذه الفتنة الكبيرة، ثم إن إسرافه في القتل وإجلاء أهل الربض عن دورهم ثم هدمه وتحويله إلى أرض زرع، كل ذلك كان بعيد الأثر في نفسه، فمال إلى التقوى للتكفير عما اقترف. أما بالنسبة لسياسة خلفائه فقد تعلموا احترام الناس و«حقوقهم» وسلكوا حيالهم سياسة لين ورفق واحترام، فلم يقع مثل هيج الربض بعد ذلك. لذلك أشارت كتب الآداب السياسية[9] -كما سجلنا سابقا - إلى أهمية العدل، في نشر الأمن والاستقرار السياسيين، إضافة إلى تنشيط الحركة الاقتصادية والاجتماعية.

---

[1] - النفح، ج 4، ص 36.

[2] - نفسه، ص 43 – 44.

[3] نفسه، ص 47.

[4] نفسه، ج 1، ص 342 – 343.

[5] نفسه.

[6] الحلة السيراء، صص 44– 46.

[7] المعجب، ص 33-34.

[8] الحلة السيراء، ج1، هامش 1، ص 47.

[9] سراج الملوك، مص س، ص 460 - 461

وقد شهدت فترة الحجابة العامرية ممارسات سادية، حيث أولت المصادر التاريخية لمأساة المصحفي (ت 372هـ)[1] اهتماما لم توليه – حسب ما نعتقد – سوى للمعتمد بن عباد. وتبين قضيته بوضوح المؤامرات والمكائد السياسية في عصر الحجابة، ومتزعم هذا الكيد هو المنصور ابن أبي عامر بغية الانفراد بالسلطة، وقد لخص المراكشي[2] الأمر قائلا: «لما أفضى الأمر إلى المنصور بن أبي عامر، قبض على المصحفي واستصفى أمواله ووضعه في المطبق، فلم يزل به حتى مات جوعا وهزلا..».وحسب أحد الباحثين[3]«فإن نكبة المصحفي تجسد كل ما يمكن أن تنطوي عليه نفس الإنسان من الاستئثار والغيرة والحسد والتحجر العاطفي، والإسراف في الانتقام». ذلك أن المنصور الذي راح الوزراء يتقربون منه ويسعون عنده بالوشاية ضد المصحفي، قد نكبه سنين طويلة، وعذبه تعذيبا قاسيا.[4]وقال الفتح في المطمح: «وسيق المصحفي إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا، ووائق الضاغط يبهره، والزمع يقهره.. »[5].ورغم استعطافه بأشعار من المصحفي إلا أن ذلك لم يزده إلا حنقا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلا تضرما، فراجعه بما أيأسه:

نفسي إذا سخطت ليست براضية   ولو تشفع فيك العرب والعجم[6]

ويتجلى طغيان الحاجب المنصور بن أبي عامر في سلوكه تجاه ابنه عبد الله سنة 380هـ الذي كان قد نقم عليه إيثاره أخاه عبد الملك، وتحالف مع نصارى الشمال، فسخط عليه المنصور وقتل بين يديه بالزاهرة، فازدادت هيبته، وملئت قلوب الناس منه

---

[1] ترجم له ابن بسام، الذخيرة، ق 4، م 1، ص 63.المقري، النفح، ج 2، ص 131، وج 4، ص 89- 90. ابن الأبار، الحلة، ج 1، ترجمة 100، ص 259، إضافة إلى المراكشي وغيره.

فقد كان المصحفي الشخصية الأول، صاحب الشرطة في عهد الخليفة الناصر، ثم تولى خطة الوزارة في عصر الحكم، وجمع إلى ذلك الكتابة، وهو الذي ساهم في تعيينه هشام بن الحكم ضد ما كان يريده فتياه جوذر وفائق، حيث كانا يريدان صرف البيعة إلى أخيه المغيرة. فأمر المصحفي المنصور محمد بن أبي عامر بقتل المغيرة – أخي الحكم – فقتله خنقا حسب ابن الأبار- الحلة، ج 1، ص 259 - ومسموما حسب ابن بسام (نفسه)، والمقري، النفح، ج 2، ص 131.

[2] المعجب، ص 44.

[3] بسيم عبد العظيم، م س، ص 180.

[4] انظر ابن بسام، نفسه.ابن الأبار، نفسه.

5المقري، النفح، ج 1، ص 397- 398. ابن بسام، الذخيرة، ق 4، م 1، ص 67.ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1، رقم 100، ص 259.النفح، ج 4، ص 85.ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، رقم 128، ص 200- 201.

[6] النفح، ج 1، ص 408.

ذعرا.[1] كما قتل ابن عمه عمرا لازدرائه به وغضه منه، وتسخيه عليه واحتجان الأموال دونه، بعد أن استقدمه من المغرب، وذلك في جمادى الثانية 375هـ.[2] فالمنصور اتسم بالاستبداد ضد خصومه، وعدم التنازل لهم إلا إذا كان يخطط ببراعة لأمر أصعب وأفيد له.[3] و أورد ابن بسام[4] نقلا عن ابن حيان عدة نصوص تبرز سلوك المنصور ابن أبي عامر المتسم بالانتقام وتصفية الخصوم والأعداء بطريقة سادية.وكان ابن عمه أبو حفص عبد الله بن عمرو بن أبي عامر الملقب بعسكلاجة صارما مهيبا جبارا قاسيا.[5]

وكان سليمان المستعين (354 هـ- 408 هـ) ورجاله ومن معهم من البربر يجوسون الأندلس وينهبون ويقتلون ويقفرون المدائن والقرى بالسيف، وينهبون كل ما يجدون من الأموال، وعندما دخلوا قرطبةشوال سنة 403هـ استباحوها وقتلوا أهلها،[6] وحمل إلى عنقه من دماء المسلمين جسيما.[7]

وافتتح المعتضد العبادي أمره 433هـ بقتل وزير أبيه حبيب،[8] مما يدل على الرغبة في إثارة الاهتمام عن طريق إبلاغ رسالة إلى كل من تحدثه نفسه بأمر الاستبداد عليه، أو معارضته، أو التفكير في الثورة عليه، كما أنها تبرز صرامته وعنف وسائله.

ووصفه المراكشي[9] بالشهامة والصرامة وحدة القلب، فقد قام بتصفية الوزراء واحداً واحداً، فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر.

---

[1] البيان المغرب، ج 2، ص 283 – 285.

[2] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 1، ترجمة 102، ص 277- 278." وكان عمر صارما مهيبا جبارا قاسيا. "..

[3] بسيم عبد العظيم، المرجع السابق، ص18.

[4] ابن بسام، الذخيرة، ق 4، م 1، ص 66 – 68.

[5] الحلة، نفسه، ص 277، ت 102.

[6] الحلة السيراء، ج 2، ص 7، رقم 112، المعجب، ص 67.

[7] نفسه، ص10، ابن بسام، نفسه، ص 41- 42.انظر أيضا أبو عبد الله محمد الحميدي، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، 1983م، ص 50- 51، وابن الأبار، نفسه، ص 7، المعجب، نفسه

8 ابن بسام، الذخيرة، ق 2، م 1، ص 24، وابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، رقم 119، ص 40، والطباع، كتاب الحلة السيراء لابن الأبار، ص 345

[9] المعجب، ص 141.

وفي نفس السياق سار ابن الأبار[1] وابن خلكان[2] مسجلين بأنه «رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد، ولا سلم منه قريب ولا بعيد، جبار، أبرم الأمر وهو متناقض.. متهور تتحاماه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماة.. فقد فرط في القسوة، وتجاوز الحدود وبالغ في المثلة وأخذ بالظنة.».

إن مثل هؤلاء الحكام لم يكونوا يعتمدون في تصرفاتهم على الإقناع أو التفسير والتوضيح، بل على فرض أفكارهم وسلطتهم على هذا الغير، وإرغامه على الخضوع المطلق لهم. فكل من عارضهم أو خالفهم كان مصيره الإقصاء والسجن والنفي ثم التصفية الجسدية. ذلك أنه من طبيعة الملك - كما أشار ابن خلدون-[3] الانفراد بالمجد، و«الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية.. ولا تكون فوق يده يد قاهرة.»[4]

لقد تميز المعتضد العبادي(ت 461هـ / 1041م) بالقهر وسفك الدماء والأخذ بأدنى سعاية. [5] «ووصف بأنه قطب رحى الفتنة.. جبارا من جبابرة الأنام.. حربه سم لا يبطئ، وسهم لا يخطئ، وسلمه شر غير مأمون.. ».[6] وسجل ابن حيان: «حمل عنه على مر الأيام - في باب فرط القسوة، وتجاوز الحدود، والإبلاغ في المثلة، والأخذ بالظنة، والإخفار للذمة - حكايات شنيعة، ومهما بريء من مغبتها، فلم يبرأ من فظاعة السطوة، وشدة القسوة، وسوء الاتهام على الطاعة.. »[7]. ووصفه ابن الخطيب[8] قائلا: «كان شديد الجرأة، قوي المنة، عظيم الجلادة، مستهينا بالدماء».

---

[1] الحلة السيراء، ج 2، ص 40 –41.

[2] ابن خلكان، أبو العباس أحمد، وفيات الأعيان في أنباء الزمان، ج5، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968-1972، ج 5، ترجمة 282، ص 23.

[3] ابن خلدون، المقدمة، ج 2، ص 530 – 531.

[4] نفسه، ص 559 - 560.

[5] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، رقم 120، ص 54 (ترجمة المعتضد).

[6] ابن بسام، الذخيرة، ق 2، م 1، ص 24

[7] نفسه، ص 25.

8أعمال الأعلام، القسم الثاني، مص س، ص 181. انظر عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس–العصر الثاني–دول الطوائف، منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس، مطبعة المدني- المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ط 3، 1411هـ/ 1990م، ص 54.

لقد اعتمد المعتضد في نجاحه على العنف أكثر من ارتكازه على أية تصورات لتبرير شرعية حكمه، واستغل شرعية مركزه لإخفاء جرائمه.. فقد استهدفت سياسته إبادة كل من كان خطرا على مركزه، وحتى من كان من المحتمل أن يصبح خطرا عليه. وكان سلوكه نحو الأصدقاء والأعداء في غالب الأحيان سلوكا غريزيا أكثر منه عقلانيا أو دينيا أو فلسفيا أو عاطفيا، واستطاع أن يفرض نفسه كطاغية يطاع ويحترم عن خوف على المستويين الداخلي والخارجي.

أما المعتمد فقد كان يحضر ابن عمار مرارا بين يديه يعدد ذنوبه عليه، فبقي مدة كذلك في سجنه هنالك لا يتنفس ولا يتحرك إلا تحت سمع وعين، [1] ولما قتل وري في قيوده خارج القصر المبارك المعروف في إشبيلية بباب النخيل [2]. وسجل لنا ابن الأبار [3] أنه أخذ ثأره من حكم بن عكاشة - الذي قتل ابنه سراج الدولة، وبعث برأسه إلى المأمون بن ذي النون ببلنسية 467هـ- إذ قتله، وصلبه مع كلب، مما يدل على الضغينة التي كان المعتمد يكنها له.

و تحول عزيز بن خطاب–حسب ابن سعيد [4] - من عالم مشهور بالزهد والانقباض عن الدنيا، إلى ملك جبار سفاك للدماء، حتى كرهته القلوب، فقتل على يد محمد بن سعد بن مرذنيش(ت 567 هـ/ 1172 م) وطيف بجسده مسحوبا مجرورا بيد العامة، حتى يكون عبرة للمتنطعين والمتوسمين. [5]

---

[1] ابن بسام، الذخيرة، ق 2م 1، ص 429، وابن سعيد، المغرب، ج 1، رقم 389، ص 390، وابن الأبار، الحلة، ج 2، ص 151.

[2] نفسه، ص 430.ابن الأبار، نفسه، ترجمة 133، ص 158.نفسه، ص 160. "خرج المعتمد بابن عمار به في اشبيلية والشمع بين يديه، والحرم حواليه، وابن عمار بينهن على بغل، وهن يهزأن به ويتضاحكن منه.. ثم ضرب من طرف المعتمد بطبرزين(فأس مرهف الحدين)فقتل، ووصف أحد أصدقائه حالته لما رآه مقتولا: ".. إذا هو ملشحط في دمائه، مسرغ في ثيابه طريح في قيده.. سحبه الحرس في أسماله، طورا على وجهه وتارة على قذاله، إلى أساس جدار قريب من سواقي القصر، فطرح في حوض محتفر للجيار، وهدم عليه شفيره".

[3] الحلة السيراء، ج 2، ترجمة 138، ص 177. "وكان ابن عكاشة قد قتل الظافر ولد المعتمد وحز رأسه..ولم يمض إلا وقت قصير حتى قتل ابن عكاشة، وعادت قرطبة إلى المعتمد في آخر أيامه." انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 176.

[4] المغرب في حلى المغرب، ج 2، رقم 519، ص 252- 253.

[5] ابن عبد الملك أبو عبد الله محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، مص س، ص 146.

وعرفت الفترة الموحدية بالخصوص عدة ثورات عمت مختلف مناطق البلاد، إلا أن الخلفاء الموحدين كانوا صارمين في التعامل معها، فحزوا رؤوس مترعميها، وعلقوها على أبواب المدن وأسوارها، عبرة لمن يعتبر، وترهيبا لمن يتعظ، وتخويفا لمن يتردد، حتى تتلف في كثير من الأحيان، دون أن تعطى الأوامر بإزالتها، الأمر الذي يدل على مدى السادية التي ميزت جل حكام الفترة.[1]

وأمر أبو يعقوب يوسف الموحدي (558 هـ/ 1163 م -580 هـ/ 1884م)سنة 573هـ باعتقال وقتل أخيه السيد أبي حفص عمر - والي مرسية الملقب بالرشيد-، وعمه سليمان بن عبد المومن- أبي الربيع والي تادلة -، إذ رفع إليه طموحهما للتوثب على الخلافة[2]. وسجن الخليفة الناصر ابنه الأمير عبد الله ثم قتله بنفس التهمة[3].

أما خلال الفترة المرينية فنقدم مثالا واضحا عن سادية السلاطين، فقد أورد ابن الخطيب[4] نصا هاما يتعلق بسادية السلطان أبي سالم المريني(760هـ- 1359م / 762 هـ- 1361 م): «وصرف السلطان وكده إلى اجتثاث شجرة أبيه، وأن لا يدع من يصلح للملك ولا من يترشح للأمر، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع، طائفة تناهز العشرين غلمانا روقة من إخوانه وأبناء إخوانه، فأركبوا البحر إلى رندة، ومنهم ابن أخيه المسمى بالسعيد أبي بكر، المتصير إليه الأمر بعد أبيه، ثم تعقب النظر فيهم، فأركبهم جفنا غزويا موريا بتغريبهم إلى المشرق مبعدا إياهم عن حدود أرضه، ثم طير إلى قائد الأسطول أبي القاسم بن أبي بكر بن بنج بأمره بتغريقهم عند انصرافه عن مليلة، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين أمهاتهم الثكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر، وعاث في شعورهم الحيوان لطول مقامهم في البحر شهورا عدة فأغرقوا؛ بركب الصبي منهم زبنى من تلك الزبانية ليخرجه إلى البر، فإذا خاض به الغمر، وقارب

---

[1] انظر دراستنا السلطة والعنف، م س، ص 267 – 268، 278 – 284.

[2] ابن عذاري، نفسه، ص 198، المعجب، ص399، ابن خلدون، نفسه، ص 510.

[3] عبد الله أنيس الطباع، مص س، ص 259.

[4] ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ج 2، ص 267 – 269. الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، 1375 هـ/ 1955 م، ص 307 – 308. ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 35.

الضحضاح ظبه وأمسك أصحابه بيديه ورجليه وغمسوا رأسه في الماء حتى تفيض نفسه. إلى أن كمل منهم تسعة عشر بدور ملك وشموس إمارة. لم تعلق بهم شبهة توجب إباحة قطرة من دمائهم. حدثني متولي هذا المكروه بهم بهول مصرعهم فقال: لقد علت منهم ليلتئذ الجثث حتى صارت هضبة. وحفر لهم أخدود هيل عليهم ترابه. ونفذ السلطان أمره بعد ذلك بالإجهاز على طائفة من الأغفال من الرجال بين مشيخة وسواهم المنتسبين إلى يعقوب بن عبد الحق.. أبيدوا ذبحا. ثم ألحق بالجملة بعد مدة ابن أخته الغالبة على أمره. فتجنى عليه ما أوجب أن أثكلها به..»

نستخلص أن أبا سالم المريني - بعد اتفاقه مع ملك قشتالة–تمكن من دخول فاس والقضاء على ملك ابن أخيه الطفل أبي بكر السعيد، وارتكب مجازر في حق أقرب المقربين من أسرته الصغيرة والكبيرة، إضافة إلى كل من شك في ولائه، بصورة بعيدة كل البعد عن الإنسانية والعدل. الأمر الذي يؤكد طبيعة هذا السلوك المتسم بالسادية.

وهناك من مارس نزواته السادية فضيق على الناس اقتصاديا وعسكريا.[1] بل هناك من تولى بنفسه تعذيبهم وأخذ أموالهم،[2] وإهلاكهم وقتلهم جوعا،[3] مما أدى أحيانا إلى فرار كثير من أهل بلد مسلم إلى بلد الروم.[4] وهناك من قتل ابنه صبرا كما رأينا ليعطي العبرة والمثال حتى يهابه جنده[5]. كما أن الحسد كان يؤدي إلى تحفيز ذوي السلطة على قتل المحسود.[6]

وقدمت لنا بعض المصادر أوصافا لحكام تؤكد ساديتهم واستبدادهم. فهناك من وصف بالفظاظة والغلظة وسوء الملك،[7] وهناك من جمع بين لذة وحصول نصر.[8] ونشأت

---

[1] الحلة، ج 1، ص 286.

[2] نفسه، ص 302.

[3] نفسه.

[4] نفسه.

[5] الحلة السيراء، ج 1، ص 56.

[6] نفسه، ص 59.

[7] أبو زكرياء يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903 م، ص 107.

[8] نفسه، ص 133.

بين أحد أمراء بني عبد الواد ومغراوة ربح السعايات، واستحكمت صبغة العداوة، فنتج عن ذلك عام750هـ القتال بشكل بشع.[1]

نستخلص أنه في كل المواقف التي أشرنا إليها، تحضر سلوكات غريزية تتسم بالغضب والسرعة في اتخاذ القرارات المتسمة بالطيش، بعيدة عن القيم الأخلاقية والدينية والإنسانية، كما تحضر قيم الدولة السلطانية التي لا تتورع عن تنفيذ كل ما يمكن السلطان من المزيد من الرفعة السياسية والتفرد بالملك، أي يظل على رأس الدولة حاكما مالكا، آمرا لا يطال كلمته الباطل. كما استنتجنا سحب السلطة البساط من يد القضاء، مما دل على الغطرسة والانفراد بالمجد، فالسلطان- حسب أحد الباحثين -[2] حجة مدعومة بالقوة، القوة التي يكون بإمكانها أن تستأصل كل من يعترض طريقها، منتجة المبررات الدينية والسياسية التي تحول فعلها في القتل إلى فعل مطابق لإرادة التاريخ، التاريخ الذي تعمل على إنشائه، مدمرة كل من يقف في طريقها.

لقد حول رجال السلطة العقاب إلى إحدى مظاهر العنف الانتقامي العدواني السادي، لعدم التزامهم بما تنص عليه الشريعة، وعدم سعيهم إلى تحقيق العدالة، إذ ربطوه بالسجن والقتل والضرب والتنكيل والتعذيب والتشفي، واستهدفوا منه التخلص من المعارضين أو من يشكون في إذعانهم وولائهم.

إن طبيعة البشر تميل إلى العدوان، فإذا لم يوجد تشريع يقتص من المعتدي، فسيكون في وسع القوي أن يلتهم الضعيف ولا يجد الضعيف من ينصره، فالقصاص هو الجزاء الأوفى للأشرار، يقمع شرهم ويقضي على نزعتهم الإجرامية، أو على الأقل يحد من خطورتهم على المجتمع الذي يجب أن يعيش أفراده في ظل نظام يعرف القصاص العادل،[3] وفي هذا الصدد يقول تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا

---

[1] نفسه، ص 153 – 154.

[2] كمال عبد اللطيف، في تشريح أصول الاستبداد قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م، ص179.

[3] رباح غسان، عقوبة الإعدام حل أم مشكلة ؟ دراسة معمقة ومقارنة في النظرية والتطبيق، تقديم ومراجعة مصطفى العوجي، مؤسسة نوفل، بيروت، 1987م، ص 158.

اتجعل من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم مالا تعلمون)[1].

خلاصة القول إن الإسلام كرم الإنسان، بأن وهبه الحياة، وحرم قتل النفس بغير ذنب، لكن كثيرا من حكام العصر الوسيط كالحكم الربضي، وإبراهيم بن أحمد الأغلبي والمنصور ابن أبي عامر والمعتضد بن عباد وابن تومرت وعبد المومن بن علي وأبي سالم المريني خالفوا التعاليم الدينية، وصبوا نار غضبهم على معارضيهم ومناوئيهم، وارتكبوا سلوكا اتسم بالبعد عن العدل، وبالعدوانية والنزوات السادية، فضيقوا على الرعايا اقتصاديا وعسكريا، بل هناك من تولى بنفسه تعذيبهم وأخذ أموالهم، وإهلاكهم وقتلهم جوعا، وهناك من قتل ابنه صبرا ليعطي العبرة والمثال حتى يهابه جنده.ولذلك استعملت في أوصافهم ألفاظا ذات حمولة نفسية تحتاج إلى معول التحليل النفسي.

5) الزعامة:

اهتم علم النفس الاجتماعي بظاهرة الزعامة، وسعى للبحث عن خصائصها ونشأتها داخل جماعة معينة، فلكل جماعة زعيم، ولكل زعيم أتباع، فهناك القائد وهناك المنقادون، وعدد القواد يكون أقل عددا من المنقادين، كما أن له مواصفات نذكر بعضها على النحو التالي:

<u>أ. الاستمهاء أو التقمص الوجداني (Empathie):</u>

ويتحدد في القدرة على أن يضع الشخص نفسه مكان الغير، ليفهمه ويشعر بما يشعر به حتى يقدر على مساعدته ويسعى لتلبية حاجياته، وقد ارتبطت هذه الصفة أيضا كما سيتبين بالحلم والعفو، فالحلم هو ضبط النفس عند هيجان الغضب، وهو خليق بالملك، لما فيه من الراحة واستلزام الحمد وحسن العاقبة، ورضى الخالق.[2] وهو أيضا الصبر على

---

[1] سورة البقرة، آية 29. ويقول تعالى في سورة النساء، آية 92 " ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما".

[2] المنهج المسلوك في سياسة الملوك، ص 110، قال ص " إن الله يحب الحليم، ويبغض الفاحش " وقال ص: وجبت محبة الله لمن غضب، فحلم، وقال عليه السلام: الغضب جمرة تتوقد في جوف ابن آدم ألم تر إلى حمرة عينيه، وانتفاخ

مكافأة الظالم والسفيه على وجه جميل مع المقدرة على الانتصار عليه، ومع العجز يكون ذلا، ومع الاضطراب ورجاء النفع في الحال أو في الاستقبال يكون صبرا.[1]

يتضح أن المرادي[2](ت 489 هـ) وأيضا ابن رضوان[3](ت 783 هـ) خصصا في مؤلفيهما إحدى الأبواب للحديث عن الصبر وأيضا الحلم.. فالصبر يقابل مفهوم المثابرة في دراسات علم النفس الحديث، أما السمة الثانية أي الحلم فتقابل ضبط النفس، كما تناولا الغضب وهي من الموضوعات التي تدرس في علم النفس العام تحت مسمى الانفعالات Emotions.

والحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التعلم أي تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دليل انكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، فالتكبر والتجبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين[4].

وأورد ابن مرزوق[5] وغيره[6] آيات وأحاديث تحث على الحلم والصفح معتبرين إياه أفضل الصفات وأجمل الحالات، وأشهر ما قيل في الصفح الجميل: «هو الذي لا يلحقه عتاب، أو الذي لا توبيخ يصحبه، وهو بمعناه، والذي لا يرى فيه حقد، وهي متقاربة»، وفي المثل:

أوداجه وأتاه رجل فقال له: يارسول الله أوصني قال: لا تغضب، ثم أعاد عليه فقال: لا تغضب. أبو عبد الله ابن الأزرق (ت 896هـ)، بدائع السلك في طبائع الملك، ج 1، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، نشر دار السلام، القاهرة، ص 460.الشهب اللامعة، ص 102.

[1]أبو بكر محمد المرادي، المصدر السابق، ص 50 "وقد قالوا: متى حلمت على السفيه، كثر أنصارك عليه، ومن حلم زاد، ومن تفهم ازداد".

[2]نفسه، انظر إبراهيم شوقي عبد المجيد وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 661.(عرض جمعة سيد يوسف)

[3]الشهب اللامعة في السياسة النافعة، مص س، ص 203 – 204.

[4]الإمام الغزالي، إحياء، ج 3، ص 172.وكان من دعاء الرسول ص "اللهم أغنني بالعلم، وزيني بالحلم، وأكرمني بالتقوى، وجملني بالعافية".

[5]المسند، ص 179.

[6]الشهب اللامعة، الباب الرابع، ص 102. "يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك".

«كاد الحليم يكون نبيا». ويشير ابن رضوان[1] و الطرطوشي[2] إلى أهمية الحلم معتبرين إياه ركن من أركان الطاعة.[3] واعتبر الشيزري[4] الرأفة جبلة كريمة تقتضيها حال الملوك، ترتبط بالشفقة والحنان على الرعية وضعفائها واصطناع المعروف إليهم، وكف الأذى عنهم، وأشارت غيرها من كتب الآداب السياسية إلى أن خير الملوك من ملأ قلوب رعيته محبة، كما أشعرها هيبة.[5]

وينتج عن معاملة الرعية بالرفق زوال أحقادها، وسهولة حكمها، بينما ينتج عن القساوة تذمرها وإقدامها على ما نهيت عليه. وقد يبلغ الملك برفقه ولينه ما لا يبلغه بساديته وقساوته، فباللين والتدبير ينقلب العدو صديقا.[6]

أما العفو فهو أن يستحق حقا فيسقطه، ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم الغيظ. فالعفو أقرب إلى التقوى [7]، وأورد الغزالي عدة أيات وأحاديث نبوية تحث على العفو.[8]

ولعل هذه السمة كانت من أهم سمات عبد الرحمان الداخل (ت 172 ه)الذي كان يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع شكاويه إليه دون مشقة،[9] و كان يعود المرضى ويحضر الجنائز ويكثر مباشرة الناس، والمشي بينهم.[10] وقدم لنا المقري أمثلة عن عدم اهتمامه

---

[1] نفسه، ص 101-102

[2] سراج الملوك، الباب 28، ص ص 332 - 352.

[3] الشهب اللامعة، نفسه.

[4] الشيزري، مص س، ص 102.

[5] نفسه، ص 10 "ولن ينال ذلك منها حتى يكون عاملا بخمس خصال: إكرامه شريفا، ورحمته ضعيفا، وإغاثته لهيفا، وكف عدوان عاديها، وتأمين السبيل لرائحها وغاديها، ومتى أعدم الرعية سيئا من ذلك فقد أحقدها بقدرها وقدرما أفقدها"

[6] نفسه، ص 98، (ادفع بالتي هي أحسن..)المؤمنون، آية 96

[7] الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، ص 178." ولا يزيد العبد إلا عزا يوم القيامة كما ذكر الرسول (ص) ".

[8] نفسه، ص 178 – 180.

[9] النفح، ج 1، ص 332.

[10] نفسه، ج 4، ص 36.المراكشي، المعجب، ص 33

بالصغائر ورفضها كالخمر والجواري،[1] بينما تميز بالعفاف وحسن السيرة[2]، إذ أحسن لعيال يوسف الفهري رغم انتصاره عليه.ووصف هشام بنعبد الرحمان (ت 180 هـ)بحسن السيرة وتحري العدل،[3] إذ ذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، فكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف أو ظلم من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد.[4] وكان الوزير أبو خالد هاشم بن عبد العزيز[5] -حسب الرازي - رحمة مبسوطة للعامة والخاصة.

في هذا السياق عرف عن أبي المطرف عبد الرحمان بن الحكم « عبد الرحمان الأوسط»(ت 233 هـ) سعة العلم والحلم وقلة القبول للبغي والسعايات.[6] كما كان السعي والوساطة ومحاولة استغلال النفوذ لدى الأمير أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن الحكم مرفوضا ساقطا.[7]

ونفس الأمر ينطبق على الحكم المستنصر (350 هـ / 961 م - 366 هـ / 976 م)[8] الذي كان رفيقا بالرعية، فاضلا عادلا شغوفا بالعلوم. يعد من أهل الدين والعلم [9]، والمنصور بن أبي عامر (ت 392 هـ)[10] الذي تلازمت فيه صفات متناقضة كالشجاعة والقساوة والكرم، إضافة إلى الحلم والاحتمال.[11]

---

[1] نفسه، ص 42.

[2] النفح، نفسه، ص 33.

[3] المراكشي، نفسه، "كما كان أيضا يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة."

[4] النفح، ج 1، ص 336.

[5] الحلة السيراء، ج 1، ص 139.

[6] نفسه، ص113.

[7] نفسه، ص 119.

[8] النفح، نفسه، ص 75،ز "فقد أوسع العطاء وأفرط في الإكرام لأبي علي القالي".

[9] الحلة، نفسه، ص 200 – 201، 203.

[10] المقري، النفح، ج 2، ص 128،« فلما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عدد لا يحصر، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار خمسمائة ألف دينار».

[11] الحلة، ج 1، ص 273 – 274." وعلى ما كان عليه من الهيبة والرهبة، فقد كان له حلم واحتمال، مع محبة للعلم وإيثار للأدب وإكرام لما ينتسب إليهما، فقد دخل عليه أبو الوليد الباجي وانتقده مقارنا بينه وبين أبيه وناكرا عليه انغماسه

ووصف ابن الأبار[1] المستظهر عبد الرحمان بن هشام (392 هـ - 414 هـ) برقة النفس وحسن الكلام والإصغاء، في حين وسم سليمان المستعين بأنه من أهل العلم والفهم.[2] وهذه خلال اجتمعت أيضا في حبوس بن ماكسن[3] والمعتمد[4]، والمظفر باديس[5]. وكان أبو الحزم جهور (ت 435هـ)[6] أيضا يشهد الجنائز ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين، وكان أمناً وادعاً، وقرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف.واستمر أمره على ذلك إلى أن مات.وهذا ما ميز عبد الله بن بلقين «الذي اختاره جده لولاية عهده لتواضعه ومشاورة أهل السن والعمل من وزرائه، وإنزال نفسه لهم بمنزلة الابن، حتى وقع ذلك من أنفسهم موقعا ارتضوه به للخلافة من بعده»[7].

وكان عبد الرحمن بن عياض(ت 541هـ)- الذي تولى أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين - من صلحاء الأمة وخيارها، وكان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة.[8]

و في العدوة كانت أيام أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد الأغلبي(قتل 290 هـ)– على قصر مدته سنة واحدة و52 يوما – أيام عدل وصلاح وحسن سيرة، كما كان عاقلا عالما.[9]

في الدنيا، فأجابه المنصور بأن " هكذا صاحب الدنيا: لابد أن يخلط خيرا بشر، ويأتي معروفا ومنكرا، والله يتوب على من يشاء برحمته ". انظر أيضا المعجب، ص 46 – 48.

[1] نفسه، ج 2، ص 13.

[2] نفسه، ص 8. المعجب، ص 84.

[3] ابن بلقين، التبيان، ص 26. "وكان محبا في اقاربه وبني عمه، لم يستأثر عليهم بشيء، وجمدت يده على الحرام والأموال، فاحبه الناس".

[4] الطيبي، أمين توفيق، المرجع السابق، ص174. "وكان يتحلى بخلال حببته إلى رعيته لا بل وإلى أهل الأندلس عامة".

[5] ابن بلقين، نفسه، ص 57 – 58. "عفا عن ابن صمادح وقبل اعتذاره كما عفا عن فقهاء مالقة وزاد في مراتبهم"

[6] الحلة السيراء، ج 2، ص 33. المعجب، ص91 - 92.

[7] ابن بلقين، نفسه، ص 12، 48. انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ط1956، ص 268. انظر ايضا عن أمين توفيق الطيبي، م س، ص 210.

[8] المعجب، ص 305. " فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل. كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس."

[9] الحلة السيراء، ج 1، ص 174 – 175. "وكان شجاعا بطلا ذا بصر بالحروب والتدبير.. له نظر في الجدل "

وكان أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب كوسجا عقيما موصوفا بحلم وجود.[1] أما علي بن يوسف بن تاشفين فقد كان حسن السيرة، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم، كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين.[2]

أما ابن تومرت «فقد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة، وعظم أمره، إلا أنه كان لا يتعذر عليه مراد، ولا يمتنع عليه مطلوب».[3]

واهتم السلطان أبو الحسن المريني بشفاء ابن مرزوق أكثر من أحد أولاده الذي كان مريضا أيضا،[4] «إذ تمت الإشارة إلى أنه كثيرا ما ناوله بيده الطعام أثناء أكله»،[5] مما دفعه إلى التعبير عن إعجابه وفخره بهذه الالتفاتة بالقول: «وهذه مزية لا أعتقد أن على وجه الأرض من صنفي من شاركني فيها».[6]

و خصص ابن مرزوق فصلا فيما تحمله منه المولى أبي الحسن من جهالة حملته عليا العزة وقلة المعرفة،[7] يستخلص منها حلم السلطان وعزة ابن مرزوق لديه، منها منعه من السفر للحج، وعزم الأخير على ذلك.[8] وأضاف ابن مرزوق: سمعت عبد الله بن أبي حفص، وهو عبد الله ابن عثمان ابن عمر بن يغمراسن، يقول «أنسى حلم مولاي أبي الحسن كل حلم تقدمه مما حفظ عن الملوك، وبرهان ذلك شأننا معه، ملكه الله رقابنا وحكمه فينا، ومكنه بسيوفه منا معشر بني عبد الواد، ونحن نتازعهم ونقتل منهم، وننازعهم منذ مائة سنة، ثم إنه لم يسمعنا كلمة معتبة ولا توبيخا على قضية، وهذا هو الصفح

---

[1] نفسه، ص 169. "وحاربه اخوه أحمد فظفربه وأخرجه إلى المشرق، وكانت في أيامه حروب كثيرة نصرفيها."

[2] المعجب، ص 252.

[3] نفسه، ص270.

[4] المسند، ص 489 – 491. " فقد لقي ابن مرزوق من الاعتناء عجائب أثناء سفره إلى تلمسان لعيادة عمه عندما كان صحبة أبي الحسن بسبتة أيام حصار الجزيرة، وأوصاه الأخيربالإياب على فاس حيث أوصى به.. وعندما اعتراه مرض في مراكش كان الأطباء والمعتبرون من أهل حضرته يتعاقبون لعيادته، والأشربة وما يحتاج إليه من دواء وغداء من داره مع أحد الفتيان." ص 487 – 488.

[5] نفسه، ص 491.

[6] نفسه.

[7] نفسه، صص 491 – 495.

[8] نفسه، ص 494.

الجميل، ونحن الآن عنده أعز من كبار قبيله».[1] ويضيف: «حضرت معه يوم دخل تلمسان عنوة.. ظهر من أهلها من المشاقة والممانعة ما أتى على إتلاف كثير من الأنفس، وهم مع ذلك يوحشون القلوب، ويغرسون أسباب البغضاء، يتفحشون في السب والأذى، ويقابلون أقبح المقابلات، مما لا تحمله كل النفوس، ولا تتغاضى عنه، فتوعدهم ﷺ وشدد في الإغراء بهم، قبل التمكن منهم، قال: فما كان إلا أن تمكنت وحصلت في وسط الباب داخلا ألقى الله في نفسي العفو، فكان بيني وبينهم رحمى سابقة، فوجدت من الشفقة عليهم والحنو والعطف، ما يجده المرء على ذوي رحمه، فقابل جميعهم بالعفو، واسترد جميع ما صار تحت أيدي المنتهبة.. ».[2] وكان من شأن أهل وجدة وأهل وهران ما كان من مثل هذا، وغيرهما من البلاد افتتحها عنوة، فقابلهم بمثل هذا، وفعله في سجلماسة، وفي حربه لأخيه الأمير أبي علي..[3] قال لي الشيخ الفقيه الإمام القاضي المرحوم أبو إسحاق بن أبي يحي: «حين دخلت تلمسان هذه الدخلة، هي ثامنة عشر دخلة دخلتها ملوك عنوة، لم يتفق فيها قط من العفو ما قارب هذا ولا داناه.» وقد قام ابن مرزوق بمقارنة بين ما تعرضت له تلمسان زمن المرابطين والموحدين وزمن المرينيين ليستخلص العفو الكبير والمشهور الذي اتسم به الأمير أبو الحسن والذي يصعب حصره[4]. كما أورد المؤلف قضية اختلاس المال وعفو أبي الحسن عن صاحب الفعل بعد اعترافه واعتذاره.[5]

---

[1] نفسه، ص 184، 202.

[2] نفسه، ص202.

[3] نفسه، ص 203.

[4] نفسه "فإني قارنت بينها وبين ما علمته من دخلاتها في زمن لمتونة والموحدين، أولا وأخيرا، وما تلقينه من قدماء أهل بلدنا، فلم أجد بينهما مناسبة، فكم خربت فيها من ذمم، وكم هلكت فيها من أمم، وكم انجلى من أهلها أعلام، وكم كابدوا من محن فيها وانتقام، وأمست في هذه الدخلة دار عرس وسرور، بما امتن الله به عليهم من إيالته ﷺ، والأمور العامة الكلية في عفوه شهيرة، والجزئيات كثيرة لا تنحصر".

[5] نفسه، ص204.

يقول صاحب المسند: سمعته ﷺ يقول: «**لا شيء أعظم لذة من مقابلة الإساءة بالإحسان فكم من مسيء قابله بإحسانه، وكم من جان قابله بفضل عفوه وامتنانه، فكانت تلك سجيته وهي صفته المعلومة وطريقته.**»[1]

وهذا يدل على تحلي المولى أبي الحسن بفضيلة الصبر.[2] وقد أورد صاحب المسند عدة قضايا أخرى تبين حلمه وعفوه وصفحه..[3] كما أورد فصلا فيما يتعلق بقبوله المعاذير..[4] وبابا في بناء المارستانات لمداواة المرضى ومعاناتهم،[5] وآخر في حنوه على الأيتام وشفقته عليهم[6]، واعتبره أعظم الملوك عفوا..[7]

ويبدو أن بعض السلاطين الذين تميزوا بهذه الخصلة أي الحلم كانوا يبتعدون عن الغضب عملا بما أوصى به القرآن والسنة ومؤلفات الآداب السلطانية وغيرها – كما رأينا -[8]، كي لا ينتج عن ذلك شهوة الانتقام، حتى ولو ارتكب خطأ أو ضيم في حقهم، حذرا واتقاء من ارتكاب ضرر أعظم، وهذا النظر والحذر هو استشارة العقل، وهو الحلم بعينه،[9] واعتبر ابن مسكويه الغضب أعظم أنواع أمراض النفس.[10]

وكان الخليفة أبو السعيد عثمان (ت 731 هـ/ 1331م)رحيما رقيق النفس، لا يستطيع النظر إلى معاقب، ولا يستقصي في العقوبة حقا.[11] وكان أعظم خلق الله رأفة وأكثرهم على

---

[1] نفسه، ص 211.

[2] نفسه، ص ص 213 – 217، 221-226.

[3] نفسه، ص 184 – 186.

[4] نفسه، ص 319.

[5] نفسه، ص 415، الباب 43.

[6] نفسه، ص 419، الباب 45.

[7] نفسه، ص 202.

[8] تهذيب الأخلاق، مص س، ص 166.

[9] نفسه، ص 170." الشجاع العزيز النفس هو الذي يقهر بحلمه غضبه، ويتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه، حتى يتروى وينظر كيف ينتقم ممن وعلى أي قدر؛ وكيف يصفح ويغض عمن وفي أي ذنب.."

[10] نفسه.

[11] المسند، ص 122، ابن أبي زرع، الروض، ص 523، 525.

عباده رأفة، كان يتفطر على أهل تلمسان، ويشفق للمستضعفين منهم، وما يكابدونه من ألم الحصار.[1]

ويشير ابن مرزوق[2] إلى أن من العوامل التي أدت إلى انقياد قبائل أهل المغرب للمرينيين لما عرفوا من عدلهم ومن حسن سيرتهم.

كما اتسم أبو يحيى يغمراسن[3] بالفضل والحلم والتواضع والعفاف، يؤثر العلماء والصالحين ويجالسهم كثيرا. وكان ابنه أبو سعيد (بويع ذي الحجة 681 ه) محببا إلى القلوب، ذا سياسة وصبر للحوادث،[4] كما كان ابنه أبو زيان[5](بويع ذي القعدة 703 ه)فاضلا مباركا لين الجناب حسن ملكه. وأما أبو تاشفين بن السلطان أبي حمو[6]- ابن السلطان أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان (بويع جمادى الأولى 718 ه)– فقد كان فاضلا، حميد السيرة، رحب الجناب، عظيم الخلق، في أيامه تحضرت الدولة وأخذ الملك زخرفه وتزين.

نستخلص مما سبق تأكيد رأي أحد الباحثين[7] بأنه إذا كانت قيم الشجاعة والبسالة تحيل عادة إلى روح الشراسة والقسوة وعدم المبالاة بآلام الآخرين، مما يوحي بنزعة حربية لا تعرف الرحمة، فإنه يمكن للمحارب الشجاع في تصورات المجتمع المغربي أن يكون على قدر كبير من الرقة والوقار. وقد كان لسيادة هذه القيمة خاصة بالبادية، إضافة إلى الحياء والحشمة، دور هام في تتويج صورة المحارب الشجاع بمظهر إيجابي أفضت به أحيانا إلى نجاح اجتماعي قد يصل إلى مستوى التقديس.

---

[1] نفسه، ص 118.

[2] نفسه، ص 110.

[3] بغية الرواد، ص 110 – 111. "بويع يوم وفاة أخيه أبي عزة زيدان 24 ذي القعدة 633 ه".

[4] نفسه، ص 118.

[5] نفسه، ص 122. " ابن السلطان أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بويع ذي القعدة 703 ه".

[6] نفسه، ص 123.

[7] حميد تيتاو، المرجع السابق، ص 429.

من جهة أخرى لجأت السلطة إلى إطلاق سراح بعض السجناء قصد كسب ود الرعية والتحبب إليها، وارتبط ذلك بأحداث لها دلالتها مثل البيعة أو فتح مدينة، كما نتج السراح أحيانا أخرى بسبب غياب الحاكم أو الوالي. واستعملت القوة في حالات أخرى، فقد عفا أبو يعقوب الموحدي عند بيعته عن المسجونين،[1] كما اهتموا بإطلاق سراح الأسرى لدى النصارى.[2]

قصارى القول إن من أهم مواصفات القائد أو الزعيم أو الحاكم الاستمهاء، فقد اتصف بها بعض الحكام الذين أحسنوا السيرة، واتسموا بالكرم وعيادة المرضى وحضور الجنائز ونشر الأمن والطمأنينة وربط المسؤولية بالمحاسبة. فقد كانوا يتتبعون بسرية - عبر العيون - سلوك العمال والأعوان، كما اتصفوا بالتواضع والمحبة. وسجلنا ارتباط الاستمهاء بالحلم والعفو والصفح، وقدمنا أمثلة عن ذلك أبرزها سلوك المولى أبي الحسن المريني مع ابن مرزوق إضافة إلى عبد الرحمان الأوسط وأبي العباس محمد الأغلبي من قبل.

ب. قيم الجود وكرم الضيافة:

اعتبرت كتب الآداب السلطانية[3] هذه الخصلة إحدى قواعد الملك، «**وأساسه وتاجه وجماله، تعنو لها الوجوه، وتذل لها الرقاب، وتخضع لها الجبابرة، ويستمال بها الأعداء، ويستكثر بها الثناء، ويملك بها الغرباء والبعداء.. وأحوج خلق الله إليها من احتاج إلى عطف القلوب عليه، وصرف الوجوه إليه، وهو الملك**». فالسخاء يورث الحمد، ويكسب حسن الثناء، ويزرع المحبة في القلوب، ويدفع النوائب،[4] وهو من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة.[5] واعتبر الشيزري[6] السخاء عماد البر لما فيه من عموم المصلحة في الدنيا والآخرة. ورأى بعضهم[7] أنه متى أسرف الملك في توسعة

---

[1] ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص 266.

[2] انظر حميد الحداد، السلطة والعنف، م س، ص 154.

[3] الطرطوشي، سراج الملوك، ص 358، ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 234.

[4] الشهب، ص 235، "قال ص: صنائع المعروف تقي مصارع السوء."

[5] الغزالي، الإحياء، ج 3، ص 239 قال الرسول (ص) "إن الله جواد، يحب الجود، ويحب مكارم الأخلاق، ويكره سفاسفها".

[6] النهج المسلوك، مص س، ص 97.

[7] نفسه، ص 157.

الأرزاق على جنده نتج عن ذلك زهوهم وتكبرهم وطغيانهم، ومتى ضيق عليهم أحقدهم، فيكون في هاتين الحالتين متعرضا للهلاك..

وتتجلى فضائل الجود في ستر العيوب، وإحراز الكثير من جميل الخصال،[1] وأوصت المؤلفات السلطانية الحكام بالإكثار من الإحسان للرعية، ودوام عطاءاتهم واستمرار إحسانهم ضمانا لمحبتها،[2] والابتعاد عن المن لأن المطلوب جود العقلاء الذي يمكن من المحبة، ولا يصح ذلك فيه إلا بوصوله إلى قابله في أجمل صورة وأحسن هيئة. بالمقابل فإن البخيل يذل نفسه ويجعل ماله حسرة عليه، ووديعة في يديه[3].

وبالإضافة إلى تخصيص كتب الآداب السلطانية[4] أبوابا للجود والسخاء والمكافأة على السوابق وبذل المعروف والمكرمات، خصصت أبوابا لإكرام أهل الوفاء ورعاية العهود،[5] كما تناولت أبواب تودد الملك إلى رعيته وتبسطه وتواضعه في علوه وذم الكبر.[6] وأشار ابن مسكويه[7] أن الكرم هو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع. وأما الإيثار فهو فضيلة للنفس بها يكف الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذله لمن يستحقه.

وأشار الطرطوشي[8] إلى أهمية الصبر والشجاعة وقوة النفس خاصة فيما يتعلق بأداء الحقوق، وفي تجاوز الهوى، والحد من الشهوات، والالتزام بالفضائل، والصدق وتحري الحقيقة. كما دعا السلطان الرفق بالرعية لاسيما فيما يخص الجبايات، حتى لا تثور عليه

---

[1] الإسراء، 29، المرادي، ص 59. "وأنه مع الإسراف فيه يكون الانقطاع عنه، وأحسن ما في ذلك أدب الله لنبيه عليه السلام، في قوله عزوجل: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ".

[2] بولشيش، لصائح الآداب السلطانية، م س، ص 97 انظر ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 28، 276، 278.

[3] المرادي، مص س، ص 59وقيل " وحقيقة الجود آلا يصعب عليه البذل ". ويقال: السخاء هو الرتبة الأولى، ثم الإيثار، فمن أعطى الكل فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الصبر فهو صاحب إيثار". المسند، ص 188.

[4] الطرطوشي، سراج الملوك، ص 358 – 385، ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 234-236.

[5] الشهب، ص 253، سراج الملوك، ص 246 – 247.

[6] نفسه، ص 261-265.

[7] تهذيب الأخلاق، مص س، ص 18.

[8] سراج الملوك، ص 670.

الرعية، فتشكل له بلاء وعبأ ونقمة، مؤكدا عليه باتخاذهم، أهلا وإخوانا، فيكونون له جندا وأعوانا، وقد سبق المثل: إصلاح الرعية خير من كثرة الجنود..[1]

وفي هذا الصدد كان من عادة عبد الرحمان الداخل أن يشرك معه في طعامه من أصحابه من أدرك وقت تناوله، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه؛[2] ورغم أنه قتل ابن أخيه إلا أنه واساه وأكرمه بالأموال،[3] كسلوك يعبر عن الشعور بالندم والتوبة. وكان عبد الرحمان بن معاوية يكسي الوفود، ويطعمهم ويصلهم حتى ينصرفوا عنه محبورين مغتبطين شاكرين.[4] أما هشام بن عبد الرحمان فكان يتصدق بالصدقات الكثيرة، »يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوت من الضعفاء«[5] وأكثر الحكم بن هشام مواساة أهل الحاجات[6] أثناء المجاعة الشديدة سنة 197 هـ.

واستجلب المنصور بن أبي عامر القلوب بجوده، إذ أطلق يده بالعطاء والهدايا، بينما الوزير المصحفي نفرها ببخله وسوء خلقه، إلى أن كان من أمره ما كان،[7] وكان يناقضه في أكثر ما يعامل به الناس.[8]

و أسقط عبد الملك المظفر بن المنصور ابن أبي عامر سدس الجباية لأول ولايته في جميع أقطار الأندلس عن الرعية، فراقت أيامه، وأحبه الناس سرا وعلانية، وانخفضت الأسعار، وانعكس ذلك على السكان.[9] وكان ادريس بن يحيى العلوي الحمودي الملقب بالعالي[10] متناقض

---

[1] نفسه، ص 459.

[2] النفح، ج 1، ص 332.

[3] نفسه، ج 4، ص 47– 49.

[4] نفسه، ص 38.

[5] المراكشي، المعجب، ص 33.

[6] النفح، ج 1، ص 341، وفي ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيري فيه:

نكد الزمان فأمنت أيامه   من ان يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة فجلا له   تلك الكريهة جوده الغمر

[7] ابن بسام، الذخيرة، ق 4 م 1، ص 58-59، والمقري، النفح، ج، 2، ص133، ابن بلقين، التبيان، ص 15.

[8] نفسه، ص 60.

[9] نفسه، ص 78.

[10] انظر أعمال الأعمال، ص 155 – 156.

الأمور أيضا: كان أرحم الناس قلبا، كثير الصدقة، يتصدق كل يوم جمعة بخمسمائة دينار، ورد المطرودين إلى أوطانهم، وصرف إليهم ضياعهم وأملاكهم، ولم يسمع بغيا في أحد من الرعية. وكان أديب اللقاء حسن المجلس..[1] وكان تميم بن المعز حليما جوادا[2].

وكان إسماعيل بن عباد القاضي ينفق من ماله وغلاته، لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا خدمه، وكان واسع اليد بالمشاركة (المقاسمة).[3] أما المعتضد فقد اتسم بجود كبير واستثنائي،[4] كما تميز المعتمد بفضائل ذاتية كثيرة، كالسخاء والحياء والنزاهة، إضافة إلى الشجاعة.[5]

وأشار ابن القطان[6] إلى أن ابن تومرت كان يخرج للمواساة مرتين وثلاثة في الشهر الواحد، بحسب حضور المال. وكان عبد المومن الكومي(ت 558هـ) مؤثراً لأهل العلم محباً لهم محسناً إليهم يستدعيهم للإقامة عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم. وكان في نفسه همة ونزاهة نفس مع شدة الملوكية[7].

وأثنى ابن صاحب الصلاة [8] على أبي يعقوب يوسف الموحدي إذ وصفه بالفضل الجلي واتصال المواساة في كل شهر، وبالبركات في ممر الدهر، وكان سخياً، جواداً، استغنى الناس في أيامه، وكثرت في أيديهم الأموال،[9] و قرب أشياخ طلبة الحضر، وأحسن لعامتهم، كفعل

---

[1] الحلة السيراء، ج 2، ص29 " ومع هذا فكان لا يصحب ولا يقرب إلا كل ساقط نذل، ولا يحجب حرمه عنهم، وكل من طلب منهم حصنا أعطاه إياه وسلم وزيره وصاحب أبيه وجده موسى بن عفان إلى أمير صنهاجة فقتله.."

[2] نفسه، ص 23.

[3] نفسه، ص 36.

[4] نفسه، ص 42. "وكان ذا كلف بالنساء.. فقشا نسل عباد لتوسعه في النكاح وقوته عليه.. وقال غير ابن حيان: افتض ثمانمائة بكر".ص 43.

[5] المعجب، ص 149.

[6] ابن القطان، نظم الجمان، مص س، ص 171.

[7] المعجب، ص 293.

[8] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 165، 333 – 334. "فقد كان مستظهرا للقرآن بشرحه في ناسخه ومنسوخه، قارنا لنصه، حافظا له على وقفه وابتدائه، عالما بحديث الرسول (ص).. متقنا في العلوم الشرعية والأصولية".

[9] المعجب، ص 347."هذا مع إيثار للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط، صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين.. وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم، ثم طمح به شرف نفسه وعلو

أبيه، وأغدق عليهم بالمنح والهدايا والأعطيات،[1] كما تصدق على الضعفاء والوافدين الغرباء وجاد عليهم بجوده عندما شفي من مرض.[2]

من جهة أخرى حط أبو يعقوب الموحدي عند بيعته البقايا عن العمال الخائنين، فزاد الانبساط والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله، ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة وفرح الناس به وببيعته. واشتمل الحب له في جميع القلوب والأنفس.[3] وكان أبو يحيى يغمرا سن (بويع 633 هـ) كريما.[4]

وحلى ابن الأحمر[5] وابن أبي زرع[6] وابن مرزوق[7] كثيرا من الأمراء المرينيين كعبد الحق (592 هـ / 1195م - 614 هـ – 1217 م) ويعقوب ابن عبد الحق (656 هـ/ 1258 م – 685 هـ / 1286 م) وأبي سعيد عثمان بن يعقوب (710 هـ / 1310 م – 731 هـ / 1331 م) بصفات الكرم والجود المتمثلة في الإطعام، وكفالة الأيتام، والحنو على الفقراء والمستضعفين، والتواضع لأهل الدين. فقد اشتهر الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني بصنع المارستانات للغرباء والمجانين، وأجرى عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم، وأجرى على «ذوي القدرات الخاصة» والفقراء وعابري سبيل مالا، وبنى الزوايا في الصحراء والمناطق الخالية، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة.[8] وأمر بختن الأيتام وكسوتهم والإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء. وتميز السلطان المريني أبو السعيد بسعة البذل

همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب.. ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي".

[1] - ابن صاحب الصلاة، نفسه، ص 165.

[2] - نفسه، ص 333.

[3] - نفسه، ص 266.البيان المغرب، القسم الموحدي، ص 99. حميد الحداد، السلطة والعنف، ص 150، 157.

[4] - بغية الرواد، ص 110 – 111.

[5] - اسماعيل ابن الأحمر، روضة النسرين، ص.24، 28-29، 34، 50.

[6] روض القرطاس، ص 372 – 373.

[7] المسند، ص.117.

[8] ابن أبي زرع، أبو الحسن علي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص 91. روض القرطاس، ص 389.

والإحسان والصدقات[1]، حتى فاض المال بفاس. وكانت ولايته رحمة للناس، إذ رفع عنهم الضرائب[2].كما اشتهرت بالبذل والعطاء وإجزال الصلات والدة أبي السعيد[3].

وأورد ابن مرزوق[4] عدة حالات تبين عطاء المولى أبي الحسن وسخائه، فقد كان إ يقرب العلماء ويجعلهم من خواص أهل مجلسه، ويجري عليهم الجراية، فاجتمع بحضرته أعلام..[5] وأشار إلى أن أبا الحسن كان يعطي للشرفاء وخصوصا الواردين عليه من الحسنيين والحسينيين مما لا يدخل تحت الحصر.[6] كما أجرى لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يعيلون به أحوالهم ويستغنون به عن التكفف والعالة.[7] إضافة إلى اهتمامه برعاية الشيوخ ومن غلب سنه،[8] فقد كان أشفق خلق الله على الشيوخ الضعفاء، وقد أجرى عليهم رواتب تكفيهم، وبنى لهم دورا، وأجرى لهم كساء في كل عام.[9]

واعتبر تيناو[10] أن هذه الإجراءات مجرد أعمال إحسان وصدقات، لكنه يتدارك مشيرا إلى ما قام به أبو الحسن المريني الذي حول بفضل جوده وكرمه رجلا من الأبطال المجاهدين برندة وأولاده العشرة من الفقر والقلة إلى الغنى والرضى، إذ أعطاه بلدا وخصص له فوائده ومجابيه. ومن قبل ظهرت السعادة والبركة على البلاد لما ولي أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني ملك المغرب.[11]

---

[1] المسند، نفسه.

[2] نفسه، ص 119.

[3] نفسه، ص 122 – 123.

[4] نفسه، ص 192- 194.

[5] نفسه، ص 260.

[6] نفسه، ص 151.

[7] نفسه، ص 420.

[8] نفسه، ص 421.

[9] نفسه، ص 427.

[10] تيناو، المرجع السابق، ص 402.

[11] الذخيرة السنية، ص 94.

وقد ورث أبو عنان سنة والده، فكان يطعم بين يديه، ويتولى القيام عليهم بنفسه، ويلزم قواد قصب البلاد بذلك طول الجذب نفعهم الله به.[1]

نستخلص أن الإنسان كائن محير تمتزج فيه أرق الصفات وأنبلها مع أدنى الطبائع وأفظعها، وتتعايش فيه نزعات متعارضة ومتناقضة، نزعة الحياة والبقاء في مواجهة غريزة الدمار والموت[2]، ويتضح هذا في كتب الآداب السلطانية[3]: الرفق واللين مقابلا للقسوة والغلظة.. لذلك نصحت[4] بعدم نقصان الكريم من قدره فإن ذلك موجب لحقده.. وعدم رفع اللئيم فوق منزلته فإن ذلك موجب لتمرده.

وقد استنتجنا تناقض كثير من رجال سلطة الفترة، إذ تميزوا بالصفات النبيلة كالسخاء والعطاء والصدقة والرفق واللين، إلى جانب الخصال القاسية كالسادية المتجلية في القتل والتعذيب والتشهير، إذ تعايشت فيهم نزعات متعارضة ومتناقضة. وهذا ما دفع بوتشيش[5] إلى اعتبار أن وراء فضيلة التودد والملاطفة يختبئ مقابل سياسي صريح أو ضمني يتجلى في حصول السلطان على الطاعة المطلقة والولاء.

وأشارت بعض المصادر[6] إلى بخل بعض الحكام وكلفهم بالإمساك والتقتير في الإنفاق، الأمر الذي عرضهم لنيران النقد لاسيما من طرف الأدباء والشعراء، فقد تميز أبو الحزم جهور بشيم البخل الشديد والمنع الخالص.[7]

نستخلص أن الجود والسخاء اعتبرتا من الخصال الواجب اتصاف الحاكم بهما، وقد مدحتهما كتب الآداب السلطانية نظرا لدورهما في استمالة الأعداء، واستكثار الثناء وجلب المحبة وستر العيوب، وتوطيد العلاقة بين الحاكم والرعايا. وهكذا تبين لنا إكرام

---

[1] المسند، ص 191.

[2] مجموعة من الباحثين، المجتمع والعنف، ترجمة الأب إلياس زحلاوي، مراجعة أنطون مقدسي، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1405 هـ - 1985م.

[3] الشهب اللامعة، ص 35.

[4] نفسه، ص 164.

[5] إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق.

[6] ابن بسام، الذخيرة، ق 4 م 1، ص 143.

[7] الحلة السيراء، ج 2، ص30 – 31.

كثير من الحكام من ملوك وأمراء وخلفاء للعلماء والفقهاء، وبذلوا العطاء، وأجزلوا الصلات، وتصدقوا وواسوا ذوي الحاجات من فقراء ومساكين وعابري سبيل، كما شيدوا المارستانات، وأجروا عليها النفقات وتفقدوا أحوالها، كما أسقطوا الجباية في بعض الفترات، وهو ما اصطلح عليه أحد الباحثين ب «اقتصاد الأخلاق»[1]. وارتبط هذا السلوك ببعض الأحداث السارة كالبيعة أو الشفاء من مرض أو الانتصار في معركة. كما استخلصنا أن هذه الخصلة وهذا السلوك ميز حكاما قادوا مختلف الدول خلال العصر الوسيط، سواء أثناء فترة الولاة أو الإمارة أو الخلافة أو ملوك الطوائف أو المرابطين أو الموحدين أو المرينيين أو الزيانيين.

ج. القدرة على التواصل:

تتسم غالبا شخصية الزعيم بالانفتاح والذكاء الاجتماعيين، والاستماع إلى النصيحة، [2]فقد أوصى المرادي[3] الحاكم بلين الكلمة لخلق المحبة، وبالرفق حتى يملك الأمر كله، وبالتواضع. كما اعتبر أن المودة أمن وراحة، كما أن الكلمة الطيبة تسهل الوعر، وتذلل الصعب، وتكثر الصحب، وتملك القلب. وقد نتج عن هذه الخصلة صفة أخرى تتمثل في الجاذبية والقدرة على فض النزاعات، وذلك إما بفصاحة اللسان أو القدرة على الاستقطاب والجدال والإقناع أو العلم.

ويقدم الثعالبي[4] صورة لهذا التحبب إذ يشير إلى أن الحاكم الماهر الذي يتقن عمله وسياسته هو الذي يكون هدفه الوصول إلى قلوب رعيته، لكي تطيعه القلوب وليس الأبدان، وامتلاك القلوب يتم بالتودد إلى الرعية، ومن تم تكون طاعة الحاكم في هذه الحالة أقوى وأعمق وأدوم. أما الطاعة التي تقوم على الإكراه والقوة فهي لا تعدو أن تكون إلا طاعة ظاهرية، لأن القلوب تكون كارهة لحاكمها ولا تقوم بذلك إلا بدافع الخوف أو

---

[1] عز الدين العلام، الآداب السلطانية، ص 190، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، م س، ص 97.

[2] - ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 145-148." ادفع بالتي هي أحسن..". "فحسن الخلق يدل على طيب الأصل، وكرم الفرع، ويقود إلى راحة القلب."

[3] نفسه، ص 63.

[4] عز الدين جسوس، م س، ص 25 نقلا عن الثعالبي، آداب، ص 84.

عدم القدرة على الثورة والعصيان، ولهذا قيل: «**أسوس الملوك من قاد أبدان رعيته إلى طاعته بقلوبها**».

و تميز الكثير من السلاطين والأمراء والخلفاء بالعلم وحفظ القرآن، مما مكنهم من حسن السلوك والسيرة والقدرة على التواصل والاستقطاب، فقد كان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم وعلى سيرة جميلة،[1] نفس الأمر اتصف به هشام بنعبد الرحمان - كما رأينا -[2]، والمنصور ابن أبي عامر[3] و حبوس بن ماكسن (ت 429 هـ)،[4] و أبو الحزم جهور رئيس قرطبة الذي اعتبر من أهل الخير والدين والفضل، ومن أشد الناس تواضعا وعفة، واشتهر بالمشاورة[5]، وكان مأمونا وقرطبة في أيامه حريما يأمن فيه كل خائف من غيره.[6] وكان إسماعيل بن عباد القاضي - حسب ابن حيان –متسما برزانة العقل، وغزارة العلم، والذكاء مع الدهاء وبعد النظر.[7]

أما المعتضد العبادي فله في تدبير ملكه وإحكام أمره حيل وآراء عجيبة لم يسبق إلى أكثرها، فقد تميز بالقدرة على الاستقطاب في البداية، وبالانتهازية، وبذل كل المغريات لذلك.[8]

وكان ابن تومرت أفصح أهل زمانه، فلما فهموا معاني العقيدة زاد تعظيمهم محبتهم طاعتهم له.[9] وبالرغم من اشتهاره بذلك ومجالسته للطلبة، فإنه «**كان شديد الصمت كثير الانقباض، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة**»[10]، وهذا يدفعنا إلى

---

[1] المراكشي، المعجب، ص 30.

[2] نفسه، ص 33.

[3] نفسه، ص 46، 49. ابن بلقين، التبيان، ص 15-17.

[4] ابن بلقين، نفسه، ص 26."وكان رفيقا ببني عمه، محسنا إليهم، مؤلفا لكلمتهم"

[5] الحلة السيراء، ج 2، ص30 – 31.

[6] نفسه، ص 33، المعجب، ص 92.

[7] نفسه، ص 36.

[8] نفسه، ص 147. "إلا أنه عند التمكن ينهج أسلوبا مغايرا يتسم بالنرجسية وطرح الأخلاق والمبادئ جانبا، والسعي للمصلحة الشخصية قبل كل شيء."

[9] المعجب، ص 25.(نسخة إلكترونية).

[10] نفسه، ص 269.

افتراض تغليب الشخصية الانطوائية عليه (introversion)[1] أو الفصامية[2]. هذه الشخصية التي لا تألف ولا تؤلف بحكم الإحساس بنقص، ربما نتيجة علة أو تربية معينة ناتجة عن فترة طفولة أو مراهقة. ذلك أنه نادرا ما نجد زعيما منطويا على نفسه. فابن تومرت – رغم ما افترضناه سابقا - رحل إلى المشرق في شهور سنة 501 هـ في طلب العلم،[3] بينما كان عبد المومن « أفهم الطلبة»[4]، يعلم صبيان قرية فنزارة من بلاد متيجة[5]. كما كان محببا إلى النفوس لا يراه أحد إلا أحبه بديهة، وبلغني-يقول المراكشي - أن ابن تومرت كان ينشد كلما رآه:

تكاملت فيك أخلاق خصصت بها	فكلنا بك مسرور ومغتبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة	والصدر منشرح والوجه منبسط[6]

وكان أبو يعقوب الموحدي «مستظهرا للقرآن، عالما بالحديث، متقنا للعلوم الشرعية والأصولية»،[7] اتسم بحلو الألفاظ، وحسن الحديث، وطيب المجالسة، متمكنا من كلام العرب، وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، صرف عنايته إلى ذلك أيام ولايته على إشبيلية في حياة أبيه، ولقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن.[8] كما كان المرتضى الموحدي محبا في مطالعة الكتب متمكنا من تصانيفها[9].

---

[1] معجم مصطلحات التحليل النفسي، م س، ص 127 – 128.

[2] أسعد أزرق، موسوعة علم النفس، ص 149. "يتسم صاحب هذه الشخصية بالانطواء على النفس، وتجنب الاجتماع، وحب العزلة، والجدية في التفكير، بالإضافة إلى غرابة الأطوار في غالب الأحيان"

[3] المراكشي، المعجب، ص 262.

[4] البيدق، أخبار المهدي، ص 17.

[5] المعجب، ص 267.

[6] نفسه، ص 289.

[7] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 165.

[8] المعجب، ص 347.

[9] ابن القطان، نظم الجمان، ص 38.

ونفس الخصال اتسم بها عبد الحق بن محيو[1] وأبو الحسن المريني كما رأينا سابقا، ثم أبو عنان الذي كان عارفا بالمنطق وأصول الدين يناظر العلماء[2] وغيرهم.

نستخلص من هذه الأمثلة على قلتها أن المصادر لاسيما الرسمية منها تمدنا بسمات كثير من الحكام اتسموا بأخلاق نبيلة كقدرتهم على التواصل والتقرب إلى رعاياهم بهدف كسب ودهم، إذ اتسموا بالرفق لامتلاك الأمر كله، وبالتواضع وبالعفو عن قدرة، كما تميز البعض منهم بالجاذبية والقدرة على فض النزاعات، لتميزهم إما بفصاحة اللسان أو القدرة على الاستقطاب والجدال والإقناع أو العلم، مما نتج عنه تمكنهم من استقطاب كثير ممن كانوا يشكون في أهليتهم أو كفاءتهم أو شرعيتهم.. كما يمكن استخلاص مرة أخرى التناقض الذي ميز البعض، بل كثير من هؤلاء الحكام الذين اجتمعت فيهم خصال القوة والطغيان إلى جانب خصال الرأفة والتواضع والمساعدة و..

---

[1] ابن الأحمر، روضة النسرين، مص س، ص. 24 – 25.

[2] نفسه، ص. 38. رشا عبد الله الخطيب، تجربة السجن في الشعر الأندلسي، منشورات المجتمع الثقافي، أبو ظبي 1420هـ/ 1999م، ص 35 انظر محمد بنحمادة، صراع النخبة في الغرب الإسلامي من خلال التجربة السياسية لابن الخطيب، ضمن النخبة في تاريخ الغرب الإسلامي: ضوابط المفهوم وتجليات الأدوار، تنسيق محمد البركة، مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية فريق البحث في مجتمع الغرب الإسلامي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله: الكلية متعددة التخصصات بتازة، مطبعة أنفو – برانت، فاس، ط 1، 2015 م.(ص ص 95 – 112).

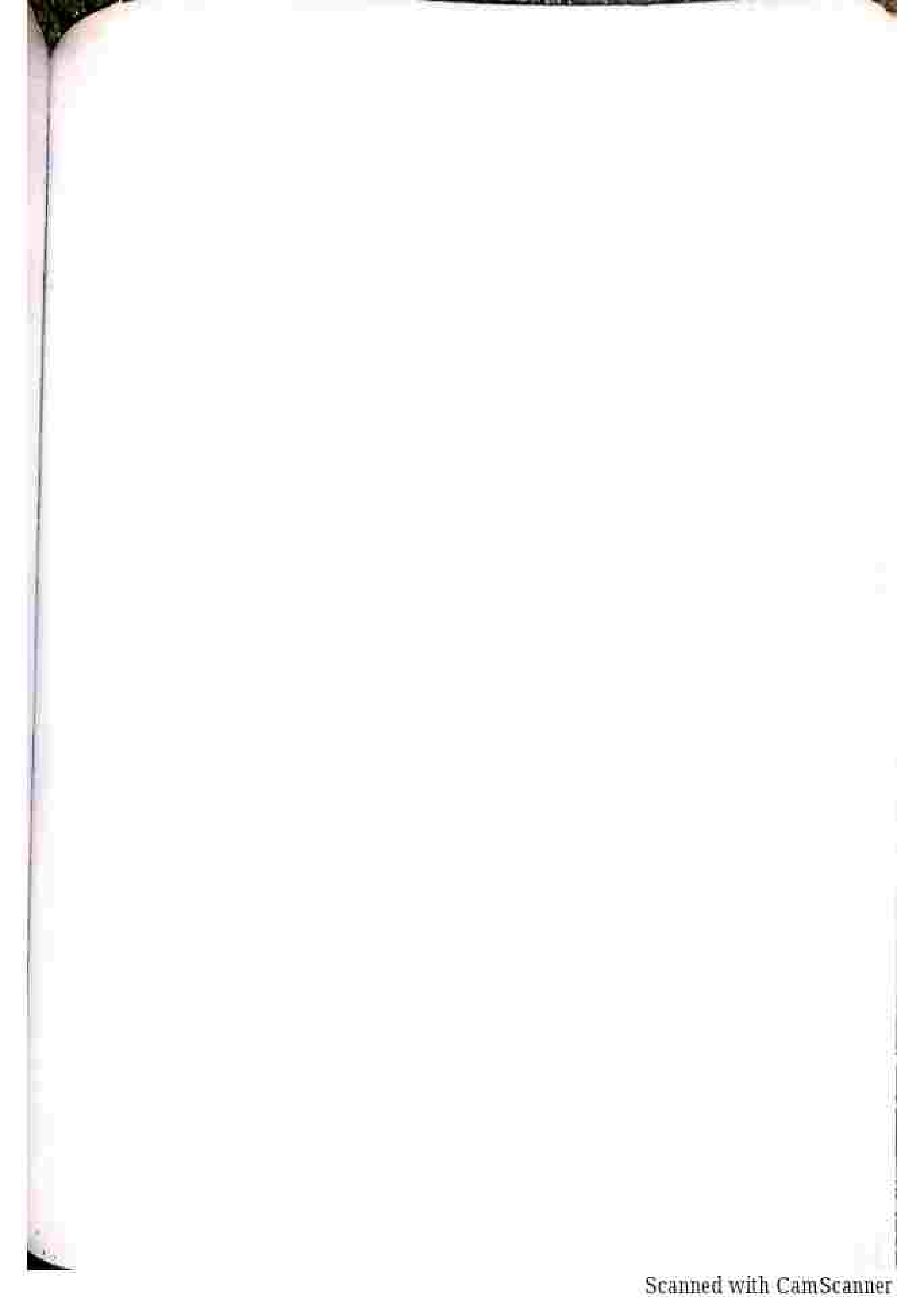
خاتمة:

لقد مكنتنا هذه المحاولة من التعرف على الصعوبات المنهجية التي تكتنف توظيف النفسانيات في البحث التاريخي، لتفسير الأحداث، وتحليل سلوك الأشخاص ودوافعهم الظاهرة والمضمرة، ولمسنا شحا في المادة التي قد تساعد على ذلك، لأن المصادر المتداولة، وخاصة في الفترة الوسيطة موضوع اشتغالنا، لم تكتب لأغراض تتيح للباحث استغلالها في التحليل النفسي، وما توفر من مادة تاريخية، قاصر عن تقديم خدمة كاملة لمن يروم ذلك، إلا أن المصادر مع ذلك تتوفر على إشارات كثيرة، تسمح بتقديم فرضيات أولية، أو مؤشرات ناقصة، في انتظار الكشف عن المزيد.

كما لاحظنا من خلال استعراض بعض الدراسات المغربية أن البحث التاريخي لم يحجم عن اقتحام هذا المجال، حيث دعا بعض الباحثين إلى الاستظهار بالنفسانيات مع الاحتراز من الإشكالات التي يطرحها المنهج، في حين اقترح بعضهم تطبيقه في تفسير سلوك بعض الشخصيات، بينما دعا البعض الآخر صراحة إلى علم نفس اجتماعي قد يقدم قيمة مضافة للكتابة التاريخية المغربية، وطالب بقراءة التاريخ النفسي الجماعي، والاهتمام بالآثار النفسية للحروب والعقاب والعنف بمختلف أشكاله.

و أجمعت الدراسات التاريخية المغربية التي اهتمت بموضوع العنف على توظيف هذا المنهج ولاسيما النفسي الاجتماعي، وبذلك يمكن القول إنها تتساوق مع ما ذهب إليه تيار اليسار الفرويدي الذي تزعمه أريك فروم، والذي يؤمن بتبادل التأثير والتأثر بين المحيط من جهة والعنصر الذاتي – الطبع – من جهة أخرى، بمعنى آخر هناك تكامل بين ما هو اجتماعي وما هو بيولوجي.. أي بين العوامل الموضوعية والعوامل السيكولوجية والفكرية. فالإنسان يتأثر ويستجيب للتغيرات الاجتماعية التي تحدث في مجتمعه، كما أن الوقائع الاجتماعية الموضوعية تتأثر بالقوى النفسية والفكرية.

وحاولنا في بحثنا استخدام بعض الآليات النفسية التي تساعد في تفسير بعض السلوك والتصرفات كظاهرة الاقتداء والتماهي، وآلية الهو، والسادية - التي اتسم بها كثير من حكام العصر الوسيط -، إضافة إلى آلية التعويض والاستمهاء وغيرها. ونشير أن معجم التحليل النفسي غني بالمفاهيم التي يمكن أن تشكل مفتاح المؤرخ في حل بعض الإشكالات التي قد تعترضه في هذا المجال.



الباب الثاني:

مقاربة نفسانية لسلوك ابن خلدون وابن الخطيب وابن مرزوق



أولا، السياق العام الذي عاشت فيه الشخصيات الثلاث

1) السياق السياسي:[1]

عاش ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون خلال القرن 8 هـ / 14 م، الذي تميز بتراجع أوضاع العالم الإسلامي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. ذلك أنه بعد سقوط دولة الموحدين في أواخر القرن 13 م، فقد المغرب الإسلامي وحدته السياسية، وتفكك إلى دول صغيرة ومتنازعة: الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والحفصية بإفريقية، والزيانية بالمغرب الأوسط. وقد بذل المرينيون محاولات قصد توحيد هذا المجال لاسيما من طرف المولى أبي الحسن المريني (731 هـ / 1331 م – 752 هـ / 1531 م). لكن الطابع العام الذي ميز الوضع السياسي بالمنطقة تجلى في التدهور، واكبه تزايد النزاعات والصراعات مع الزيانيين والحفصيين، وتبادل الأخيرين العداء ومحاولات السيطرة على مجال بعضهما البعض.

أما في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط فقد تصاعدت قوة المسيحيين بشبه جزيرة إيبيريا، حيث أصبحوا يسيطرون على معظم البلاد، بينما انحصر النفوذ الإسلامي منذ سنة 1232 م في مملكة بني الأحمر – بني نصر – بغرناطة. وقد أصيبت هذه الأخيرة منذ القرن 14 م بالضعف السياسي والعسكري، رغم إشعاعها الحضاري الكبير، فتصارع أفرادها على الحكم، وكثرت السعايات والمؤامرات، وتعددت الانقلابات، وظلوا يتأرجحون بين الاستنجاد بالمسلمين والاحتماء بالنصارى، واشتد هذا الضعف مع تقلص الإمدادات المغربية خلال نهاية المرينيين. فقد تميزت العلاقة بين الأندلس والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة بالتذبذب والتموج والتناقض، «فقامت على الحب والكراهية، الخوف والانتقام، المصلحة والغدر»،[2] هذا التناقض في المجالين السياسي والاقتصادي انعكس على المجتمع كما سيتضح لنا فيما بعد.

---

[1] لقد خصصت الباحثة سلوى الزاهري فصلا تمهيديا مفصلا لهذه الفترة، المناقب المرزوقية، مص س، المحققة، ص ص 24 – 42.

[2] فاغية السعدية، "شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بتطوان، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد 2، السنة 2، 1408 هـ – 1987 م، ص 148.(عدد خاص بندوة ابن الخطيب)، فقد "شاعت حركة التصوف في كلا البلدين كرد فعل للفشل العام، وقوي نفوذ الفقهاء، وبالغ الملوك في الاحتفالات الدينية، وفي المقابل شاع الحشيش وشرب الخمر والرشوة وغير ذلك من الأمراض الاجتماعية".

فقد عرف المسلمون انكسارا وترديا، إذ عانوا من هزائم انعكست على نفسيتهم، وسادت رؤية تشاؤمية ناتجة عن التدهور والتفكك السياسيين والضعف العسكري. وقد نشأت العناصر الثلاث (ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون) في هذه الظروف وتأثرت بها كما أثرت فيها، الأمر الذي يفرض علينا أخذها بعين الاعتبار في محاولة فهم واستخلاص سمات هذه الشخصيات.

2) السياق الاقتصادي - الاجتماعي

تميزت الفترة كما قلنا بالتدهور السياسي الذي تمثل في الصراعات والحروب والفتن، إضافة إلى الانقلابات، مما انعكس سلبا على الاستقرار والأمن، حيث سادت الحروب والحصار والتخريب والهلع والخوف، والاستيلاء على أملاك الغير، والمصادرة مما أثر على الوضع الاقتصادي عامة، حيث تراجعت التجارة الصحراوية بسبب تحول طرقها نحو الشرق، وتقلص الرواج التجاري، وارتفعت الأسعار، وتكبدت الدول تمويل حروبها، فازداد الضغط الجبائي، وانهارت القدرة الشرائية للرعايا.

ورغم ذلك برزت نزعات مادية اقتصادية لدى البعض لاسيما النخبة،[1] حيث اهتموا بجمع الأموال، واقتناء الأراضي والدور، واستغلال مناصبهم في ذلك، مستفيدين من الإنعامات والهبات والإعفاءات الجبائية، فراكموا أموالا مما دفعهم إلى التفكير في ادخارها أو استثمارها في مناطق قد توفر ظروفا أكثر إيجابية من ناحية شروط الأمن والاستقرار. ويستخلص من نصوص[2] ممارسة الفساد السياسي، والظلم واحتجان الأموال، واتهام المشتغلين بالبلاطات أو خارجها كبيرهم وصغيرهم بذنوب لم يقترفوها، وإساءة الأعمال. فطغت الأخلاق الذميمة، وسادت الذاتية، والانتهازية، والمنفعة الشخصية، والتعالي، والكبر، والعجب بالذات، في حين تراجعت القيم الأخلاقية والدينية النبيلة، وهذا ما سيتضح لنا لاحقا.

---

[1] أحمد مختار العبادي، "النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين ابن الخطيب"، مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد 12، 1958 م، ص 145 – 146.

[2] النفح، ج 7، ص 169 - 170 .مثال ابن زمرك.

كما تميزت الفترة بانتشار الأوبئة خاصة وباء الطاعون الأسود(749 هـ / 1348م)[1] الذي أثر على البنية الديموغرافية للمنطقة، فأودى بحياة كثير من السكان بما فيهم العلماء واليد العاملة، وأثر على الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، بل وحتى السياسية والدينية والنفسية،[2] فراجع الكثير – خاصة النخبة - مواقفهم السابقة، لاسيما عندما حالت الظروف دون تحقيق طموحاتهم وإشباع رغباتهم، فبرز إقبالهم على التصوف كبديل لفشلهم السياسي والمادي، باحثين عن الطمأنينة والاستقرار بن الروحي والنفسي.

من جانب آخر نتج عن تراجع حكم المسلمين في الأندلس هجرة جماعية من طرف الأندلسيين إلى بلدان الشمال الإفريقي، وشملت هذه الهجرة شخصيات سياسية وعلمية وعائلات غنية ذات مكانة اجتماعية مرموقة، ومن غير شك فإن هؤلاء الأرستقراطيين النازحين ومن بينهم سياسيون محترفون، قد لعبوا دورا له أهميته في توجيه الأحداث سواء داخل القصور أو خارجها، «فقد حمل هؤلاء معهم ليس ذكاء الحضري ودهاءه وحسب، بل الخبرة والاحتراف السياسيين أيضا، الشيء الذي مكنهم من القيام بدور الموجه، ولو من وراء الستار..».[3]

3) السياق الثقافي

تميز بنوع من الازدواجية، حيث نعثر في آن واحد على ما يشير إلى التقهقر والتراجع العلميين خلال القرن الثامن الهجري، ومن ناحية أخرى نعثر على مقومات التجديد الذي يبقى دون شك فكر ابن خلدون ونظريته التاريخية والاجتماعية أبرز عناوينه.[4]

---

[1] انظر مصطفى نشاط، إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، منشورات كلية الآداب، وجدة، 2003 م، محمد الأمين البزاز، " الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14 م "، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، العدد 16، الرباط، 1991م.

[2] نفسه، ص 136، المناقب المرزوقية، من مقدمة المحققة، ص 49 – 50، فاغية السعدية، المرجع السابق، ص 148.

[3] الجابري محمد عابد، فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 5، يونيو 1992 م، ط 6، بيروت، أبريل 1994 م، ص 28.

[4] المناقب المرزوقية، ص 51 (من مقدمة المحققة) انظر علي الإدريسي، " جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون، " ضمن الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 140، ط 1، 1427 هـ / 2007 م، ص 11 – 12، 14 – 16.

ويؤكد الإشارة الأولى ابن خلدون[1] في تناوله العلوم العقلية وأصنافها: «ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضمحل ذلك منها إلا قليلا من رسومه.. ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة.. لتوفر عمرانهم واستحكام الحضارة فيهم»، ويضيف «وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها.. وأما العقليات فلا أثر ولا عين. وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلب العدو على عامتها إلا قليل بسيف البحر، وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها»[2].

نستنتج من كلام ابن خلدون المعاصر للفترة موضوع الدراسة أن المجال الفكري الثقافي عرف تراجعا بصفة عامة نتيجة التراجع الحضاري العمراني، الناتج عن الوضع السياسي المتردي – كما سجلنا - المتمثل في سيادة الحروب والتخريب وتفوق المسيحيين على المسلمين في الأندلس، في حين استمر المشرق الإسلامي نشطا مجددا مقاوما للركود.

وفيما يتعلق بالإشارة الثانية فإننا نجد المنوني[3] يعترف بتضاعف اقتباس الثقافة المغربية من مثيلتها الشرقية في العصر المريني، يتجلى ذلك في ازدهار المدارس العلمية والمراكز الثقافية، وبروز قامات فكرية تركت إنتاجا متميزا مازال آثاره إلى اليوم.

ونشير في هذا الصدد أن الكتابة والآداباعتبرتا وسيلتين يسيرتين للوصول إلى المناصب الحكومية المتعددة، وحتى الوصول إلى الوزارة، ولذلك كان عدد- ليس بالقليل- من الشعراء والكتاب من رجال الدولة المقدمين، كابن الأبار في القرن السابع الهجري، وابن الخطيب وابن خلدون وابن زمرك وابن مرزوق وغيرهم في القرن الثامن الهجري، طمحوا لتقلد المناصب السامية واكتساب الجاه، فأدوا دورا كبيرا في الأحداث السياسية المحيطة

---

[1] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج 3، ص 1011.

[2] نفسه، ص 927.

[3] محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط 2، 1416 هـ - 1996م، ص239 – 240، 250 – 261.انظر أيضا المناقب المرزوقية، ص 51 – 52. (المحققة).

بهم، وكانت لهذه الأحداث السياسية أحيانا أثرا في زج بعضهم في أتون الفتن والمؤامرات التي فعلت فعلها، وأدت بهم إلى النفي والاعتقال، وأحيانا الموت الأكيد.[1]

خلاصة القول تميز الوضع العام بالغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري بتراجع مس مختلف المجالات السياسية والاقتصادية الاجتماعية والثقافية، بالرغم من وجود إشارات عن بعض مظاهر الازدهار الثقافي، وتمثل حياة المفكرين الثلاثة– موضوع الدراسة - وحدها حياة نخبة العصر بالخصوص في المغرب الإسلامي بخيرها وشرها، ذلك أنها تمثل فئة اجتماعية مهمة، ولاشك في أن مؤلفاتهم أصدق مرآة للمجتمع الذي عاشوا فيه وذاقوا حلو الحياة فيه ومرها،[2] ذلك أن سير ذواتهم لم تعد خاصة بهم، بل هي قصة فترة نراها من خلال ذلك الشخص، فالفرد يصبح مدخلا لدراسة الجماعة، لأنه يعطي صورة معدل سلوك مجموعة اجتماعية في حقبة معينة.[3]

---

[1] الخطيب، رشا عبد الله، المرجع السابق، ص 35 انظر محمد بنحمادة، المرجع السابق، ص ص 95 – 112.

[2] المسند، من تقديم محمود بوعياد، ص 8.

[3] انظر خالد طحطح، الكتابة التاريخية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2012م، ص 94.

ثانيا، آليات لتفسير سلوك ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون،

1.آلية العجب بالذات:

01)التعريف اللغوي والاصطلاحي:

أ. التعريف اللغوي:

نؤكد أننا فضلنا استعمال العجب بالذات على النرجسية[1] لاعتبارين أساسيين:

الأول سبق مؤلفات التراث الإسلامي إلى توظيف هذا المفهوم وشرحه وتوضيحه كما سيتبين، قاصدين بذلك ربط الصلة بتراثنا الثقافي، ومؤكدين سبقه وصلاحيته لتفسير كثير من الظواهر النفسية.

والثاني يتجلى في «أن مفهوم النرجسية الذي استخدم أيضا كمرادف لمفهوم تقدير الذات قد حير المحللين النفسيين وأعيى فيمه منذ البداية حتى وقتنا الحاضر، كما كان محيرا لفرويد نفسه.»[2]

لذلك فالعجب حسب ابن منظور[3] هو الزهو، ورجل معجب: مزهو بما يكون منه، حسنا أو قبيحا. وقيل: المعجب الانسان المعجب بنفسه أو بالشيء، وقد أعجب فلان بنفسه، فهو معجب برأيه وبنفسه، والاسم العجب، بالضم. وقيل: العجب فضلة من

---

[1] انظر جان لابلانش، ج، ب، بونتاليس، المرجع السابق، ص ص512 – 516. المصطفى حدية، قضايا في علم النفس الاجتماعي، منشورات المجلة المغربية لعلم النفس، مطابع الرباط نت، الرباط، طبعة مزيدة ومنقحة، 2017م، ص ص؟؟ – 105. " أما فرويد فقد استخدم في بعض أبحاثه المبكرة مفهوم النرجسية لشرح ظواهر مختلفة مثل: حب الذات غير المحدود عند الأطفال.. ونظر إلى النرجسية على أنها شذوذ وانحراف من انحرافات الشخصية.. وقام بصياغة النرجسية الأولية على أنها شحنة انفعالية شهوانية للأنا.. واقترح فرويد أن حب الذات يمكن أن يكون قوة لحفظ أو صيانة الذات.. واعترف فرويد في 1914 م بصعوبة تناول النرجسية.. " انظر عبد الرقيب أحمد البحيري، الشخصية النرجسية دراسة في ضوء التحليل النفسي، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1987 م، ص 3 –6 (من المقدمة)

[2] البحيري، نفسه، ص 14.

[3] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، المجلد 1، دار صادر، بيروت، ط 1، ص 582.

الحمق، ويسير في نفس الاتجاه الجوهري[1] و الفيروز آبادي[2] و الزبيدي، [3] حيث يتفقون على أن العجب بالضم الزهو والكبر.

وفي المعجم الوسيط[4] رجل أعجب بنفسه ترفع واستكبر، والعجب روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، ويتطابق العجب بالذات مع الاعتداد بالنفس. ففعل اعتدَّ يعتدّ، اعْتَدِدْ - اعْتَدَّ، اعتدادًا، فهو مُعتدّ، والمفعول مُعتدٌّ – للمتعدّي، يَعْتَدُّ بِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِنَ اللاَّزِمِ: يَفْخَرُ، يَزْهو[5]، وتترجم الاعتداد بالذات وتقدير الذات بـ Estime de soi، أما حبّ الذات فتترجم لغويا بـ Amour de soi.

و يرادف العجب حسب المعجم الفلسفي[6] الزهو، والصلف (تكبر مع ثقل الروح)، والكبرياء، وحب المدح، والافتخار، والتيه والغرور، ولهذه الألفاظ معان متقاربة.

نستخلص أن الإعجاب بالنفس يرتبط بالكبر، [7] ويتجلى في كثرة الحديث عن النفس، واستصغار الآخرين، والتعالي على الناس.[8]

---

[1] أبو نصر إسماعيل الجوهري (ت 398 ه)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيبا ألف بائيا وفق أوائل الحروف، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكرياء جابر أحمد، دار الحديث، طبعة القاهرة، 1430 هـ - 2009 م، ص 734.

[2] مجد الدين محمد الفيروز آبادي (ت 817 هـ)، القاموس المحيط، نسخة منقحة وعليها تعليقات الشيخ أبو الوفاء نصر الهوريني المصري الشافعي (ت 1291 ه)، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي وزكرياء جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429 هـ - 2008 م، ص 1052.

[3] محمّد الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 3، مجموعة من المحققين، دار الهداية، ص 378.(نسخة إلكترونية)

[4] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 1425 هـ - 2004 م، ص 584.

[5] تعريف ومعنى الاعتداد بالنفس في معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي، المعجم: اللغة العربية المعاصر، المعجم: الغني المعجم: عربي عامة، المعجم: المعجم الوسيط

[6] جميل صليبا، المعجم الفلسفي: بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج 2، من ط ال ي، دار الكتاب اللبناني، 1982 م، ص 56.

[7] وقال صاحب تاج العروس: "الكِبْرُ: حالةٌ يتخصّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه أكبر من غيره"

[8] معلوم أن ديننا الحنيف ينهانا عن الاستعلاء، والتكبر ويعتبرهما من أمراض القلوب، والنبي ﷺ يقول «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» ويقول «ثلاثة مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه». كتاب الإحياء، الربع الثاني، الربع الأخير.

ب. التعريف الاصطلاحي

يرى ابن مسكويه[1] (320هـ - 421 هـ/ 932 - م 1030 م)أن حقيقة العجب هي «ظن كاذب بالنفس باستحقاق مرتبة غير مستحقة لها، وحقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها، فإن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه كذلك الافتخار، فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه، وكيف يملك ما هو معرض للآفات والزوال في كل ساعة، وفي كل لحظة، ولسنا على ثقة منه في شيء من الأوقات، مثال المفتخر بلسبه[2]»، يتبين من النص أن العجب ينشأ من حب النفس، وغياب استحضار الفرد للخالق في سلوكه، وعلاجه البحث عن عيوبها، ويرتبط ذلك بموضوع الزهو بها، وهو يدخل في موضوع الانفعالات.

وهذا يتساوق مع ما ذهب إليه ابن الجوزي[3] (ت597هـ) الذي رأى أن النفس تحب الرفعة والعلو على جنسها، فتؤثر الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهي. ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع خاصة الدافع إلى السلطة والتملك والسيطرة.

يتبين مما سبق أن العجب ينشأ من حب النفس، وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس، ويرتبط ذلك بموضوع الزهو بها، وهو يدخل في موضوع الانفعالات.

---

[1] أبو علي احمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، المطبعة الحسينية المصرية، ط 1، 1329 هـ ص 163، وأسمع الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) إلى قوله تعالى (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) وقال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء .)سورة الكهف، من آية 32 إلى 49.

[2] نفسه، ص 164 "فأكثر ما يدعيه إذا كان صادقا أن اباه كان فاضلا، فلو حضر ذلك الفاضل وقال إن الفضل الذي تدعيه لي أنا مستبد به دونك، فما الذي عندك مما ليس عند غيرك لأفحمه وأسكته.وقد روي عن الرسول ص أنه قال: لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم". أو ما هذا معناه.

[3] الطب الروحاني، مكتبة القدس، دمشق، 1929 م، ص 13، 23 – 25، انظر إبراهيم شوقي عبد الحميد وآخرون، ج 2، ص 904 - 906.(عرض عبد اللطيف خليفة)

و تناول ابن حزم (ت 456 هـ)[1] الأخلاق الفاسدة ومداواتها معتبرا أن مصدر الداء يتجلى في العجب والغرور، وعدد مصادر العجب. أما أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ)[2] فخصص فصولا للكبر والعجب وذمهما وبيان آفتهما، وسجل أن العجب انفعال نفسيّ يصيب الإنسانَ عندما يستعظم أمرًا أو يستطرفه أو ينكره لغرابته.وترتبط بالعجب الصِّفَاتُ الرَّذِيلَةُ الأخرى كالْغَضَبُ وَالشَّهْوَةُ وَالْحِقْدُ وَالْحَسَدُ، وأورد[3] حديثا نبويا اعتبر فيه الرسول(ص) إعجاب المرء بنفسه من المهلكات، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، «و قد سار في نفس الاتجاه السابق معتبرا العجب من بواعث الكبر.

ورأى أحد الباحثين[4] ارتباط حديث الغزالي عن الكبر والعجب بموضوع سيكولوجية الأخلاق، والعلاج النفسي السلوكي لهذه الآفات الخلقية.

إذن يعتبر العجب من الانحرافات النفسية الباطنة، ويسمها علماء الإسلام « باطن الإثم» أو أمراض القلوب.[5]

وفي نفس الاتجاه اعتبرت موسوعة مصطلحات التصوف[6] العجب آفة عظيمة،

---

[1] أبو محمد علي ابن حزم، الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل، تحقيق إيفا رياض، راجعه وقدم له وعلق عليه عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، د ت، ص 155 – 157، وهناك نسخة من تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1980 م (69 ص) انظر أيضا إبراهيم شوقي عبد الحميد وآخرون، المرجع السابق، ج 2، ص 615 (عرض جمعة سيد يوسف)

[2] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء، بقلم بدوي طبانة، ج 3، مكتبة ومطبعة «كرياطة فوترا طه سماراغ، (د ت) ولا (م ن)، ص326 – 366.

[3] نفسه، 359 ،360، 343 وقد وضح ذلك قائلا: «اعلم أن الكبر خلق باطن، وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهي ثمرة ونتيجة وينبغي أن تسمى تكبرا، ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير. وهذا الباطن له موجب واحد، وهو العجب الذي يتعلق بالمتكبر- فإذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشيء، من أسبابه استعظم نفسه وتكبر- فالعجب يورث الكبر الباطن، والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال».

[4] إبراهيم شوقي عبد الحميد وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، المرجع السابق، ص 709- 710.(تقديم شعبان جاب الله رضوان).

[5] محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، م س، ص 367 " أما الانحرافات الظاهرة فتضم أمراض العصاب والذهان والسلوك المضاد للمجتمع".

[6] رفيق العجم، المرجع السابق، ص 630، الغزالي، إحياء، ج 3، ص 334 – 335 (بيان حقيقة الكبر وآفته).

وحقيقته استعظام العمل الصالح، وهذا من قلة العقل ورعونة الطبع،[1] و تتجلى هذه الآفة أيضا في العجب بالمال، والعجب بالحسب والعشيرة والأصحاب وتتساوق مع الكبر والفخر،[2] الذي يبرز في رفع الإنسان نفسه فوق قدره.[3]

وفي هذا السياق لجأ المتصوفة إلى الإفراط في التواضع بهدف المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من هذه الآفة،[4] وقد وردت عدة آيات في القرآن وأحاديث نبوية تذم التكبر،[5] و تحبذ التواضع.[6]

---

[1] إبراهيم شوقي عبد الحميد وآخرون، نفسه، ج 3، ص 1401.

[2] رفيق العجم، نفسه، ص638، فالعالم يتفاخر ويقول: أنا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت وما فضلك ومن لقيت؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يجتهد في المناظرة أن يغلب ولا يغلب، ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الألفاظ، وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها، فيظهر فضله ونقصان أقرانه. انظر الإحياء، ج 3، ص 307 – 308.ابن عطاء الله السكندري (ت 709 ه)، تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، (د.ت).انظر علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 1094 (عرض أسامة سعد أبو سريع).

[3] نفسه، ص 566. «فالمرء لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال. وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي: فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار». «أما الضعة فهي وضع الإنسان نفسه مكانا يزري به، ويفضي إلى تضييع حقه».انظر إحياء علوم الدين، نفسه، «والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه.. ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه. وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره. فالعجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم بيان حقيقية العجب والإذلال وحدهما.». انظر سورة الكهف، (بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له).(بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له)، حذا ما لجأ إليه كل من ابن الخطيب وابن خلدون عندما تصوفا..

[4] موسوعة مصطلحات التصوف، ص 567.

[5] قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين) النحل، آية 23. وقال تعالى (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) الفرقان، آية 21: وقال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) غافر، آية 60 :و قال رسول الله "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر. ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان".. حديث أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.حديث أبي هريرة يقول الله تعالى: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم ولا أبالي ". أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له. الإحياء، ج 3، ص 327 – 329 (بيان ذم الكبر)

[6] نفسه.

نفس الأمر ذهبت إليه كتب الآداب السلطانية[1] التي اعتبرت العجب بالذات وصف رديء، يجلب الرذائل ويخفي المحاسن، ويشهر المساوئ، وحثت الملوك على التواضع وترك الكبر والإعجاب، لأنهما يورثان المقت، ويرتبط هذا بالقيم الأخلاقية.[2]

واعتبر فخر الدين الرازي[3](ت 606 هـ) أن العجب بالنفس حالة انفعالية، وربطه بموضوع الحيل العقلية، مشيرا أن العجب بالنفس كثيرا ما يكون وسيلة دفاعية ضد الشعور بالنقص.

وسجل ابن خلدون[4] أن «خلق الكبر والأنفة من الطبيعة الحيوانية. إذ يأنف زعيم العصبية من المساهمة والمشاركة له في الحكم، ويتسم بخلق التأله الذي في طباع البشر».

نستنتج اهتمام العلماء والفقهاء والمتصوفة بهذه الانحرافات، ليس لما تسببه من توتر وقلق، وما قد تفضي إليه من انحرافات ظاهرة وسلوك شاذ يضر بالفرد وبالمجتمع، بل لأنها من الذنوب التي يعاقب بها المسلم في الآخرة أيضا.[5]

يتضح أنه إذا كانت كتب علم النفس الحديث تتحدث عن نوع واحد من الكبر هو التكبر على الناس، فإن المصادر الإسلامية[6] تبين أن سلوك العجب المرتبط بالكبر يتعدى ذلك إلى العلاقة مع الله تعالى ورسوله، وذلك بنسيان الذنوب وإهمالها.

---

[1] عبد الرحمن الشيزري، النهج المسلوك في سياسة الملوك، مص س، ص 124. علي بن محمد الماوردي (ت 450 هـ)، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987 م، صص 202 – 207.

[2] ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص 266 – 268، 126.

[3] الطب الروحاني، ضبطه وقدم له سليمان سليم البواب، دار الحكمة، بيروت، دمشق، 1986 م، (ص 71، 72)، انظر علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 981 (عرض عبد اللطيف محمد خليفة)

[4] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج2، ص 531.

[5] محمد عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، م س، ص 367.

[6] نفسه، ص 334 – 335 (بيان حقيقة الكبر وآفته). انظر محمد عز الدين توفيق، نفسه. قال تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) سورة غافر، آية 60، وقال أيضا (فقالوا أنومن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون)، سورة المؤمنون، آية 47.

و تمت المقارنة بين العجب والتكبر بأن العجب لا يستدعي غير المعجب، بينما التكبر يحتم وجود الغير، إذ المتكبر يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرا.

و أشار البعض[1] إلى التيه واعتبره قريبا من العجب، والفرق بينهما «أن المعجب يكذب نفسه فيما يظن لها، أي يُصَدِّقُ نَفْسَه فيمَا يَظُنُّ بها وَهْماً، والتياه يتيه على غيره ولا يكذب نفسه، أي يُصَدِّقُها قَطْعا».[2]

أما الغرور vanite فهو قريب من التيه، والفرق بينه وبين العجب أن المعجب بنفسه يفرح بما يظنه بنفسه من الفضائل، ولا يبال برأي الآخرين فيه، على حين أن المغرور يتصف بحب الظهور وبالميل إلى إظهار ما عنده من الفضائل، حتى يكون إعجاب الناس به سبيلا إلى فرحه بنفسه.[3]

لذلك تم ذم الغرور وهو من مواضيع سيكولوجية الشخصية، وأن علاج الغرور يدخل في إطار العلاج النفسي السلوكي.[4]

نفترض أن كلا من ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون قد اتسموا بالعجب بالذات والاعتداد بها، وارتبط ذلك أيضا بالغرور والتيه و... وهذا ناتج أساسا عن مؤهلاتهم وقدراتهم الذاتية، سواء على المستوى العلمي أو الاجتماعي. ويتأثر العجب بالذات بعدة عوامل:

---

[1] ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 165. «إلا أن علاجه علاج المعجب بنفسه، وذلك بأن يعرف أن ما يتيه به لا مقدار له عند العقلاء، وأنهم لا يعتدون به لخساسة قدره ونزارة حظه من السعادة ولأنه متغير زائل غير موثوق ببقائه، ولأن المال والأثاث وسائر الأعراض قد توجد عند كل صنف من الناس الأرذال والأشراف والجهال. فأما الحكمة فليست توجد إلا عند الحكماء خاصة.»

[2] الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 3، ص 318 (نسخة إلكترونية)

[3] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 57. «وقد يكون العجب مصحوبا بحب السيطرة. والغرور بحب المديح، لأن المعجب بنفسه قد يعيش في عزلة تامة عن الناس، مكتفيا بشعوره الذاتي بتفوقه. أما المغرور فإنه وإن كان يحب المديح، إلا أنه لا يكتفي بحسن ثناء الناس عليه، بل يريد أن يبالغون في ذلك، وأن يتكرر ما يقولونه فيه أمام الناس، حتى يعترفوا جميعا بفضله».

[4] إبراهيم شوقي عبد الحميد وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، المرجع السابق، ص 709-710 (تقديم شعبان جاب الله رضوان).

02)أسباب العجب بالذات:

يجب على المؤرخ أثناء دراسة السير الذاتية الأخذ بعين الاعتبار العوامل الذاتية -سنتطرق إليها ضمن سمات العجب بالذات- والظروف الاجتماعية التي عاش فيها الشخص، باعتبار تأثيرها كعوامل أو سياقات خارجية في تكوين تلك الشخصية، ذلك أن الأخيرة بعيدا عن الموروث الجيني يمكن رؤيتها كسلسلة من تراكم سياقات الماضي التي استدمجتها، والمقاومة للتغيير - أو على الأقل فإن تغييرها أصعب من اكتسابها -، والتي تتفاعل مع الموقف الحالي.[1] فقد تتغير « الأزمنة»، وقد تبقى على حالها، ومع تغيرها وثباتها تتغير وتثبت توجهات الأفراد، فما يحدث في تواريخ حياة الأفراد يعد مرتبطا بشكل لا ينفصل بالبيئة الأوسع، والتي تعد نتاج الأزمنة.[2]

لذلك لابد على المستوى المنهجي من التمهيد بأرضية نتناول فيها العوامل المتنوعة التي أثرت في هذه الشخصيات وتأثرت بها كل على حدة، كما لابد من التذكير بأهمية السير الذاتية وكتب التراجم في استخلاص نسبيا المعطيات البيوغرافية المتعلقة بهذه الأهرامات الفكرية والقامات السياسية. وإذا كان عدد من المؤرخين المعاصرين الغربيين بالخصوص استحضروا العامل النفسي ووظفوه في أبحاثهم ودراساتهم عن الشخصيات التاريخية، وركزوا على خصوصيات مرحلة الطفولة المبكرة وطرق التربية خلالها، وعلى تأثيرات الأبوين في حياة الأفراد، وطبيعة الصدمات النفسية التي تعرضوا لها، وعلاقة نشأتهم بسلوكهم المستقبلي خلال مرحلة تحملهم المسؤوليات العامة في المجالين السياسي والعسكري والاجتماعي،[3] فإن أحد الباحثين[4] يرى أنه في البيئة العربية الإسلامية لا تقدم لنا هذه المصادر الغميسة (التراجم بالخصوص) معطيات عن طفولة المترجم لهم إلا نادرا وفي حدود معينة، إذ غالبا ما تبدأ في تناول مرحلة الدراسة، فتشير إلى الفقهاء أو المدرسين الذين تعاقب عليهم المترجم له، والمؤلفات والمواد التي أجيز فيها، «فالشخصية التي يجوز

---

[1] نفسه، ص 230.

[2] نفسه، ص 141.

[3] خالد طحطح، " السيرة النفسية: لوثر والإصلاح الديني "، م س، ص 58.

[4] عبد الفتاح كليطو، "الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون"، مجلة الجدل، العدد 5 – 6، 1987م، الرباط، ص 11.

التحدث عنها هي الشخصية العاقلة والمسؤولة شرعا. لا يذكر مثلا التعريف لابن خلدون من الطفولة إلا شيئا واحدا: حفظ القرءان لأن هذا الحفظ يؤهل الطفل للانتقال إلى مرحلة الرجولة، بفضل الاطلاع على كتاب الله يتأدب الطفل، أي يمر من حالة شبه حيوانية إلى حالة إنسانية».

أ. العوامل الاجتماعية:

تتمثل العوامل الاجتماعية أساسا في الأسرة التي تشكل العامل الجوهري والأساسي في نشأة الفرد، فالمعاملة الحسنة الطيبة المشجعة للأبوين، تؤدي إلى إحساس الطفل بذاته وبقدراته ومؤهلاته، وهي من أبرز الأسس في نمو تقديره لذاته. كما أن عمل الأسرة على إدماجه، والمساهمة في ربط علاقاته مع أقرانه ومع شيوخه. إضافة إلى التفوق في الدراسة، وانجاز مهمة صعبة بنجاح، ومدحه، كان يؤدي إلى العجب وارتفاع تقدير الذات، الذي يتحول في كثير من الأحيان بمساهمة تأثيرات أخرى إلى العجب بها.

كما أن الجو العائلي يعكس في نفس الصبي خواطر قد تلازمه إلى الأبد، وتنقش في مرآته الباطنية نقشا لازبا لا تمحوه الطوارئ مهما تكن قوتها، لكن للظروف والأحداث الطارئة نوعا من التأثير يجب أن لا نغفله إذا أردنا أن نستكمل ضروب العوامل التي تتواطأ على بناء شخصية الفرد[1].

➢ لسان الدين ابن الخطيب: 713هـ/ 1313م– 776هـ/ 1374م

أشارت كثير من المصادر[2] إلى سيرة ابن الخطيب، كما تناول عدة باحثين حياته وآثاره.[3] وسنركز على المحطات الهامة في حياته، اعتمادا على الإحاطة (الجزء 4) والكتيبة

---

[1] عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص 33.

[2] ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 4، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1397 هـ- 1977 م، نفاضة الجراب، ص ص. المقري، النفح، ج 7، ص 4-5.

[3] انظر أيضا عبد العزيز بن عبد الله، الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1403 هـ- 1983 م، عبد الله كنون، " لسان الدين ابن الخطيب، الكاتب الساحر"، مجلة البحث العلمي، العدد الثاني، السنة الأولى، ذو الحجة / ربيع الأول 1384 هـ- ماي / غشت 1964 م، ص ص 123 – 133، وهناك طبعة مستقلة لهذه الدراسة عبارة عن «فصلة »من مجلة البحث العلمي. المختار العبادي، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في المغرب والأندلس،

الكامنة. إضافة إلى نفاضة الجراب الذي يعد وثيقة تاريخية لأحداث عايشها ابن الخطيب، وكان يدلي بآرائه فيها فيعبر عن أفكاره وانفعالاته ويصور مشاعره. لذلك لا تخفى أهمية المذكرات في رسم خطوط شخصية الإنسان، وتحديد مميزاتها.[1] وقد انفرد هذا المصدر ببعض مراسلات لسان الدين الشخصية مع أصدقائه. انطلق فيها عن سجيته وتحرر من قيود الشكليات، فكشف عن جوانب أخرى من شخصيته، مع الإشارة أننا سنتناول أسباب كتابة سيرته فيما بعد.

لقد ولد أبو عبد الله الملقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين في لوشة، 25رجب713 هـ/1313م – وتوفي بفاس، 776هـ/1374م. ونشأ القرطبي الأصل ثم طليطليه ثم لوشيه، ثم غرناطيه في أسرة متميزة، فقد كان أبوه عالي الدرجة. فاستفاد من هذه الوضعية الاجتماعية.[2] و عرف بيته ببني وزير، ثم بلوشة ببني الخطيب، وكان جده سعيد من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل،[3] وتميز بالخلال الحميدة من فقه وحساب وأدب،[4] وذكاء الفطنة، واشتهر بقراءة القرآن. وقد ورث والد لسان الدين الترف والنعم،[5] والأملاك،[6] إذ انتقل إلى غرناطة واستخدم لملوك بني الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمد بغرناطة وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم

الإسكندرية، 1958 م. "حياة ابن الخطيب المغربية"، مجلة البينة، العدد 1، 1962 م، صص 54 – 65. محمد كمال شبانة، "المؤرخ الوزير لسان الدين ابن الخطيب"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، 1966م، صص 87 – 92. الفقيه محمد بن أبي بكر التطواني، ابن الخطيب من خلال كتبه، تطوان، 1954م. محمد عبد الله عنان، لسان الدين ابن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، القاهرة، 1968 م. الحسن السايح، منوعات ابن الخطيب، الرباط، 1978 م. محمد البركة وسعيد بنحمادة، لسان الدين ابن الخطيب، في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم ضمن السياسة السلطانية عند لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013 م.

[1] فاغية السعدية، المرجع السابق، ص 133 – 134.

[2] النفح، ج 7، ص5.

[3] الإحاطة، ج4، ص 439.

[4] نفسه، ص 440.

[5] نفسه، ص 441.

[6] نفسه، ص 440. أبو العباس أحمد المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج1، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1978 م، ص 186 – 187.

المشهور يحيى بن هذيل التجيبي[1](ت 753 هـ / 1355 م)، وأخذ عن أشياخه. فقد «ترك لولده علو الدرجة، وشهرة الخطة، والقبول، والعناية»[2].

وتتمثل العوامل الاجتماعية أساسا في الأسرة التي تشكل العامل الجوهري والأساسي في نشأة الفرد، فالمعاملة الحسنة الطيبة المشجعة للأبوين، تؤدي إلى إحساس الطفل بذاته وبقدراته ومؤهلاته، وهي من أبرز الأسس في نمو تقديره لذاته. كما أن عمل الأسرة على إدماجه، والمساهمة في ربط علاقاته مع أقرانه ومع شيوخه، إضافة إلى التفوق في الدراسة، وإنجاز مهمة صعبة بنجاح، كان يؤدي إلى العجب وارتفاع تقدير الذات، الذي يتحول في كثير من الأحيان بمساهمة تأثيرات أخرى إلى العجب بها.

كما أن الجو العائلي يعكس في نفس الصبي خواطر قد تلازمه إلى الأبد، وتنقش في مرآته الباطنية نقشا لازبا لا تمحوه الطوارئ مهما تكن قوتها، لكن للظروف والأحداث الطارئة نوعا من التأثير يجب أن لا نغفله إذا أردنا أن نستكمل ضروب العوامل التي تتواطأ على بناء شخصية الفرد.[3]

فلاشك أن الشخصيات مجال الدراسة تنتمي إلى أسر أرستقراطية ميسورة الحال، ذات إمكانات مادية وعلمية هامة، زيادة على الجاه الذي تمتعت به، فوفرت لأبنائها تكوينا على يد شيوخ مؤهلين، 4 فقد درس ابن الخطيب على يد أطر مبرزين، فقرأ القرآن على الصالح أبي عبد الله العواد، وعلى أبي الحسن القيجاطي،[5] وقرأ عليه العربية، وقرأ على أبي القاسم بن جزي،[6] ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخر البيري

---

[1] ابن الخطيب، أوصاف الناس في التواريخ والصلات تليها الزواجر والعظات، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1977 م، ص 85 – 86.

[2] نفسه، ص 442.

[3] عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص 33

[4] انظر مثلا التعريف، ص36-38، 41، 52.

[5] ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، القاهرة، 1966 م، ص ص 16 – 24، أوصاف الناس، ص 24، ت 2

[6] أوصاف الناس، ص 27.

شيخ النحويين لعهده، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب (ت 749 هـ/ 1349 م).[1] وأخذ الطب والتعليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكرياء يحي بن هذيل ولازمه[2]. ومن أشياخ لسان الدين أيضا محمد بن محمد بن الحاج البلفيقي[3](ت 773 هـ/ 1372 م) قاضي الجماعة، «نادرة الزمان، أحد رجال الكمال علما ومجدا وسؤددا وموروثا ومكتسبا.»[4]

يتضح تنوع التكوين الذي تلقاه ابن الخطيب، كما يتضح دور الأسرة في ذلك، مما أثر على المؤهلات والقدرات والاستعدادات الفطرية لابن الخطيب، حيث برز علما في النثر والشعر، بل وفي التاريخ والفلسفة والتصوف والطب والموسيقى والثقافة بصفة عامة، مما أدى بابن خلدون[5] إلى اعتباره آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، بينما وصفه ابن الأحمر[6] بشاعر الدنيا، «وكاتب الأرض إلى يوم العرض، ونفيس العدوتين بالاطلاع على العلوم العقلية والنقلية»، في حين أشار المقري[7] إلى كونه «العارف بأحوال الملوك، السريع الجواب، الحاضر الذهن، الحاد النادرة »، كما وصفه بأجمل الصفات، و«بالعلامة المتميز في الأندلس،[8] ورئيس أرباب السيوف والأقلام».[9] أما أبو الحسن بن الجياب فقال: «لا تمر مذاكرة في فن إلا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام على محاكاة الأفهام إلا وكلامه الابريز.. ».[10]

---

[1] نفسه، ص 57 – 58، ت 42، النفح، ج 7، ص 352 – 376.

[2] النفح، نفسه، من كلام الأمير أبي الوليد بن الأحمر.

[3] ابن الخطيب، ج 2، ص 102 – 106، النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 165، أوصاف الناس، ص 28 – 30

[4] وقد عرف به في الإحاطة، نفسه، ص 391، انظر شيوخ لسان الدين في النفح، ج 7، ص 116 – 119، 271-272.

[5] عبد الرحمان بن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1425 هـ - 2004م، ص 135.

[6] أزهار الرياض، نفسه، ص 191.

[7] النفح، ج 7، ص8.

[8] نفسه، ص 4.

[9] نفسه، 5.

[10] لسان الدين ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، الجزء الثاني، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 1401 هـ - 1981 م، ص 379.

واعتبره أبو جعفر بن خاتمة[1] (734 هـ / 1333 م – 770 هـ / 1369 م)«شمس أفق الأندلس.. وسر سياسة أملاكها، وترجمان بيانها، ولسان إحسانها، وطبيب مارستانها، والذي عليه عقد إدارتها، وبه قوام إمارتها، فلديه يحل المشكل، وإليه يلتجأ في الأمر المعضل.»

وقدمت الظهائر أو التشريعات الملوكية أوصافا أكيد كان لها انعكاس على شعور ابن الخطيب بالزهو والغرور والعجب بالذات، وهكذا وصفه ظهير من السلطان أبي عبد الله محمد الغني بالله (755 هـ / 1354 م –760 هـ / 1358 م خلع وأعيد ثانية 763 هـ / 1361 م. 792 هـ/ 1391 م)[2] بالصدر الأوحد، إضافة إلى الفقه والعلم والحسب والشهرة وبلاغة الخطابة، وكمال الفضل.[3]

و عند استقرار لسان الدين لديه أصدر له ظهيرا كريما يصفه فيه ب«كبير دولته وفخر مملكته ومشيد سلطانه.. فارس البراعة واليراعة، ومدير فلك السياسة، الفاضل الشمائل».[4]

كما وسمه السلطان أبو سالم (760 هـ / 1359م- 762 هـ / 1361 م) لما سمع له بالتجول في المغرب عام 761 هـ بالذكاء والتميز وبأصالة النسب والحسب[5]. ووصف كذلك لسان الدين بذي الوزارتين، وذي العمرين، وذي الميتتين، وذي القبرين.[6]

---

[1] المقري، أزهار الرياض، نفسه، ص 266، أوصاف الناس، ص 69 – 70، ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، ص 247 – 266.

[2] هو محمد بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن نصر (محمد الخامس) ثامن ملوك الدولة النصرية، انظر لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1400 هـ - 1980 م، ص 113 – 126، 129 – 131.وأشار ابن الخطيب إلى المرحلة الأولى من حكم هذا السلطان التي امتدت بين (755 هـ - 760 هـ / 1354 م – 1359 م) بينما الفترة الثنية امتدت بين 763 هـ - 1362 م إلى 792 هـ - 1391 م.

[3] الإحاطة، ج 4، ص 447 – 448.

[4] نفسه، ص 450.

[5] نفسه، ص 453.

[6] النفح، ج 7، ص 8 - 9.

أكيد أن هذا الإطراء والمدح ستكون له انعكاسات على نفسية ابن الخطيب، مما سيؤدي إلى تأكيد فرضيتنا التي أشرنا إليها سابقا والمتمثلة في الشعور بالعجب بالذات المرتبط بالغرور والكبر، وهذا ما سيتجلى من خلال نص أورده ابن خلدون[1] يتحدث فيه ابن الخطيب عن نفسه، مسجلا شهرته وإشعاعه وانتشار مناقبه وكفاءته في مختلف الأقطار وعند عدد من الملوك: «واعلموا أيضا على جهة النصيحة أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك، واعتقاده، وبره، والسؤال عنه، وذكره بالجميل، والإذن في زيارته، نجابة منكم، وسعة ذرع ودهاء، فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت، ثم أقشعت، وتركت الأزاهر تفوح، والمحاسن تلوح.. »

نستخلص من خلال الشهادات السابقة تعدد الجوانب الإيجابية التي وسم بها ابن الخطيب، منها الذكاء والفطنة، والثقة بالنفس، والكفاءة، والعلم، وامتلاك مهارات الكتابة والخطابة الناتجة أساسا عن التعليم الذي تلقاه، والشيوخ الذين درسوه وأجازوه. إذ أكد حسين مؤنس تميزه بثقافته الواسعة، وتعدد جوانب اهتماماته الفكرية، وكانت له معرفة بشؤون تدبير الإدارة، والاطلاع على مسائل السياسة والحكم، واهتم وبرع في الكتابة، فألف في مختلف المجالات، وقد جمع الكثير منها في مجلدات، [2] وهذا الأمر دفعه إلى زيادة تقديره لذاته، وأشعره بالفخر والاعتزاز والعجب بها.

ومن العوامل التي ساعدته على الكتابة أنه كان مبتلى بداء الأرق حسب المقري[3]. لا ينام من الليل إلا النزر اليسير جدا، وقد قال في كتابه « الوصول لحفظ الصحة في الفصول»: «العجب مني –مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملي ذلك – لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي، أو كما قال، ولذا يقال له ذو العمرين.. لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل.. ».

---

[1] رحلة ابن خلدون، مص س، ص 132.

[2] لسان الدين ابن الخطيب، روضة التعريف بالحب الشريف، عارضه بأصوله، وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 1970 م، ص 35، من مقدمة المحقق نقلا عن مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مج 11، 12 / 278، مدريد 1963 – 1964م.

[3] النفح، نفسه.

نفترض من خلال هذا النص أيضا علو همة ابن الخطيب وشعوره بتفرده وأحوذيته، يبرز ذلك من خلال إشارته إلى السبق في التأليف في مضمار الطب والحفاظ على الصحة، ونفيه أن يكون هناك من سبقه إلى التأليف في هذا الباب، الأمر الذي يؤكد افتراضنا السابق، ذلك أن الأفراد المعجبين بذواتهم – النرجسيين- أو المغرورين يمتلكون القدرة على العمل المستمر والمتسق، وقد يكونون ناجحين تماما من الناحية الاجتماعية، ومع ذلك فإن عملهم وإنتاجهم هما في خدمة الاستعراض وحب الظهور، إذ يطلب الفرد الانتباه والالتفات إليه والإعجاب به بصفة مستمرة من الآخرين.[1]

نستنتج أن ابن الخطيب اتسم بتفرد شخصيته وثقته بقدراته والاعتداد بها، كما اتسم بالثقافة الموسوعية وامتلاك مهارات متنوعة، الأمر الذي دفع كثير من الملوك والأمراء إلى مدحه وتحليته بحلى إيجابية عديدة، مما أكسبه عجبا وافتخارا وغرورا «إذ أن الشخص عندما يكون محبوبا فإن ذلك يزيد من مشاعر اعتبار الذات حسب فرويد».[2]

➢ <u>عبد الرحمان ابن خلدون(732هـ/1332م-808 هـ / 1406م.)</u>

يشكل التعريف مصدرا أساسيا في استخلاص المعطيات المتعلقة بهذا الهرم، إذ تحدث فيه ابن خلدون عن نفسه، محاولا تقديم صورة مثالية انتقائية، مخالفا بثقة وإعجاب الصورة التي قدمها عنه معاصروه المعارضين له، والتي تشوه سيرته وسلوكه وممارساته.

فعبد الرحمن ابن خلدون هو «ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي»، ولد بتونس في رمضان 732هـ/27من مايو 1332م، وتوفي 808 هـ / 1406م.[3] ضمن أسرة ذات نباهة وشهرة وطموح، اشتغلت بالسياسة والعلم، وتقلدت مهام عليا، سواء بالأندلس أو

---

[1] النجمي، المرجع السابق، ص 37، 47.

[2] نفسه، ص 9.

[3] رحلة ابن خلدون، ص 36.

إفريقية.[1] فقد استقرت بإشبيلية، ثم هاجرت إلى إفريقية أثناء نمو حركة الاسترداد بالأندلس،[2] وتقلدت أيضا فيها مسؤوليات سياسية جمة، مما يبرز قوة الأسرة وطموحها إلى السلطة.[3]

وأشار في التعريف[4] إلى توفير الأسرة شيوخا ماهرين له. فبعدما انطلق في تعلم العربية على يد والده وبعض الأساتذة، قرأ القرآن العظيم بقراءاته السبع، وكتبا جمة في الفقه وغيره على الأستاذ أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري، وقدم لنا معلومات عن أصله وشيوخه وتميزهم، مشيرا بإعجاب ومدح لهم، سواء في الشعر أو الحديث، بما في ذلك مناهجهم وطرقهم.. كما يشير إلى توافد جماعة من أهل العلم عند قدوم السلطان أبي الحسن سنة 748هـ على إفريقية، ومنهم كاتبه وصاحب علامته أبا محمد عبد المهيمن الحضرمي(676 هـ - 749 هـ)[5] الذي لازمه وأخذ عنه سماعا وإجازة كتبا كثيرة، إضافة إلى غيره من فطاحل الشيوخ،[6] خاصة شيخ العلوم العقلية أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي(توفي في حدود 756 هـ)،[7] معتبرا إياه وحيد زمانه في مجال العلوم العقلية[8]. وحلاه

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، الشركة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1395هـ - 1975 م.، ص 497.انظر، رحلة ابن خلدون، ص 3 – 4، من التقديم، ص 31 – 32.

[2] رحلة ابن خلدون، ص 27.

[3] نفسه، ص 34.

[4] التعريف، ص36-37.

[5] انظر ترجمته في أحمد ابن القاضي المكناسي (ت 1025 هـ)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م، ص 444 – 445. أبو الوليد بن الأحمر، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركي ومحمد بن تاويت التطواني، معهد مولاي الحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي، مطبعة المهدية، تطوان، 1964م ص 50. ابن الخطيب، أوصاف الناس، ص 99 – 100.

[6] التعريف، نفسه، ص 40.

[7] نفسه، ص 40-41، 65. المسند، ص 266. وتاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 7، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ - 2000 م، ص 513.

[8] نفسه، انظر الجابري، م س، ص 41. وقد حصلت بينه وبين والده صداقة كانت وسيلته إليه في القراءة عليه، فلزم مجلسه وأخذ عنه وانتح العلوم العقلية بالتعاليم، ثم المنطق وعلوم، ص 52. انظر مشيخته في الإحاطة، ج 1، ص 498.

بحلى تبدو علامات الإعجاب واضحة من خلالها، مثل «شيخ العلوم العقلية»،[1] «كانت بضاعته في الحديث وافرة»، أو «كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر»، [2]«وكان بحرا زاخرا في علوم اللسان».[3]

كما يشير إلى مصاحبته لأبي القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي، الذي يعترف بإفادته منه، ومن غيره من العلماء الذين وفدوا مع أبي الحسن.[4] وقد هلك الكثير منهم في الطاعون الجارف.[5]

ونتج عن هذا التكوين أن تميز ابن خلدون بثقافة عالية ومتنوعة، فقد كان عالما موسوعيا، وصفه ابن الخطيب[6] بتقدمه في فنون عقلية ونقلية، وبتعدد مزاياه، وكثرة حفظه، وصحة تصوره، كما مدحه وأسرته ووصفه بالفضائل الذاتية، والمزايا الحسية والمعنوية، ودرجة السبق في المكارم، والخصال الشريفة.[7] إضافة إلى "خاصية الزي، ورفعة القدر، وأصالة المجد، وعلو الهمة، وقوة الجأش، والطموح للمناصب السامية والرئاسية، بل ومغامرته بحثا عن الحظ".[8] قصد إشباع رغباته وتطلعاته.

كما حلاه ابن الخطيب أيضا -بأمر الأمير عبد الله محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج أثناء توديعه - لما هم بمغادرة الأندلس بالولاية والفقه والعلم والفضل.[9]

نستخلص أن صاحب المقدمة عاش في طفولته ظروفا تتشابه إلى حد ما بظروف ابن الخطيب، فقد تربى وسط أسرة ذات نفوذ وإقطاعات، تقلدت وظائف سياسية، ووفرت له ظروفا مناسبة لتلقي تعليم متميز، وأطر بارزة ومبرزة، فوسم بسمات تمثلت في الثقة

---

[1] نفسه، ص 40.

[2] نفسه.

[3] نفسه، ص 38.

[4] نفسه، ص42.

[5] نفسه، ص 38- 40.

[6] الإحاطة، نفسه، ص 278 – 279، ريحانة الكتاب، ج 2، ص 141-143.

[7] نفسه، ص 154.

[8] نفسه، ص 497.

[9] رحلة ابن خلدون، نفسه، ص 91.

بالنفس والاعتزاز والافتخار، إضافة إلى طموحه وتطلعاته، مما يسر له الاندماج في المجال السياسي بتقلده وظائف عليا داخل البلاطات- كما سنرى -، فيما بعد.

➢ ابن مرزوق الخطيب 711هـ- 1312 م /781 هـ-1379م

تقدم المناقب المرزوقية والمسند الصحيح الحسن معطيات هامة عن الحياة الشخصية لابن مرزوق، لاسيما وأن الفصول الأخيرة منهما تحولتا إلى سيرة ذاتية له.[1] وتمدنا بعض المصادر[2] الأخرى بنصوص تتعلق بتعليمه أيضا بأساتذته وبعض مراحل حياته.

و خصصت كل من المستعربة ماريا خيسوس بيغيرا[3] والباحثة سلوى الزاهري[4] بعض الصفحات تتعلق سواء بالمصادر أو بالدراسات التي اهتمت بهذه الشخصية، إضافة إلى تخصيصهما فصولا تتعلق بحياته وآثاره العلمية.[5] وقد اعتمد ابن مرزوق في مصادره على والده وعمه إضافة إلى بعض خواص والده.[6] لذلك فأهمية المصدرين تتجلى في أن ابن مرزوق يترجم لنفسه، الأمر الذي يسمح لنا بتقديم افتراضات أو تأويلات تتعلق بنفسيته وسماته، والظروف والأوضاع المتنوعة التي تأثر بها وأثر فيها.

فهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق من أهل تلمسان، والنسب العجيسي من زناتة.[7] فهو ينتمي إلى أسرة كبيرة عريقة المجد، أصلها من القيروان

---

[1] انظر المناقب المرزوقية، صص 298 – 311، المسند، صص 479 – 500.

[2] الإحاطة، ج 3، صص 104 –110، النفح، ج 7، ص 310 – 313، أبو عبد الله محمد ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1336هـ – 1908 م، ص 201 – 202، محمد بن محمد بن عمر قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، 1349 هـ ترجمة 918، وأحمد بابا التنبكتي (ت 1036 هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع حواشيه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ص 499.

[3] المسند، ص 20 – 22.(المحققة).

[4] المناقب المرزوقية، صص 56- 58.(المحققة).

[5] المسند، نفسه، المناقب المرزوقية، صص 55- 91.

[6] المناقب المرزوقية، ص 146.

[7] نفسه، ص 145.

تدعى المرازقة، واشتهرت بالعلم والتقوى، مما جعل منها ذات وضع اجتماعي وثقافي متميز في الغرب الإسلامي،[1] ولد سنة 711 هـ / 1312 م، وتوفيت أمه وهو في سن صغيرة جدا، فتكفلت أم خاله بتربيته،[2] وقد عرف بالخطيب، وبالجد، وبالرئيس، واتخذ من الألقاب المشرقية لقب شمس الدين.[3]

وأشار ابن مرزوق إلى سابق معرفة المولى أبي السعيد ومعرفة والده المولى أبي يوسف وأخيه أبي يعقوب بجده للأم - أي جد ابن مرزوق - أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي، وتبركهم به، واعتقادهم فيه، ومعرفتهم بكراماته وبقدره، وبأخيه الإمام أبي الحسن،[4] ويضيف ابن مرزوق: «ولولا ما يجر ذكره من التزكية للنفس، لأوردت نبذا من أحواله وكراماته.. ».[5] وتقلد بعض أفراد الأسرة مهام سفير في حضرة بني مرين بفاس،[6] وكان السلطان أبو الحسن قد كلف أباه ببعض المهام التي تتصل ببناء وإصلاح ضريح أبي مدين.[7]

وفرت الأسرة لابنها تعليما متميزا، انطلق من الأب، إذ عرف بغزارة علمه وبصلابة رأيه وبورعه.[8] ويقدم لنا برنامجه "عجالة المستوفز (المستوفى) المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز» أسماء الشيوخ الذين تكون على يدهم - حوالي مائة وخمسين شيخا-،[9] وأجازوه في مختلف العلوم، وبمختلف المدن التي استقر أو مر بها، إذ اصطحبه أبوه في سفره إلى الشرق لأداء فريضة الحج سنة 724 هـ.[10]

---

[1] المسند، ص 17 (من مقدمة المحققة)، الديباج المذهب، نفسه، ص 270، البستان، ص 202، نيل الابتهاج، ص500.

[2] المناقب المرزوقية، ص 292.

[3] نفسه، ص 59 (المحققة سلوى الزاهري).

[4] نفسه، ص 479.

[5] نفسه.

[6] نفسه.

[7] نفسه، ص 16، وفي سنة 733 هـ - 1331 م عينه خطيبا بجامع العباد الجديد بتلمسان.

[8] المناقب المرزوقية، نفسه، ص 64.

[9] ابن مرزوق، عجالة المستوفز (المستوفى)، مخطوط الخزانة الحسنية، 7579، ورقة 2، نقلا عن المناقب، المحققة سلوى الزاهري، ص 65، هامش 205.

[10] نفسه، ص 301، وقد ناقشت الباحثة سلوى الزاهري إشكالية رحلته الأولى وزمنها، انظر ص 64، الديباج المذهب، نفسه، ص 270.

فاستغل هذه الرحلة لجمع العلم، وللقاء العلماء، فشكلت له زادا ثقافيا، [1] وأثرت في تكوين شاب متعطش للعلم والمعرفة، حريص على تقوية مداركه، وتنويع مناهله وتكثير مصادر تنمية عقله وروحه، [2] ومن ألمع شيوخه وأساتذته أبو علي ناصر الدين المشذالي، (ت 731هـ)، [3] وأبو موسى عمران المشّذالي (توفي في نحو 745هـ)، [4] وأبو عبد الله محمد الزواوي [5]، ومحمد بن علي الأبلي [6] وأجازه من الأندلس أئمة كأبي عبد الله القيجاطي، وأبي محمد ابن جزي [7] وغيرهما، مما أهله لتطوير قدراته وكفاياته المعرفية، إذ على قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، [8] مما سيؤدي إلى استدعائه من طرف مختلف السلاطين لتقلد الخطابة والكتابة والوزارة وغيرها.

وأخبر الأب المولى أبا سعيدعثمان بن يعقوب بن عبد الحق (710 هـ / 1310 م- 731 هـ / 1331 م) باهتمام ابنه (ابن مرزوق) بالقراءة، «فوجه إليه من إحسانه ما ساعده على البسط في الحياة..». [9]

انطلاقا من هذا اللهف بالعلم، واعتبارا لأهمية تحصيله في مختلف المجالات المعرفية من فقه وتفسير وآداب ولغة وخطابة وتصوف، فقد شارك في مختلف الفنون بنجاح وتميز وسداد، فتتلمذ عليه لسان الدين ابن الخطيب الذي يشير إلى ذلك بفخر كبير، [10] ومحمد بن يوسف الصريحي بن زمرك (733 هـ / 1333 م- بعد 795 هـ / 1393م)، وأحمد بن قنفذ

---

[1] نفسه، ص 270 – 273، المسند، ص 22.(المحققة)

[2] المناقب المرزوقية، ص 65.(من مقدمة المحققة)

[3] المناقب المرزوقية، ص 301

[4] المسند، ص 131، 268، والمناقب، ص 302، انظر رابح بونار: " عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر "، مجلة الأصالة، العدد 19، 1949م، ص ص 304 – 316، نقلا عن سلوى الزاهري، ص 77 هامش 259.

[5] نفسه، ص 269، المناقب، ص 301، الديباج المذهب، تح أبو النور، نفسه، ص 273.

[6] نفسه، ص 266–267.

[7] ابن فرحون، نفسه، ج 1، ص 173.

[8] ابن خلدون، المقدمة، ج 3، ص 1120. فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد في تمييز الاصطلاحات واختلاف طرقهم فيها، وترسخ قوى الفرد وتستحكم في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم».

[9] المسند، نفسه.

[10] المسند، ص 48، (من مقدمة التحقيق)، ويعيد الفضل فيها لدراسات ابن مرزوق في الشرق،

القسنطيني (740 هـ/ 1339 م – 810 هـ/ 1407 م)، وأبو القاسم البرزلي (740 هـ/ 1339 م – 842 هـ/ 1438 م).[1] كما أخذ عنه جماعة من "الشخصيات" البارزة[2].

ويستخلص من بعض النصوص[3] تميزه بسمات أهمها اللطافة وطلاقة الوجه وحسن الحديث الممزوج بالدعابة والوقار والحياء، مما أكسبه قدرة فائقة على حسن التواصل والاستماع والألفة، فوصفه صاحب البستان وغيره[4] بمختلف الصفات الحسنة والطيبة، « وبالقدوة وبالكفاءة والورع والزهد والتصوف والولاية والصلاح، وبالمجتهد المتفق والمعترف بعلمه وصلاحه، الجامع بين المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة، كما تميز بالأبحاث الغريبة والفوائد الغزيرة في جميع الفنون الشرعية »، إضافة إلى المناقب العديدة. وأشار ابن مريم إلى القلصادي ورحلته واتصاله بابن مرزوق ومدحه[5] بخلال، منها العلم والعمل والشفقة والحلم وحب المساكين،[6] وأضاف القلصادي: « كان ﷺ من رجال الدنيا والاخرة، وأوقاته كلها معمورة بالطاعة ليلا ونهارا، من صلاة وقراءة قرآن، وتدريس علم وفتيا وتصليف».[7]

واعتبره البعض الآخر[8] حجة في المذهب المالكي، ونحوي، وعالم بالأصول، وأجمع الناس على فضله من المغرب إلى الديار المصرية، مركزين على إنصافه واعترافه بالحق،

---

[1] المناقب المرزوقية، نفسه، ص 78 – 79. المسند، نفسه، ص 45 – 47. انظر محمد الحبيب الهيلة، الإمام البرزلي، تونس، 1972 م، ص 179 – 180 نقلا عن المسند، ص 46. (من مقدمة بيغيرا، هامش 8).

[2] الديباج المذهب، ص 266–267. تفسير الثعالبي، ص 15، منهم الشيخ الثعالبي، والحافظ التنسي، والعلامة يحي المازوني.

[3] الإحاطة، ج 3، ص 104. النفح، ج 7، ص 309 - 310. المسند، ص 31 – 32. (من مقدمة المحققة)

[4] ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص 201 – 202. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مص س، ص 500.

[5] نفسه، ص 208. نيل الابتهاج، نفسه، ص 503 – 504.

[6] نفسه، ص 209. نيل الابتهاج، نفسه، ص 505.

[7] نيل الابتهاج، نفسه، ص 504.

[8] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ص 290.

وتفرده في ذلك في وقته حسب علمهم،[1] وأضاف الثعالبي[2] محليا إياه بسمات متنوعة ومتعددة أهمها العلم والولاية، والأخذ من كل فن بأوفر نصيب. وقد أعجب ابن عرفة به وبفكره وبديهته فرحب به، واشتغل بضيافته.[3]

نستنتج من النصوص السابقة أن ابن مرزوق اتسم بشخصية متميزة وموسوعية ومتنوعة الاهتمام على المستويين العلمي والفكري، بفعل الدور الإيجابي الذي لعبته أسرته التي وفرت له ظروفا مريحة، مادية ونفسية، لاسيما على مستوى التعليم، الأمر الذي شكل له إعجابا بذاته وافتخارا، مما يؤكد تشابهه مع ابن الخطيب وابن خلدون .

إن إحساس الشخصيات المذكورة بالكفاءة والثقة، والبروز في مجالات متعددة ومتنوعة منها العلوم العقلية والنقلية، إضافة إلى تفوقهم في مجال اللغة والآداب، وتميزهم بالحفظ والذكاء، نتج عنه احترامهم من شيوخهم ومختلف الفئات الاجتماعية، بل وجدوا القابلية لدى كثير من السلاطين الذين استقطبوهم ومدحوهم بواسطة الظهائر وغيرها، لعلو كعبهم في مجال الكتابة والمراسلة، وفي التدبير الإداري والسياسي، إضافة إلى مجموعة من التمثلات والأفكار الناتجة عن التربية التي تلقوها والمحيط الذي عاشوا فيه، مما يدفعنا إلى تأكيد افتراضنا بتكون إحساس بالتفوق والتفرد لديهم، أديا إلى تميزهم بسلوك سلبي وهو العجب بالذات والتكبر والتطلع الكبير، خاصة ابن الخطيب وابن خلدون. هذا السلوك المتمثل في الاستعلاء والكبر والازدراء واحتقار وتبخيس الآخرين كما سنرى، مؤكدين أن علم النفس يضم قدرا كبيرا من المكونات الاجتماعية. «**فالقيم والتفضيلات تنبثق – جزئيا – من كيفية التنشئة الاجتماعية للأفراد، وتتشكل من خلال التقليد، والاستجابات، وردود الأفعال حيال ما يثمنه ويسعى إليه الآخرون**»[4].

---

[1] عبد الرحمان الثعالبي المالكي، (ت 875 هـ)، تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج 1، حقق أصوله وعلق عليه وخرج أحاديثه الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ص 17. نيل الابتهاج، نفسه، ص 505.

[2] نفسه، ص 14.

[3] نيل الابتهاج، نفسه، ص 509.

[4] المرجع فيعلم النفس السياسي، ص 62.

وقد تبين أن أسر العناصر الثلاثة وضعت أمامهم خريطة الطريق الواجب إتباعها، كما حددت لهم طبيعة التكوين الثقافي الذي سيعينهم على القيام بما ينتظرهم من مسؤولية، وهي التكوين الأدبي والثقافي اللذين يؤهلهم للكتابة السلطانية، والمناصب السياسية.[1]

لكن يمكن أن يكون لهذا الانتماء الأسري « الطبقي » والإعجاب به أو التمثل الشديد له، نتائج سلبية محتملة أيضا، «كان يؤدي إلى انفصال تام عن جماعة الأغلبية، وحدوث صراعات، وسعايات، ودسائس»،[2] بفعل التنافس والحسد، وهذا ما سيتعرض له العناصر الثلاثة موضوع الدراسة.

ب. العوامل المهنية

حاولنا فصلها عن الجانب الاجتماعي لضرورة منهجية فقط، كي تبرز أهميتها، فلاشك أن العلاقات والتفاعلات الاجتماعية الناجحة للشخصيات، ولاسيما الوظائف السامية، خاصة التي تسند للفرد على الحداثة، قد تنمي إعجابه بالذات، وكبرا وازدراء بالآخرين أحيانا.. وكان لهذا العجب بالذات دوافع أو بواعث وهي ميول أو رغبات كامنة، وعبر الزمن تنشط هذه الرغبات وتشبع وتهدأ ثم تنشط مرة أخرى. لذلك فإن الدوافع لا تتضمن دائما أنماطا ثابتة من السلوك، بالإضافة إلى ذلك فإن دوافع الأفراد غالبا ما لا تكون ظاهرة للآخرين، بل إنه أحيانا لا تكون دوافع الأشخاص ظاهرة لهم أنفسهم.[3] ومن أهم هذه الدوافع الطموح والتطلع والرغبة في العيش الرغيد..

وبالفعل تولى كل من ابن الخطيب[4] وابن خلدون وابن مرزوق وظائف سياسية ودينية وهم في أوج الشباب-أو كما اصطلح عليها ابن الخطيب «على الحداثة»[5]- من كتابة سر وسفارة ووزارة وحجابة وخطابة، «وخاضوا كل مجالاتها، وتأثروا بها، كما أثروا فيها..

---

[1] روضة التعريف، ص 15 (من مقدمة المحقق)

[2] المرجع في علم النفس السياسي، م س، ص 155- 156.

[3] نفسه، ص 229.

[4] الإحاطة، ج 4، ص 443.

[5] نفسه، ج 3، ص 498.

وهي التي تلقي لنا الضوء على واقع حياتهم، وذلك لفهم سلوكهم »[1]، وورثوا عن أسرهم عبء النهوض بهذه المهام، إلا أنها يسرت لهم الاندماج بسرعة.[2]

لكننا نسجل أن هذه الوظائف ارتبطت بالقلم في عمومها وليس بالسيف، وهذا ما سيوضح لنا فيما بعد بعض الأسباب التي أدت إلى فشلهم سياسيا، وإصابتهم بالإحباط.

فقد أوصى أبو الحسن بن الجياب بتولية ابن الخطيب الكتابة من بعده،[3] لما رآه من قوة بديهته وذكائه. وتقدم لنا ريحانة الكتاب[4] معطيات هامة، انطلاقا من الوثائق التاريخية، ورسائل ابن الخطيب وكتبه التي تبرز الوظائف التي تقلدها، والأدوار التي قام بها، كما تناول ابن خلدون[5] نشأته، ونهايته، بشكل واضح ومفصل نسبيا. إذ أشار إلى سلوكه، ووظائفه السامية، ومشاركته لابن رضوان في الاستبداد لما هلك السلطان أبو الحجاج 755 هـ.كما أشار إلى سفارته إلى أبي عنان- من طرف سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد بن يوسف الغني بالله- وتلبية مطالبه، مما جعل أحد القضاة يسجل: «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا ذا.. »،[6] فنجاح هذه المهمة الصعبة، وغيرها كان يؤدي إلى ارتفاع تقدير الذات، الذي عندما يتساوق مع الاستعلاء والكبرياء، يتحول إلى سمة سلبية وهي العجب بالذات..[7]

---

[1] انظر روضة التعريف، ص 14.(من مقدمة المحقق).

[2] الإحاطة، ج 4، ص 442.

[3] أزهار الرياض، ج 1، ص 191.

[4] لسان ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، ج 1، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1400هـ / 1980م. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص و، من مقدمة المحققين. لقد مدح ابن الخطيب سلطان المغرب أبا عنان المريني بالقصيدة التي مطلعها:

خليفة الله ساعد القدر   علاك ما لاح في الدجى قمر

فما كان من السلطان أبي عنان إلا أن أجابه لجميع طلباته.

[5] المقري، النفح، ج 7، ص 26 – 27.

[6] نفسه.

[7] عبد العزيز بن عبد الله، المرجع السابق، ص 13 – 14. وفي هذا الصدد يقول ابن الخطيب:

رغمت أنوفهم بنجح وسائلي   وتقطعت أنفاسهم بحسبي

إن نجاح لسان الدين في أعماله خلال البداية، أثر في افتخاره وزهوه، فقد «اضطلع بالرياسة والسياسة اضطلاع أفذاذ الرجال.. »،[1] لذلك سجل بإعجاب «واستنابني السلطان بدارملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته وبيت ماله، وسجوف حرمه.. ولما هلك ضاعف ولده حظوتي، وأعلى مجلسي وقصر المشورة على نصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة. فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمربه. فسجل الاختصاص وعقد القلادة. ثم حمله أهل الشحناء من أهل أعوان ثورته على القبض علي، فكان ذلك».[2]

ومما ساهم في إعجابه بنفسه، أن قدم السلطان أبو سالم الشفاعة فيه للاستفادة من مؤهلاته ومهاراته الكتابية بالخصوص، وجعل خلاصه شرطا في الاتفاق، وعقد السلام مع الدولة النصرية..[3]

و لما عاد السلطان النصري محمد الغني بالله إلى ملكه في 763هـ، ألح على ابن الخطيب في العودة من المغرب، لتقلد منصب الوزارة[4]، فاستبد وانفرد بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه، وأقبل عليه الخاصة والعامة[5].و تعد هذه المرحلة أقوى مرحلة سياسية في حياة ابن الخطيب، إذ بلغ فيها منتهى النفوذ والجاه في مملكة بني الأحمر، وفي هذه المرحلة تلقب بذي الوزارتين.[6]

وبغوا بما نقموا على خلائقي حسدا فرموني بكل شنيع
أني أضام وفي يدي القلم الذي ما كان طبعه لهم بمطيع
ولي الخصائص ليس تأبى رتبة حسبي بعلي ذاك من تفريعي

[1] الإحاطة، نفسه، ص451.

[2] نفسه، ص443، النفح، ج 7، ص 5. "وقال غيره: تقلد الكتابة أيام أبي الحجاج، في أخريات دولته، بعد شيخه ابن الجياب، ولما توفي أبو الحجاج ازدادت منزلة ابن الخطيب عند ابنه أبي عبد الله إلى كانت عليه الدائرة". أزهار الرياض، ج 1، ص 191، 193، 207–208.

[3] النفح، نفسه، ص 6.

[4] الإحاطة، ج 4، ص 444،أزهار الرياض، ج 1، ص 193، 203. النفح، ج 7، ص 6 – 7، 29.

[5] نفسه، ص 443،النفح، نفسه، ص 29

[6] روضة التعريف، ص20–21.(من مقدمة المحقق)

وقد انعكست هذه الوظائف السياسية على وضعيته الاقتصادية، فقد كتب السلطان أبو سالم المريني (760 هـ / 1359م- 762 هـ / 1361 م) إلى سلطان غرناطة المغتصب، [1]رسالة يطلب منه فيها الإفراج عن ممتلكات ابن الخطيب، وأمواله المصادرة، وفيها يقول: «وإن كنتم تبخلون بماله، فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا، «وهذه لفتة كريمة تدل على اهتمام وتقدير سلاطين المغرب للعلم والعلماء.»[2]

وبالفعل أطلق وأحيط بالكرم والعناية، ووفر له الغنى والترف وإنعاما وخيرا كثيرا ودنيا عريضة، ومتعه بالجراية والإقطاع، [3]ويؤكد هذا ما أورده أيضا المقري[4]: «توفر على نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال، في تبحر الغلة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العدة، ووفور الكتب، إلى الآنية والفرش والماعون، والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية». ولما أهدى له كتابه رقم الحلل في نظم الدول، أمر بمضاعفة جرايته، حتى بلغت في كل شهر خمسمائة دينار.[5]ولما أنزل لسان الدين بفاس، استكثر من شراء الضياع، وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنان.[6]

و خصص له(أبو زيان) عبد الله المتوكل على الله محمد أمير المؤمنين (763هـ - 767 هـ) نسبة من مجبى مدينة سلا في كل شهر «300 دينار من الفضة العشرية»، عن مرتب له

---

[1]عرفت مملكة غرناطة في الفترة ما بين 760 / 1359م - 763هـ/ 1362 م عدة انقلابات:

✓الأول في28رمضان 760هـ / 21غشت1359م، نتج عنه خلع سلطان غرناطة محمد الخامس الغني بالله ونفيه إلى المغرب وتولية أخيه أبي الوليد اسماعيل الثاني.

✓أما الانقلاب الثاني فقد حدث في8شعبان 761هـ/ 25يونيو 1360م، وترتب عنه قتل السلطان أبي الوليد اسماعيل بن أبي الحجاج يوسف بن نصر من طرف أحد أبناء عمومته وزوج شقيقته أبي عبد الله محمد السادس "الغالب بالله" وتسميه المصادر الإسبانية المعاصرة بأبي سعيد البرميخو الذي تولى الحكم.

✓ أما الانقلاب الثالث فحدث في20جمادى الأول 763هـ/ 16مارس 1362م نتج عنه عودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغني بالله إلى عرشه بعد قتل السلطان البرميخو المغتصب.انظر اللمحة البدرية، ص 120 – 122، 126.

[2]ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ط.(من مقدمة المحققين).

[3]الإحاطة، نفسه، ص 444، 455، أزهار الرياض، نفسه، ص 193.

[4]نفسه، النفح، نفسه، ص 5.

[5]ابن الخطيب، أعمال الأعلام، نفسه.

[6]النفح، نفسه، ص31.

ولولده، وإعفائه من كل المغارم والوظائف عند الأبواب،[1] إضافة إلى تزويده بالأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواها، واستفادة خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان.. »،[2] ومكنه السلطان من تولية العمال بالمشارطات، فجمع له بها أموالا[3]، فأصبح كما ذكر «صنما يعبد، وجبلا إليه يستند.»[4]

وهذه الجملة في غاية الأهمية، الأمر الذي سيفسر لنا الإحباط الذي سيطال ابن الخطيب بالخصوص لاحقا، عندما ستتحول أموره سلبا بفعل فقدانه للجاه، وبالتالي تحوله إلى التصوف، وعودته إلى الله عز وجل.

وبالفعل ينطبق هذا الأمر أيضا على ابن خلدون إلى حد ما، فقد قضى فترة مهمة من حياته في تقلد الوظائف السياسية السامية،[5] محاكيا بذلك أفراد أسرته السابقين، الأمر الذي دفع أحد الباحثين[6] إلى التساؤل عن إدراج دور العوامل الوراثية في ذلك.

وتعلق ابن خلدون – مثله مثل لسان الدين ابن الخطيب - بالخدمة السلطانية على الحداثة،[7] فعين كاتبا للعلامة[8] بعد وفاة أمه وأبيه عقب الوباء الكبير 749 هـ /1348 – 1349م، وتغير مجرى حياته، فاشترك في التدبير السياسي والسير في الطريق نفسه، الذي سار فيه جداه الأول والثاني، وكثير من قدامى أسرته،[9] فاستأثرت من جراء ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه، في أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء 25 سنة من حياته(من 751 هـ إلى 776 هـ).[10]

---

[1] الإحاطة، نفسه، ص 456 - 457، نفاضة الجراب، ج 3، ص 67 - 68.(وكتب في 10 ربيع الآخر من عام 763 هـ).

[2] نفاضة، نفسه.

[3] أزهار الرياض، ج 1، ص 205.

[4] الإحاطة، نفسه.

[5] مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص 47.(من مقدمة وافي).

[6] نفسه، ص 47 - 49.

[7] نفسه، ص 498.

[8] رحلة ابن خلدون، ص 55. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تعريب عبد الله عنان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط 1، 2000م، ص 17.

[9] ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ص 47.(من مقدمة المحقق وافي).

[10] نفسه

ويقدم لنا كتاب التعريف معطيات مفصلة عن الوظائف التي أسندت له. فقد تولى في عهد ابن تافراكين أواخر 751 هـ / 1350 م وظيفة كتابة العلامة[1]. والتحق بالمجلس العلمي لأبي عنان سنة 755 هـ. ثم استعمله في كتابته[2] والتوقيع بين يديه على كره منه، إذ لم يكن قد عهد مثله لسلفه، الأمر الذي يبين عجب ابن خلدون بعائلته وماضيه وكفاياته وقدراته، وعكف على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب والأندلس الوافدين في غرض السفارة، واستفاد منهم حيث حصل على البغية[3].

وفي 760 هـ قلده السلطان أبو سالم كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطبته.[4] ويعترف بالدور الذي قام به في بعث مجموعة من الأمراء إلى بلادهم أثناء هذه المرحلة.[5] ثم تولى ابن خلدون آخر الدولة خطة المظالم،[6] فأداها بعدالة وكفاية[7]، مما أثار سعاية ابن مرزوق به، وبأمثاله من أهل الدولة، بسبب الغيرة والمنافسة.[8]

كما كلف بالسفارة إلى ملك قشتالة بإشبيلية 765 هـ، لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العدوة، ولقي حسن الثناء والتكريم،[9] لكن أعداءه وأهل السعايات أثاروا ابن الخطيب وحركوا غيرته ضد ابن خلدون،[10] الذي اضطر إلى العودة إلى بجاية حيث تولى الحجابة بها لأبي عبد الله على الاستبداد 766 هـ، واستقبل استقبالا يدل على قيمة ابن خلدون، وأهمية المنصب الذي سيسند إليه:[11] وفي هذا السياق يقول ابن خلدون معتدا ومعجبا بنفسه: «**فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، وأركب أهل دولته للقائي،**

---

[1] التعريف، ص 65.مقدمة ابن خلدون، نفسه.

[2] نفسه، ص 72.الإحاطة، ج 3، ص 497.

[3] نفسه، ص 67، الإحاطة، ج 3، ص 498.

[4] نفسه، ص 75، الإحاطة، نفسه، ص 499.

[5] نفسه، ص 94.

[6] نفسه، ص 80.

[7] مقدمة ابن خلدون، نفسه، ص 55.

[8] التعريف، ص 80

[9] نفسه، ص 85–86.

[10] نفسه، ص 91

[11] نفسه، ص 94.

وتهافت أهل البلد علي من كل أوب يمسحون أعطافي، ويقبلون يدي.. ثم وصلت إلى السلطان فحيى وفدي، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمني للخطابة بجامع القصبة، وأنا على ذلك عاكف بعد انصرافي من تدبير الملك غدوة – إلى تدريس العلم أثناء النهار، بجامع القصبة، لا أنفك عن ذلك.»[1]

نستنتج مساهمة الظروف في اعتداد ابن خلدون بنفسه والإعجاب بها، إذ حقق جزء من طموحه بتولي هذه المناصب، سواء السياسية أو الدينية، إلا أن هذه النجاحات أثارت حقد وسعايات منافسيه، الأمر الذي سبب له متاعب ومحن.

وبعد مقتل الأمير عبد الله، خرج ابن خلدون إلى السلطان أبي العباس، فأكرمه وحباه وأمكنه من بلده بجاية، وأجرى أحواله كلها على معهودها.[2] واستقدمه السلطان أبو حمو موسى (760 هـ - 791 هـ)صاحب تلمسان للحجابة والعلامة، وذلك 17 رجب 769 هـ[3] حيث كتب إليه بخطه يحبذه في المجيء ويعده بالتكريم الذي سيتلقاه والوظائف التي سيتولاها، مبرزا أن الحجابة خطة كبيرة تتلاءم مع كفاءته، وتسمح له ببقائه قريبا منه، لكي يطلع على خفاياه وأسراره ويستودعها، مبينا إيثاره له، ومحفزا إياه بالحصول على التنويه والتقدير والمنزلة الرفيعة، دون منافسة أو مزاحمة من أحد.[4]

فبعث ابن خلدون إليه أخاه نائبا عنه بعد سراحه، متفاديا الانعكاسات السلبية لهذه الوظائف، محاولا التركيز في هذه المرحلة على العلم والمطالعة والتدريس.[5]

وكان ابن خلدون قدم على فاس 774 هـ، حيث أظهر له الوزير محمد بن عثمان الرعاية، وكان الأمير عبد الرحمان يميل إلى ابن خلدون ويشاوره في أحواله، فتأثر الوزير ابن عثمان

---

[1] نفسه، ص 95.

[2] نفسه، ص 96. ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 516.

[3] نفسه، ص 98. روضة النسرين، ص 66-70.

[4] نفسه، ص 98 – 99.

[5] نفسه.

لذلك، وأغرى سلطانه فقبض عليه، لكنه أطلق من الغد،[1] ثم اتجه إلى الأندلس بقصد الاستقرار والانسحاب والانقباض سنة 776 هـ، ولقيه السلطان بالبر والكرامة.[2]

ونتج عن حفاوة استقبال إفريقية لابن خلدون تحرك غيرة ابن عرفة، وتأليبه السلطان ضده، فالتمس الأول الذهاب لأداء فريضة الحج، وكان ذلك 784 هـ. وفي القاهرة انثال عليه طلبة العلم، فجلس للتدريس بالجامع الأزهر.[3]

و إذا كان ابن الخطيب قد استفاد ماديا من وظائفه المتنوعة، فإن ابن خلدون لما رحل إلى الأندلس استقبل بحفاوة من طرف سلطانها ووزيره ابن الخطيب 764 هـ، حيث يقول: «وقد اهتز السلطان لقدومي، وهيأ لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي، تحفيا وبرا ومجازاة بالحسنى.. ثم نظمني في علية أهل مجلسه، واختصني بالنجي في خلوته، والمواكبة في ركوبه، والمؤاكلة والمطايبة والفكاهة في خلوات أنسه».[4]

واستفاد ابن خلدون أيضا من الجراية والإحسان الجزيل،[5] عندما انتقل من قلعة سلامة إلى إفريقية .كما استفاد من الريع عندما أقره الوزير عمر الفودودي على ما كان عليه ووفر إقطاعه، وزاد في جرايته.[6] و يعترف ابن خلدون أنه كان يسمو بطغيان الشباب إلى أرفع مما كان فيه، نظرا للصداقة التي كانت تجمعهما منذ أبي عنان.[7]

---

[1] نفسه، ص 185.

[2] نفسه، ص 186.

[3] التعريف، ص 201.

[4] نفسه، ص 84-85.

[5] التعريف، ص 189.

[6] التعريف، ص 80.

[7] نفسه، ص 67، ابن خلدون، المقدمة، نفسه، ص 80."إضافة إلى الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية الذي سطا بالبعض، وتغافل عن عمر بن عبد الله لمكان أبيه من ثغر بجاية.. وغض السلطان الطرف عن ابن خلدون إلى أن هجره الأخير، وغضب لتنكره له، فطلب الرحلة إلى بلده إفريقية."

اتضح تميز ابن خلدون بالاعتداد بنفسه، وتظهر بوادر ذلك الزهو واضحة في عدة مواضع من مؤلفاته. فقد أسهب وأطنب في ذكر مظاهر الترحيب التي قابله بها كثير من السلاطين، وما أغدقوا عليه من العطف والمنح، وما كتبوا إليه من رسائل الملق والمداهنة.[1]

ويعتبر وافي[2] أن ابن خلدون لم تكن الوظائف السياسية لتمثل مطامحه واستعداداته الحقيقية في شيء، وأنه قد اندفع إليها اندفاعا، واضطر لخوض غمارها اضطرارا، عن غير حب ولا رغبة. ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التي كانت تتاح له في أثناء هذه المرحلة، ليعاود القراءة والاطلاع وتلقي العلم وتدريسه، وليرضي بذلك أكبر رغبة كانت كامنة في نفسه، وهي رغبة عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية، وأفاد منها التراث الإنساني أكبر فائدة.[3]

ونحن نتحفظ من هذا الرأي، ذلك أن ابن خلدون نشأ في أسرة ارتبطت بالسياسة والقيادة والوظائف السامية، كما أن التكوين الذي تلقاه، وولوجه الوظائف على الحداثة، وارتقاءه اجتماعيا وسياسيا بسرعة كبيرة، يخالف رأي وافي.. فالتحول لم يتم إلا عندما فشل سياسيا، وانقلبت القوة إلى الخوف، وتحول الاستبداد إلى الهلع والضعف..

وأشار التيار المعارض لابن خلدون إلى سلوكه المنافي للأخلاق والالتزام والمبادئ والقيم، وهو ما يستخلص من رحلته[4] التي تقدم لنا عدة أمثلة توضح انتهازيته، والتآمر على من أحسنوا إليه. فكان - حسب أحد الباحثين[5] - «لا يضيره في سبيل الوصول إلى منافعه وغاياته الخاصة، أو في سبيل اتقاء ضرر متوقع، أن يسيء إلى من أحسنوا إليه، ويتآمر ضد من غمروه بفضلهم، ويتنكر لمن قدموا له المعروف. وظلت هذه النزعة رائدة في مغامراته السياسية، وعلاقاته بالملوك والأمراء والعظماء، منذ صلته بوظائف الدولة حتى مماته.»

---

[1] طه حسين، م س، ص 32- 33

[2] المقدمة، ج 1، ص 47.(من مقدمة المحقق وافي)

[3] نفسه.

[4] نفسه، ص73، 93- 94، 96، 121..

[5] المقدمة، نفسه، ص 52.(من مقدمة المحقق)

نستخلص تميز طبيعة ابن خلدون بالعجب والطموح والتطلع وحب البروز والغرور والكبرياء والافتقار إلى أي التزام حقيقي،[1] ويبدو أن هذه الإشارات هي التي دفعت طه حسين إلى قسوته عليه، إذ وصفه[2] بأقدح الصفات، واتهمه بوراثة شهوة الصراع والدس عن أسرته.[3] ويبدو تأثر هذا الأخير بالتيار القديم المعارض والمنافس الذي صب نار غضبه على ابن خلدون، وشوه صورته.

أما الجابري[4] فيدافع عن ابن خلدون في هذا الجانب، معتبرا أن الانتقال من تأييد هذا الحاكم إلى تأييد آخر، لم يكن ينظر إليه على أنه انتهازية، أو ما شابه ذلك من عبارات عصرنا، بل كان عملا عاديا تقبله الظروف، ولا ترفضه المفاهيم الأخلاقية السائدة.

لكننا نخالف هذا الرأي، ونعتقد أنه رغم تراجع القيم في هذه الفترة، فإن الحياة عامة في العصر الوسيط قد ارتبطت بالدين والشريعة، وبالتالي فإن هذا التلون، وهذه الحربائية، وهذه الانتهازية، وهذا التحول كان أمرا لا أخلاقيا، ولم يكن محبذا ولا مقبولا من طرف الرعايا، بالرغم من ضعف الوعي، ومحدودية إدراك سلبيات موقف ابن خلدون، نظرا لضعف التواصل، وضيق انتشار المعلومة التي غالبا ما تنحصر في فئة جد ضيقة.

خلاصة القول إن ابن خلدون تقلد الوظائف السياسية الهامة، بالرغم من تطلعه إلى ما هو أكبر، وقربه السلاطين، وأنعموا عليه بالنعم والخير الجزيل، فاستبد بالسلطة الممنوحة له، معتدا ومعجبا بذاته، إلا أن نجاحه وكفاءته قد حركت المنافسين والحاسدين، نظرا لطبيعة المجتمع السياسي المتميز بحبك المؤامرات ونشاط السعايات والحسد الشديد، فاكتوى بنارها، مما أدى إلى اعتزاله وزهده في السياسة، والذهاب إلى مصر حيث تولى التدريس والقضاء..

أما ابن مرزوق، فقد اشتهر بالخطابة لتفوقه في اللغة والبلاغة والفصاحة، وهناك نص واضح الدلالة على إعجابه بنفسه في هذا المجال، يقول: « وبعد، فإني لما ابتليت بهذا

---

[1] الشهب اللامعة، ص 26 – 27.(من مقدمة المحقق علي سامي النشار) انظر البحيري، الشخصية الترجسية، ص 50

[2] طه حسين، م س، ص 33.

[3] نفسه، ص 17.

[4] العصبية والدولة، ص 30.

الظهور الدنيوي الذي لم يصل إلى نوعه من عاصرني من صنفي من الرجال، حتى لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام، على ما هو معلوم عند أهل العصر من الخاص والعام.»[1]

نستنتج من هذا النص إحساس ابن مرزوق بتضخم ذاته وبعظمته وبأهميته، وهي من السمات المميزة للشخصية المعجبة بذاتها أو النرجسية المضطربة.

وتميزت مسيرته باحتضانه – كما سجلنا - من طرف المولى أبي الحسن المريني الذي قربه واشتمل عليه اشتمالا خلطه بنفسه،[2] «وجعله مفضي سره، وإمام جمعته، وخطيب منبره، وأمين رسالته».[3] وتمدنا المناقب المرزوقية بمعطيات هامة تتعلق بهذا المجال، فقد مارس مهمة الكتابة، وشارك في وقعة طريف 741 هـ / 1340 م[4]، كما تولى النظر في الشكاوى، [5] ولازم السلطان في عدة رحلات إلى مراكش، ثم تلمسان، وتونس، إلى أن اعتزم الحج، فمنع من ذلك، [6] وكلف بمحاولة إرجاع ولده أبي عنان إلى الطاعة.[7]

وتتجلى أيضا صورة المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها ابن مرزوق في حاشية الدولة المرينية خلال هذه السنين بوضوح في المسند، [8] فقد أرسل إلى قشتالة من طرف أبي الحسن لإبرام معاهدة الصلح وفداء أبي عمر تاشفين ابن أبي الحسن[9]، والتقى في غرناطة بعدد من الأصدقاء، منهم السلطان النصري أبا الحجاج يوسف ووزيره ابن الخطيب، كما وطد

---

[1] المناقب المرزوقية، ص 139 – 140، انظر هامش 2.

[2] الإحاطة، ج 3، ص 104. النفح، ج 7، ص 310

[3] الديباج المذهب، ج 2، ص273.

[4] المناقب المرزوقية، ص 305.

[5] نفسه.

[6] نفسه.

[7] نفسه، ص 307.

[8] المسند، ص 24.(من مقدمة المحققة).

[9] نفسه.

صداقة ذات شأن كبير مع أبي سالم السلطان المرتقب لفاس، والذي كان أبو عنان قد أبعده.[1]

وسجل ابن مرزوق محاولته القيام بالصلح في تلمسان بين بعض أفراد الأسرة الزيانية الحاكمة، إلا أن الشك في نواياه وجيوب المعارضة أدبا إلى إفشال المهمة، فاعتقل وسجن تسعة أشهر،[2] ثم استبدل عقاب الاعتقال بعد ذلك بالنفي الإجباري إلى الأندلس 752 هـ/ 1351 م.[3] وعينه السلطان النصري أبو الحجاج يوسف الأول (733 هـ/ 1332 م- 755 هـ/ 1354 م)خطيبا بغرناطة ومدرسا بالمدرسة البلاطية 753 هـ[4]. فقام بتدريس التصوف، وحضر دروسه ابن زمرك كما سبق أن أشرنا،[5] ورحل إلى مالقة، فخطب في جامعها، ثم قدم على فاس باستدعاء أبي عنان(749 هـ- 759 هـ) المرة بعد المرة، فأكرمه ولازم حضرته.[6]

وكلف ابن مرزوق بافتكاك طرابلس 755 هـ / 1354 م لما استولى النصارى عليها،[7] واتضح أن أبا عنان أمره بمحاولات[8] أو بمهام، نجح في بعضها، وفشل في أخرى، الأمر الذي دفع الحسدة إلى الطعن في نواياه،[9] ذلك أنه في عام 758 هـ/ 1357 م أرسله السلطان سفيرا إلى تونس ليخطب له إحدى بنات السلطان الحفصي، ولكن ابن مرزوق لم يوفق في مهمته، فاتهم في فاس بعدم إخلاصه في الطلب، بل وبالتضامن مع الرفض الحفصي،

---

[1] نفسه، ص 26.

[2] المناقب المرزوقية، نفسه، ص 307. تم ذلك أيام أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان(749 هـ - 753 هـ).

[3] المسند، نفسه، ص 27.

[4] الديباج المذهب، ج 2، ص 273.المسند، نفسه، ص 26.المناقب المرزوقية، نفسه.

[5] المسند، نفسه، ص 27.

[6] المناقب المرزوقية، ص 308.الديباج المذهب، نفسه، ص 273 – 274. الإحاطة، ج 3، ص 104 –105، النفح، ج 7، ص 310. ذلك أنه في أخريات عام أربعة وخمسين بعده 754 هـ "أطرف عنه حفن بره، في أسلوب طماح ودالة، وسبيل هوى وفعة، فاغتنم العبرة، وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل العزمة، وانصرف عزيز الرحلة، مغبوط المنقلب، في أوائل شعبان عام أربعة وخمسين وسبعمائة، فاستقربباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة، وبساط قرب، مشترك الجاه، مجدي التوسط، ناجع الشفاعة، والله يتولاه ويزيده من فضله."

[7] المناقب المرزوقية، نفسه.

[8] لعله يشير إلى قضية الخطبة حينما سفر إلى تونس ليخطب إحدى بنات السلطان أبي يحي الحفصي (ت 747 هـ/ 1346 م) للسلطان أبي عنان، انظر المسند، ص27، هامش 658، المناقب المرزوقية، ص 309.

[9] المناقب المرزوقية، نفسه.

فسجن أبو عنان ابن مرزوق للمرة الثانية في حياته، ولم يخرج من السجن إلا قبيل مصرع السلطان (28 ذو الحجة 759 هـ / 5 دجنبر 1358 م).[1]

وتولى السعيد الحكم 759 هـ - 760 هـ فبعث الوزير القائم بأمره أبو علي الحسن بن عمر الفودودي ابن مرزوق لمراكش لتوطيد أمرها[2]. فبلغه استيلاء أبي علي منصور بن سليمان بن منصور[3] على الملك، فقدم عليه، فحمله الخطابة، ثم انتقض أمره، وورد السلطان أبو سالم إبراهيم[4] حيث يستخلص من نصوص[5] قوة نفوذ ابن مرزوق خلال مرحلته، إذ كان صديقا له في منفاه، فكرس جهوده لمساعدته للاستيلاء على السلطة، ونتج عن ذلك مكافأته، فقربه واستبد بالأمر، فأصبح النافذ والآمر، حيث لا يتخذ أي قرار إلا بعد موافقته. كما كان يستقبل الوزراء والحجاب والوفود ويفاوضها، الأمر الذي يبرز استحواذه على مختلف السلط، وتحكمه في التوجهات السياسية، مما أثار حسد وحقد مناوئيه بسبب الغيرة والحسد، وهو ما سيتضح عند وفاة أبي سالم 762 هـ / 1361 م، حيث اعترف بأن أغلب الرعية كانت تظهر له عكس ما تبطنه، فتعرض لكثير من المحن، إذ سجن للمرة الثالثة، ثم خرج من سجنه ورحل إلى تونس التي وصلها في رمضان 765هـ، فاستقبله السلطان أبو إسحاق إبراهيم (751هـ / 1350م إلى عام 770هـ / 1368م) ووزيره ابن تفراجين بكل حفاوة، وعين خطيبا ومدرسا بمدرسة الشماعين،[6] أكثر من ذلك تبرز مكانة ابن مرزوق الرفيعة في تونس، فيما روي من أنه عقد زواج السلطان أبي إسحاق بابنة الوزير ابن تفراجين في عام 766 هـ / 1364 م.[7]

---

[1] نفسه، المسند، ص 27. (من مقدمة بيغيرا).

[2] المناقب، ص 310.

[3] نفسه، ابن أخ السلطان أبي الحسن ثار على السلطان أبي سعيد. ولما استولى السلطان أبو سالم المريني على الملك، سلم منصور بن سليمان إليه مع ولده، فقتلهما السلطان صبرا. انظر هامش 664.

[4] نفسه، المسند، نفسه.

[5] الديباج المذهب، نفسه، ص 274. الإحاطة، ج3، ص117 – 118. النفح، نفسه، ص323-324.

[6] المسند، ص 28. (من مقدمة المحققة).

[7] نفسه، ص 29.

ورحل ابن مرزوق إلى مصر 773هـ / 1372 م.. فأحسن إليه ملكها الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسين (ت 778هـ / 1377 م)،[1] إذ أكرمه وأجرى عليه وعلى أولاده ما قام به الحال، وقلده دروسا بمدارس[2] الشخنية والصرغتمشية والقمحية[3]، وأهله للمثول بين يديه، وتم ذلك في رمضان 775هـ.[4]

نستنتج أن ابن مرزوق مثله مثل ابن الخطيب وابن خلدون قد تقلد الوظائف السياسية الهامة، وقربه السلاطين، وصعد إلى القمة، فاستبد بالسلطة، ولعب أدوارا متميزة ومتنوعة، منها إصلاح ذات البين بين المتخاصمين من ذوي السلطان، أو بينهم وبين معارضيهم أو الخارجين عن سلطتهم، ومنها محاولة افتكاك الأسرى، أو المدن المحتلة من طرف النصارى، كما بعث سفيرا لعقد اتفاقيات، أو للخطبة، الأمر الذي أكسبه دنيا عريضة مثله مثل زميليه السابقين، فورث أملاكا عن جده لأمه بفاس، واستفاد بفضل وظائفه وقربه من السلاطين من الهدايا والإنعامات والجرايات والإعفاءات «**ولم يزل على ملكي يجى إلي مجباه بتلمسان حين كانت لبني عبد الوادي، ثم تمتعت بعد مسكنا واستغلالا حتى قضى عمر الباغي فيه قضاءه**».[5]

وهذا يؤكد ما أشرنا إليه سابقا من أن هذه العناصر الثلاثة ورثت جاها عن أسرها، مما وفر لها إمكانات مادية مهمة، ذلك أن الثروة في العصر الوسيط ارتبطت بمذهب آخر غير طبيعي هو الإمارة، التي شكلت أحد أسباب المعاش،[6] حيث تتحصل ويقتني صاحبها من خلال تملك الجاه باعتباره «**القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم**

---

[1] الملك الأشرف ناصر الدين شعبان ابن الأمجد حسين ابن الناصر محمد بن قلاوون، سلطان الدولة المملوكية الاثنين وعشرين، حكم مصر من سنة 1363 م إلى سنة 1377م.

[2] النفح، ج 7، ص327.

[3] المسند، نفسه، ص 30.

[4] النفح، نفسه.

[5] المسند، ص 480.

[6] المقدمة، ج 2، ص 843. محمد ياسر الهلالي، "علاقة المخزن المريني بـ" نخبه " السياسية – العسكرية والاقتصادية – من الإغناء إلى الإفقار"، ضمن النخب في تاريخ المغرب، ج 1، أعمال مهداة إلى الأستاذ العميد مصطفى الشابي، تنسيق أحمد إيشرخان، سلسلة شرفات 82، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ط 1، 2016 م، ص 159. الجابري، العصبية والدولة، ص 156.

من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم».[1] فالجاه اعتبر عاملا جوهريا وأساسيا في امتلاك المال، وأساسا في التفاوت الطبقي في العصر الوسيط.

كما تبين لنا تقلد هذه الشخصيات الوظائف السامية المرتبطة بالقلم في سن مبكر من حياتهم، بفضل مستواهم العلمي وخبرتهم دروب السياسة، فاستبدوا بالسلطة، وانفردوا بالحل والعقد في فترات، مما أفرز لديهم شعورا بالاعتزاز والزهو والافتخار والعجب بالذات، لاسيما وأنهم ورثوا عن بعض أفراد أسرهم هذا الطموح والتطلع، الأمر الذي يسر لهم النجاح في كثير من الأحيان، فتلقوا المدح والتحفيز والتنويه.

لذلك نؤكد تشابه ظروف الشخصيات الثلاث لأكثر من سبب، وهو ما أكدته الباحثة الإسبانية خيسوس بيغيرا[2]، ومحمود بوعياد.[3] فقد برز الثلاثة كمثال ثقافي وسياسي في المغرب العربي في القرن 8 هـ (14 م).[4] كما نؤيد نسبيا ما استخلصه أحد الباحثين[5] حين حدد الاعتبارات التي أهلت هذه العناصر النخبة لتبوؤ مواقع الحكم والمتمثلة في: الولاء للحاكم - باعتبار «أن النخبة كانت تخدم مشروع الحاكم أكثر من خدمتها لمشروع مجتمعي يستهدف الجماهير»-، والكفاءة العلمية والسياسية،[6] إضافة إلى الوراثة المتمثلة في الانتماء إلى أسرة أو نخبة سابقة خبر الحاكم ولاءها .[7] لكننا نسجل أن الولاء كان يتغير حسب ميزان القوى، وحسب المصلحة الشخصية التي سيجنيها الفرد من هذا الولاء، ولعل مثال ابن الخطيب وابن خلدون يوضح ذلك بكل جلاء.

---

[1] نفسه، ص 845. محمد ياسر الهلالي، نفسه.

[2] المسند، نفسه، ص30. النفح، نفسه، ص 333.

[3] نفسه، من تقديم محمود بوعياد، ص 7.

[4] المسند، ص31 (من مقدمة المحققة).

[5] محمد بنحمادة، المرجع السابق، ص 98.

[6] نفسه، ص 97.

[7] نفسه، ص 99.

03)سمات العجب بالذات:

يقصد بالسمات العناصر الشائعة التي يمكن ملاحظتها عن الشخصية، أي أوجه الاتساق في الأسلوب والتي يلاحظها الآخرون بالفعل[1]. كما تتعلق بصورة الفرد عن ذاته، ثقته بإمكاناته وصفاته وإحساسه بتفوقه على الآخرين لاسيما حين يتقربون له، إضافة إلى ذكائه ونباهته المرتبطة بقدراته العقلية، والتي تبرز منذ فترة الدراسة الأولى.

ويستخلص من مجموعة من التعريفات لمفهوم الذات وتقديرها أن مفهوم الذات تكوين معرفي مكتسب، منظم، وثابت نسبيا ومتداخل العناصر والمكونات حوله، يبنيه الفرد لاشعوريا ويعتبره محددا خاصا لذاته، كفرد يوجد في تفاعل مع باقي أعضاء المجتمع.[2]

ويرى كارل روجرز[3] أن بنيان الذات يتكون نتيجة للتفاعل مع البيئة، ونتيجة لنظرة الآخرين إلى هذا الشخص، وهو بنيان يتغير في ضوء عمليات التفاعل التي تتم في الوسط البيئي. كما أن قيم هذه الذات تمتص من الآخرين، لكن الشخص يتعامل معها كما لو أنها تمت عن طريق خبرته الذاتية (الشخصية)، وأن السلوك الذي يسلكه الفرد ينطلق من نظرة الشخص لذاته إن كان مرغوبا أو مكروها، يتفق مع بنيات الذات.[4]

وقد اتسمت الشخصيات بسمات تجلت أساسا في:

أ. الدافع إلى الاستعلاء والسيطرة:

إن سلوك الإنسان – وسلوك الحيوان أيضا – لا يمكن أن يفهم إلا في ضوء دوافعه سواء كانت بيولوجية أو نفسية أو روحية. ومهما تعقد السلوك البشري فإنه يعود إلى

---

[1] المرجع في علم النفس السياسي، ص 227، انظر ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، مص س، ضمن علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 615.(عرض جمعة سيد يوسف)

[2] المصطفى حدية، المرجع السابق، ص 91.

[3] عالم نفس أمريكي ولد 1902 م وتوفي 1987 م، اعتقد روجرز أن الدافع الأساسي لأفعال البشر هو الرغبة في تحقيق الذات.

[4] نفسه، ص 94.

جملة من الدوافع مجتمعة أو مفترقة. والدافع هو الحاجة التي تبعث على النية، التي هي جزء من السلوك أو هي بداية السلوك. والدافع هو الحاجة التي أثارت تلك النية ودفعت إلى التفكير في ذلك العمل والاتجاه إلى فعله.[1]

والدوافع من الخصائص النفسية المشتركة بين الناس، وإنما يختلفون في طرق إشباعها، وكيفية ترتيبها ودرجة إثارتها. ومبحث الدوافع متصل بكل مباحث علم النفس العام ومناهجه ومدارسه.[2]

فالدافع مفهوم فرضي يدل على حالة الإثارة الملحة الناتجة عن وجود نقص فسيولوجي أو نفسي (حاجة تدفع الكائن إلى النشاط وبذل الجهد حتى يسد النقص)(يشبع الحاجة) فينخفض التوتر ويعود الاتزان الداخلي. والدوافع ليست شيئا ماديا ظاهرا، بل هي إحساس داخلي يوجه السلوك الداخلي والخارجي للكائن الحي.[3] ويمكن أن تؤثر الدافعية بشكل إيجابي فتؤدي إلى أداء سوي، وإما أن تؤثر بشكل سلبي فتؤدي إلى أداء منحرف أو شاذ. ونؤكد أن لكل دافع عتبة تختلف من شخص إلى آخر، يتحول معها من عامل إيجابي في السلوك إلى عامل سلبي. والدوافع نوعان: دوافع فطرية (بيولوجية) ودوافع مكتسبة (متعلمة).[4]

وقد ذكر أغلب علماء النفس غريزة السيطرة كدافع من أهم الدوافع الإنسانية. وأضافوا أنها تظهر إذا وجد الإنسان نفسه في موقف يشعر بالقوة، لأن العلاقة بين فردين تأخذ شكل السيادة من جانب، والإذعان من جانب آخر.[5]

---

[1] محمد عز الدين توفيق، المرجع السابق، ص 493.

[2] نفسه، ص 493 – 494.

[3] نفسه، ص 494.

[4] نفسه، ص 495- 496.

[5] عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، الناشر مكتبة وهبة، بغداد، ط 1، 1963 م، ص189، نقلا عن د. علجارد، مختارات من علم النفس، ص 111.

ويتمثل هذا الميل عند الغزالي- كما رأينا سابقا - في مظاهر عدة: مثل الميل إلى الرئاسة، وحب الجاه، والغلبة، والعجب، والكبر، وحب المدح، والرياء.[1] والملاحظ أن بعض ما ذكره الغزالي من ميول الاستعلاء والسيطرة يمكن أن يدخل تحت عنوان الانفعالات والعواطف لتميز العنصر الوجداني فيها، كما في حالة الكبر الذي يوجد عند الإنسان اعتدادا وهزة وفرحا وركونا إلى ما اعتقده.[2]

ومن خلال ما سبق نفترض وضوح هذا الميل لدى العناصر الثلاثة. فقد استبدوا بالسلطة ومارسوها بسلبياتها وإيجابياتها. - كما سجلنا في فقرة العوامل المهنية - محاولين في الواقع إشباع رغباتهم، ويتضح هذا الميل إلى الاستعلاء في:

ب.كتابة السيرة الذاتية والحديث عن النسب والافتخار به:

يبدو من خلال المصادر التي ترجمت للعناصر موضوع الدراسة، أن الشخصيات الثلاث كانت تعد أن حياتها تستحق التسجيل والتدوين، هدفهم من ذلك التفاخر والمباهاة، وتقليد ومنافسة من سبقهم إلى تدوين سيرهم، إضافة إلى إبراز نسبهم والاعتداد به، مما يؤدي إلى التحول من التفاخر إلى الاستطالة.

ويرتبط هذا بالتكبر الذي هو رفع النفس فوق قدرها كما رأينا.[3] وينجم عنه الإعجاب بالنفس.

وقد عبر ابن الخطيب عن الأسباب التي دفعته إلى تناول ترجمته بالإحاطة، والتي تدل على العجب بالذات، والرغبة في إبراز ذلك، ومجاراة سابقيه فيما سجلوه، حيث «تخلدت مآثرهم وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم». لذلك أراد ابن الخطيب منافستهم في اقتحام هذا المجال بتناول سيرته إلى جانب من أرخ لهم في كتاب واحد. «فأجريت نفسي

---

[1] نفسه. انظر الإحياء، ج 3، ص307 - 308.

[2] نفسه.

[3] موسوعة مصطلحات التصوف، ص 197.

مجراهم في التعريف، وحذوت بها حذوهم، في باب النسب والتصريف بقصر التشريف.»[1]

وبالإضافة إلى ترجمته لنفسه بالإحاطة[2] والكتيبة الكامنة، ونفاضة الجراب كما سجلنا سابقا، نجده في ريحانة الكتاب يصف نفسه: «سلمان انتسابي، وبالمعارف الأدبية اكتسابي، وإلى العلوم منذ نشأت ارتياحي، وفي حلبة أرباب النظر مغداي ومرامي.. إلى أن اشتملت على الدولة النصرية اشتمالا..».[3] أكثر من ذلك تجلى هذا العجب في إشارة ابن الخطيب إلى اشتهاره بالانقباض عن الخدمة، والتيه على السلطان والدولة، والتكبر على أعلى رتب الخدمة.[4]

وألف ابن الخطيب للسلطان أبي فارس عبد العزيز (767 هـ-774 هـ) حين انحيازه إليه «المباخر الطيبية في المباخر الخطيبية» يذكر فيها نباهة سلفه وما لهم من المجد، وقصد الرد على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة، القادحين في فخر سلفه. وقد عاتب القاضي النباهي (ت بعد 792 هـ) لسان الدين بسبب الإقبال على الدنيا، والإعجاب بنسبه، وافتخاره، واحتقار الآخرين، ووصفهم بأقدح الصفات، مذكرا إياه بأحاديث الرسول ص وبعض الآيات.[5] لكن ابن الخطيب لم يعر ذلك اهتماما بل ازدرى بالحسن النباهي، فألف للسلطان كتاب «خلع الرسن في التعريف بأحوال ابن الحسن»، قصد منه ازدراء واحتقار القاضي النباهي، خاصة على مستوى النسب.[6]

نستخلص إعجاب ابن الخطيب بسيرته، وافتخاره بسلفه، مزدريا ومحتقرا بعناصر عارضت توجهه، مبتعدا في ذلك عن الشريعة الإسلامية، والأخلاق الفاضلة.

---

[1] الإحاطة، ج 4، ص 438.

[2] انظر مثلا المقري، النفح، ج 7، ص 4 – 8.

[3] ريحانة الكتاب، ج 2، ص 422.

[4] ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 261. انظر محمد البركة وسعيد بنحمادة، المرجع السابق، ص 52.

[5] النفح، نفسه، ص 49 – 59.

[6] نفسه، ص 108.

أما ابن خلدون فيتجلى افتخاره وإعجابه بذاته وبأجداده في التعريف[1]. فقد سرد تاريخ عائلته وأسلافه بنوع من الاعتزاز، [2] مستشهدا بروايات مؤرخين بارزين هما ابن حزم وابن حيان، [3] مبينا تقلد أفراد من أسرته زمن بني عباد الوزارة ورتب سامية في الدولة، واستشهاد بعضهم في معركة الزلاقة[4]. كما حصلوا على امتيازات وإقطاعات في العهد الموحدي وخاصة الحفصي[5]، وصاهروا العزفيين واختلطوا بهم لما نزلوا سبتة[6].وأشار بنوع من الافتخار والإعجاب إلى تعرض جده أبي بكر محمدا إلى الاعتقال لما غلب الدعي ابن أبي عمارة[7] على الحفصيين بتونس، وقتله خنقا في محبسه.

وافترض طه حسين[8] أن ابن خلدون لم يكتب ترجمته إلا حبا في التحدث عن نفسه، ورغبته في الظهور، [9] ذلك أن وجهة نظر هذه تعمل في الخفاء، وتظهر بمجرد أن ابن خلدون يقوم بالدفاع عن نفسه.

وهذا ما سبق أن أكده بعض الباحثين الآخرين[10] مشيرين إلى تميز ابن خلدون أيضا بتقدير الذات، والاعتداد بنفسه، والإعجاب بها، وهذا ناتج أساسا عن مؤهلاته، وقدراته الذاتية، سواء على المستوى العلمي أو الاجتماعي.[11]

---

[1] رحلة ابن خلدون، ص 38-40. الإحاطة، ج 3، ص 497.

[2] نفسه، ص 27 – 28.

[3] نفسه، ص 27 – 31.انظر علي أومليل، الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون، الدار البيضاء، ط 2، 1404هـ – 1984 م، ص 77.

[4] نفسه، ص 31 – 32.

[5] نفسه، ص 34

[6] نفسه.

[7] نفسه.

[8] طه حسين، م س، ص 31– 33.

[9] الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون، ص 8.

[10] الجابري، العصبية والدولة، ص 156. انظر أيضا علي أومليل، م س، ص 77.

[11] «فقد أسهب وأطنب في ذكر مظاهر الترحيب التي قابله بها كثير من السلاطين، وما أغدقوا عليه من العطف والمنح، وما كتبوا إليه من رسائل الملق والمداهنة..»

واعتبر لاكوست[1] أن سرد سيرة حياة ابن خلدون إنما هو «عرض بليغ وفريد لفيلم جد طويل: فيلم يسجل تقلبات التاريخ المغربي في غضون قرون عديدة. وهو أيضا مراقبة مصير شخصية عجيبة. إن أهمية هذا الأثر لشاملة. ولكن لا يمكن فصلها عن الرجل الذي ابتدعها، ولا عن الأحداث التي عاشها».

فقد بدا ابن خلدون خلال سنوات عديدة، كأنه يحاور نفسه حول أسباب الأحداث العميقة، [2] فقد ذهب في العودة لذاته، إلى أبعد من التحليل الحميم لمرارة ذكرى كبواته، فهو يريد الفهم، من خلال البحث في دمج تجربته الشخصية بتجربة عامة أكثر اتساعا: «فالعزم على كتابة التاريخ إنما هو حجز الإنسان مصيره بالبعد السياسي، والوعي بأن يكون موضوعا فعالا..» [3]

وفي هذا الصدد اعتبر فرانسوا ديشاتلييه(1734-1788م) François Jean de Chastellux [4] «أن الرغبة في كتابة التاريخ تظهر عندما يضع الإنسان من خلال علاقته بالآخرين، شهادته على تاريخيته الخاصة، والتحاور الذاتي حول ما يشكل أمام عينيه الانتساب إلى جماعة متقلبة المصير».

وهذا يتساوق مع إشارة الجابري[5] إلى موضوعية ابن خلدون في سيرته، لتركيزه على الوقائع الخارجية من حياته، (نشاطه السياسي والعلمي) واعترافه بكثير من الأخطاء التي ارتكبها في حياته السياسية، اعترافا صريحا أو ضمنيا.

لكنه [6] يسجل بأن الباحث الذي يعنى بتتبع الأطوار النفسية والعقلية التي عرفها صاحب المقدمة يفتقد في التعريف عنصرا هاما يتمثل في تحليل المواقف الدقيقة والأزمات النفسية والعقلية التي عاشها الرجل، والتي قد تكون ذات أثر حاسم في توجيه هذه

---

[1] إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، ط 1، 1974 م، ص 41.

[2] نفسه، ص 73، وخاصة منذ ما وجب عليه أن يرفض حكومة بجاية، ويرفض الحلقات المتتابعة من مصيره.

[3] نفسه، ص 72-73.(ف.شاتليه).

[4] مولد التاريخ، منشورات مينوي، نقلا عن لاكوست، نفسه.

[5] العصبية والدولة، ص 37.

[6] نفسه.

الوجهة أو تلك سياسيا أو فكريا. وإذا كان هذا الأمر صحيحا فإنه بالمقابل تمدنا الرحلة بمعطيات هامة خاضعة للتأويل إذا ما وظفنا المنهج النفسي.

ويبدو أن ابن خلدون كتب التعريف للدفاع عن النفس ضد معارضيه، رغم أنه لا يذكر بتفصيل وجهة نظر خصومه، إلا أن وجهة نظر هذه تعمل في الخفاء، خصوصا ونحن نعلم من مصادر أخرى، أن الصورة التي رسمها خصومه تختلف عن الصورة التي رسمها هو لنفسه.[1] وإذا كان كليطو[2] يرفض هذه الفرضية أو الدافع لكتابة التعريف، فنحن نعتقد انطلاقا من المقاربة النفسانية أن هذا الأمر هو الصحيح. ونؤيده في الفرضية الثالثة المتعلقة برغبة ابن خلدون في تقديم شهادة عن الأحداث التي عايشها وشارك فيها، لذلك فإن «الأنا» الذي نجده في التعريف هو «الأنا» التاريخي، المشارك مع آخرين في أحداث تاريخية معينة.

قصارى القول إن كتاب التعريف هدف من خلاله ابن خلدون تدوين سيرته الذاتية وإثبات كفاءته وأهليته العلميتين، معتزا ومفتخرا بأسلافه وبالمؤرخين الذين ترجموا لهم، ومعجبا بما قدمه وما تقلده من مهام ووظائف. أكثر من ذلك قام من خلال هذه السيرة الذاتية بدمج تجربته الشخصية بتجربة عامة أكثر اتساعا، إذ أشار إلى التقلبات السياسية التي عرفها مجال الغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، والتي انعكست في جزء منها على شخصيته المتميزة. لذلك فإن أهمية هذا المؤلف شاملة ومركبة، تجمع بين ما هو ذاتي وما هو عام، في علاقة جدلية تتبادلان التأثير والتأثر.

أما ابن مرزوق فيسجل في المناقب المرزوقية محاكاته في تدوين سيرته وسيرة سلفه بما فعله جماعة من الأئمة كابن خليل، والقاضي عياض، وابن عبد البر، وشيخه القاضي أبي البركات ابن الحاج، وأمثالهم، رغم اعترافه بأنه ليس في مستوى طبقتهم، وليس له سلف كسلفهم،[3] لكن هذه الإشارة لن تقلص من فرضيتنا بعجبه بالذات.

---

[1] الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون، ص 8.إذن كتب التعريف لإحلال صورة صحيحة محل صورة يعتبرها ابن خلدون مشوهة.

[2] نفسه ص 9.

[3] المناقب المرزوقية، ص141.

كما هدف من وراء ترجمة سيرته تدوين ما يفتخر به أبناءه ويعتزون به وهو تاريخ سلفهم، مشيرا أنه رزق أبناء صغارا، لا يعرفون ولا يعرفون، وبالتالي لا يدركون تاريخ والدهم وتاريخ أسرتهم، فقط يعرفون الوضع المادي الدنيوي المريح الذي يميز أسرتهم الحالية، والذي تنقطع المعرفة بانقطاعه.[1] لذلك يمكن اعتبار هذا التصريح يندرج ضمن العجب بالذات أكثر مما يمكن اعتباره تربويا يسعى إلى غرس قيم أخلاقية وسلوك إيجابي، كما سجل بأن بعض أصحابه سبق أن صنفوا في هذا الغرض، لكنه لم يحصل بيده منه شيء.[2]

وقد تحدث ابن مرزوق عن نسبه اعتمادا على مصدرين أساسيين: جده ووالده من جهة، ثم عمه وابن عمه من جهة أخرى.[3] و اتضح إعجابه بنسبه في وصفه لجده الأقرب أبي عبد الله محمد بالصالح، وبالولي العارف، الكبير القدر.. إمام أهل وقته وقدوتهم. ويبرز اهتمام أسرته بقراءة القرآن والاشتغال بالفقه والحديث، إضافة إلى انقطاع بعضهم للعبادة والتصوف.[4]

كما أشار بنوع من الافتخار والعجب إلى رفض والده الحصول على أملاك هدية وإنعاما من السلطة، وذلك عند ورود أسرة ابن مرزوق تونس 722 هـ.[5] وهذا يؤكد ورع والده وتقواه، ويؤكد ما قدمه من نصائح له بعدم الاشتغال بالسياسة والابتعاد عن الساسة.

نفترض من خلال ما سبق أن الشخصيات المذكورة ترجمت لنفسها بالمؤلفات المشار إليها انطلاقا من إعجابها بذاتها، إذ رأوا أن حياتهم بتعقيداتها وتلويناتها الإيجابية والسلبية تستحق أن تدون، ويتبين من هذه السير، ومن محاولة تأويلنا لنصوص منها، تميز هذه الشخصيات بتقدير الذات والاعتداد بالنفس والإعجاب بها، انطلاقا من وضعها الاجتماعي

---

[1] نفسه، 140.
[2] نفسه، 142.
[3] نفسه، 145 – 146.
[4] نفسه، 149.
[5] نفسه، 147.

وقدراتها العلمية. لذلك هناك من اعتبر أن كتابة السيرة الذاتية للبعض (ابن خلدون) جاء لتصحيح صورة مشوهة نشرت من طرف بعض الحساد والمنافسين، وللدفاع عن مؤهلاته ومهاراته وقدراته العلمية والسياسية. بينما دون الآخران (ابن الخطيب وابن مرزوق) سيرتهما اقتداء بمن سبقوهم ليبديا اعتزازهما بنسبهما وكفاءتهما، مع ترسيخ هوية الأسرة لدى الأبناء، وذلك للاعتزاز والزهو بما تقلدته من وظائف، وما أسندت إليها من مهام، وما قامت به من أدوار، كل ذلك أشعرهم بارتفاع تقدير الذات. لكنهم اكتسبوا أيضا صفات سلبية، إذ اتصفوا بالعجب بالذات، تجلى أساسا في الاستعلاء والسيطرة على غيرهم، بل والاستهزاء بكل من انتقدهم أو عارضهم، خاصة ابن الخطيب كما سنرى فيما بعد.

ج. التطلع للمناصب العليا:

هناك عدة أمثلة أو مظاهر تدل على تميز ابن خلدون وابن الخطيب وابن مرزوق بالكبر والتطلع للوظائف العليا، وهي سمة تميزت بها من قبل شخصيات أندلسية، دون إعارة الاهتمام للجانب الأخلاقي ولحدود طموحها، مما أدى إلى تعرضها لكثير من المحن.[1]

[1] فابن الأبار: "رشحه السلطان أبو زكرياء الحفصي لكتب علامته في صدور مكاتباته، فكتبها مدة ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها، فكتبها مدة بالخط المشرقي، وكان آثر عند السلطان من المغربي، فسخط ابن الأبار أنفة من إيثار غيره عليه، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها، فجاهر بالرد، ووضعها استبدادا وأنفة، وعوتب على ذلك، فاستشاط غضبا، ورمى بالقلم، وأنشد متمثلا:

اطلب العز في لظى وذر الذل   ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتاب، وأعتبه، وسماه " إعتاب الكتاب " واستشفع فيه بابنه المستنصر، فغفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة. ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه، وبعث إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألفى أثناءها فيما زعموا رقعة بأبيات أولها:

طغى بتونس خلف   سموه ظلما خليفة

فاستشاط السلطان لها، وأمر بامتحانه، ثم بقتله، فقتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة 658 هـ ثم أحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه، وكان مولده ببلنسية 595 هـ" النفح، ج 3، ص 347 - 348.

فقد رفض ابن الخطيب[1] المناصب السياسية بالمغرب انطلاقا من تعاليه، ولرغبته فيما هو أفضل، وصدرت عنه ألفاظ جارحة دنيئة تدل على شعوره بتفوقه على السلطان، وحاجة هذا الأخير إلى نصائحه وتوجيهاته، يقول مثلا بعد إخماد ثورة كادت تؤدي إلى خلع الغني بالله مرة أخرى: « **أشرت على السلطان باستيلاف النفوس وتسكين نفرتها لاشتراك الجمهور في لازم الذنب.. فانقاد ﷺ..** »[2]

يتضح من هذا النص كبر ابن الخطيب، وعدم القناعة، بل وسوء سلوكه المتسم بالاستعلاء.

في نفس السياق لم يقنع ابن خلدون بما منحه أبو عنان من منصب الكتابة والتوقيع، وقبلهما عن كره منه، يقول[3] «**فقدمت عليه (على أبي عنان 755 هـ) ونظمني في أهل مجلسه العلمي، وألزمني شهود الصلوات معه، ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه، وعلى كره مني، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفي**».[4] ويعترف ابن خلدون - كما أشرنا سابقا -بطغيان الشباب والسمو إلى أعلى المناصب، وبعدم القناعة بما منحه الوزير عمر الفودودي من مهام رغم إغداقه عليه، إضافة إلى الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية، الأمر الذي سينتج عنه طلب الرحلة إلى إفريقية.[5] ويبرز من هذا تطلع ابن خلدون إلى ما هو أسمى لأن المناصب التي عرضت عليه كان دونها مقاما وخطورة، وفي ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حداثته من الأطماع الكبيرة.[6]

---

[1] انظر أيضا عبد العزيز بنعبد الله، الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، تطوان 1953، وهناك طبعة 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1403 هـ - 1983 م. عبد الله كنون، المرجع السابق، ص 123 – 133، انظر(عدد خاص بندوة ابن الخطيب)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد 2، السنة 2، 1408 هـ – 1987 م.

[2] فاغية السعدية، شخصية ابن الخطيب، م س، ص 136 - 137.

[3] التعريف، ص 67. انظر أيضا مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص 51 – 52.(من مقدمة المحقق)

[4] نفسه، الإحاطة، ج 3، ص 498، الجابري، م س، ص 43.

[5] نفسه، ص 80. قضى في فاس 5 سنوات 755 هـ - 759 هـ، الجابري، ص 43 – 44.

[6] محمد عبد الله عنان، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، المرجع السابق، ص 32.

ويؤكد هذا ملاحظة الجابري[1] من أن ابن خلدون كان رجلا تستهويه المناصب الرفيعة ويستبد به طموح سياسي واضح، فقد كان يطمح إلى منصب الحجابة، وهو من الناحية العملية أهم بكثير في بعض الأحوال من الإمارة أو الملك، لأن الحاجب يستبد بالملك، ولكن تحت حماية السلطان أو الأمير، فهو منصب مهم ولكنه أقل خطرا عند تقلب الأحوال، من منصب الإمارة.

ونوافق الجابري في استخلاصه أن الجانب المسيطر على ابن خلدون خلال هذه الفترة - ابتداء من 766 هـ - لم يكن التصوف كما ذهب إلى ذلك عبد الله عنان[2]، بل الطموح السياسي والاعتداد بالنفس، كما يتجلى ذلك من بعض القصائد الواردة في التعريف.[3]

ويتجلى العجب بالذات في إشارة ابن خلدون في رحلته[4] إلى آثاره الخالدة، والسير الجميلة التي فاق بها أشياخه، وكبار وطنه، وأهل جيله..[5] ففي 786 هـ تولى التدريس بمدرسة القمحية[6]، كما تولى قضاء المالكية تأهيلا لمكانه وتنويها بفكره، فقام بذلك أحسن قيام حسب ما يذكر، «لا تأخذه في ذلك لومة لائم، ولا يزعه عنه جاه ولا سطوة مسويا في ذلك بين الخصمين، آخذا بحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحا إلى التثبت في سماع البينات، والنظر في عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات، فقد كان البر منهم مختلطا بالفاجر، والطيب ملتبسا بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، متجاوزون عما يظهرون عليه من هناتهم..».[7]

---

[1] العصبية والدولة، ص 47.

[2] عنان، نفسه، ص 44.

[3] الجابري، نفسه، ص 49.

[4] التعريف، نفسه، ص 131.

[5] نفسه، ص 201.

[6] نفسه، ص 204.

[7] نفسه، ص 205.

يتضح من خلال هذا النص ثقة ابن خلدون بنفسه، وقوة شخصيته، وتحمله المسؤولية بكل كفاءة وعدالة، وهي سمات جد إيجابية. يقول لاكوست[1] «كان ابن خلدون الداهية يختار خدمة القضية التي في الوقت المضروب، تقدم له الحد الأقصى من الفائدة»

نستنتج أن ابن خلدون مثله مثل ابن الخطيب كان يطمح إلى تحمل مسؤوليات كبرى في الدولة، وإلى الاعتناء به من طرف السلاطين، اعتبارا لوضعه الاجتماعي والمهني والعلمي.

أما ابن مرزوق فإذا كان والده أبو العباس أحمد قد نفر من الخطط ومن طلب الجاه والشهرة، واتسم بالتواضع،[2] فإن ابنه ابن مرزوق الخطيب قد اختلف عنه، إذ سعى بطموح كبير إلى تسلق المناصب السياسية الهامة، وإلى التقرب من ذوي النفوذ السلاطين والأمراء، والحصول على رضاهم وإنعاماتهم، فخصص في هذا السياق فصلا فيما أولاه له المولى أبو الحسن من المبرة والكرامة، وما طوقه من النعم.. فقد قلده خطة الخطابة وهو في ريعان شبابه، وألحقه بعلية أهل حضرته، ممن قرأ على بعضهم والده،[3] وتقلد الشهادة في عقوده وما يختص بداره العلية، وقلده الإمامة مددا عديدة، وأهله لأن يقرأ عليه محفوظة من كتاب الله تعالى، وقرأ عليه سورا باللوح، وأهله لكسب صداقاته وصداقات أولاده، وقدمه لسماع الشكاوى، وائتمنه على أسراره، واستعمله في كتبها مدة عنه، ولم يطلع عليها بشرا، مما جعل صاحب العلامة يغير عليه صدره[4]. كما أهله للسفارة وللرسالة، ولتعليم بعض أولاده، فكان يدرس بجامع المنصور الحديث والفقه، وأهله للمسامرة والمحاضرة، واختصه بالمفاكهة والمباسطة، أكثر من ذلك يسجل ابن مرزوق بإعجاب وافتخار إظهاره وتفضيله على النظراء، فارتقى إلى أعلى المراتب، حيث شارك شيوخه وأشياخ والده في الخطة وساواهم في المنزلة[5].

---

[1] العلامة ابن خلدون، ص 67.

[2] المناقب المرزوقية، ص 63.

[3] المسند، ص 485.

[4] نفسه.

[5] نفسه.

كما يتجلى إعجابه بنفسه في إشارته إلى أن طموحه لتقلد الوظائف السامية ليس إنعاما، بل استحقاقا انطلاقا من كفاءته العلمية والسياسية، مشيرا إلى أنه الوحيد الذي يسند الأحاديث الصحاح سماعا من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس. فمارس التدبير السياسي والإداري لمدة اثني عشر عاما، مسجلا أنه يتفرد بهذه الميزة، «ولا يعلم من له هذه الوسيلة غيره»[1].

لقد تبين أن ابن مرزوق عين في وظائف دينية وسياسية هامة في مختلف عواصم الغرب الإسلامي، ولعب أدوارا سياسية صعبة مثل محاولة توطيد نفوذ بعض السلاطين، والتفاوض من أجل ذلك، والقيام بمحاولات الصلح مع الاعتراف بالشرعية، بل اللجوء إلى إعادة العلاقات الطبيعية بين السلطان وابنه، وإن لم ينجح في ذلك. كما كلف بمهام السفارة، مما يؤكد تنوع مهامه ووظائفه في مناخ سياسي صعب، بمجال متفكك ومتشعب.

نستنتج أن العناصر الثلاثة اتسمت بالطموح لتقلد المناصب السامية، ولم تقنع أحيانا ببعض الوظائف التي أسندت لها، انطلاقا من تكبرها واستعلائها، ولاشك أن طموحها واختياراتها «كانت تميل تجاه البدائل التي تحمل أكبر قدر من القيمة الإشباعية المحتملة، وتضاعفها توقعات الشخص الذاتية، عن احتمالات أن تكون تلك القيمة ناتجة عن ذلك الاختيار.. »[2]

د. الازدراء والسخرية

يندرج الازدراء ضمن العدوانية Agressivité التي تعتبر النزعة أو مجمل النزعات التي تتجسد في تصرفات حقيقية أو هوامية، وتسعى إلى إلحاق الأذى بالآخر، وتدميره وإكراهه وإذلاله.. وقد يتخذ العدوان نماذج أخرى غير الفعل الحركي العنيف والمدمر، إذ ليس هناك من تصرف، سواء أكان سلبيا (كرفض العون مثلا) أم إيجابيا رمزيا (كالسخرية مثلا) أو ممارس فعليا، لا يمكنه أن ينشط كسلوك عدواني[3].

---

[1] المناقب المرزوقية.. ص 70.(من مقدمة المحققة)

[2] المراجع في علم النفس السياسي، ص 53.

[3] جان لابلانش وبونتاليس، م س، ص 323.

ويعتبر الازدراء من الانحرافات النفسية التي يؤدي إليها العجب والكبر، مثل الافتخار والرياء وحب السيطرة، والكذب في مدح النفس، وذكرها بما فيها وما ليس فيها، كما يخفي العجب والكبر حيلا دفاعية كإسقاط الأخطاء على الآخرين، وتبرير التصرفات..[1]

يقول ابن مسكويه[2]: «وأما الاستهزاء فإنه يستعمله المجان من الناس والمساخرومن لا يبالي بما يقابل به، لأنه قد وضع في نفسه احتمال مثل ذلك وإضعافه، فهو ضاحك قرير العين بضروب الاستخفاف التي تلحقه، وإنما يتعيش بالدخول تحت المذلة والصغار، بل إنما يتعرض بقليل ما يبتدئ به لكثير ما يعامل به، ليضحك غيره وينال اليسير من بره، والحر الفاضل بعيد من هذا المقام جدا، لأنه يكرم نفسه وعرضه عن تعريضهما للسفهاء، وبيعهما بجميع خزائن الملوك فضلا عن الحقير التافه.»

في هذا السياق اشتهر بعض الوزراء بالكبر العظيم والبأو المفرط، مما كان ينتج عنه سلوك انفعالي، قد يغضب الأمير أو السلطان أو غيرهما[3]، مثل عبد الملك بن إدريس المعروف بالجزيري[4] كاتب المنصور ابن أبي عامر خلال القرن الرابع الهجري، والمعتمد بن عباد ووزيره أبي بكر محمد بن عمار - إذ ساءت الأحوال بينهما، فاستخف كل منهما بصاحبه، وراح ينال منه في نفسه وعرضه، نتيجة للحظات الاستعلاء والافتخار التي كانت تملأ نفس الملك العبادي، ولحظات القوة المصطنعة التي تحاول أن تستجمعها نفس الشاعر ابن

---

[1] انظر محمد عز الدين توفيق، المرجع السابق، ص 375.

[2] تهذيب الأخلاق، ص 165.

[3] الحلة السيراء، ج 1، ص 241 – 243.

[4] إعتاب الكتاب، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ط1، 1380هـ/1961م، ص 65. وإذا عدنا تاريخيا إلى أواخر القرن الرابع الهجري، نجد حدوث نفس الأمر لكاتب المنصور ابن أبي عامر عبد الملك بن إدريس المعروف بالجزيري والصاقه له مرة بعد مرة، وتسييره له إلى طرطوشة، وكان متمكنا من علم العدد، فانهمك وأسرته في التعاليم الديوانية التي استقروا بها العمالة، وحصلوا على المراتب العالية، فكان الجزيري يزري بهم ويحب الاشتمال على ابن أبي عامر، ويصور فرط حاجته إليه في الإنشاء، ولم يكن من شأنهم، فسخط عليه المنصور، وأقصاه عن حضرته على فرط حاجته إلى خدمته، وقلد كتابه علي الحشم ديوان الرسائل، فاستهزأ به لذهاب مشيخة كتاب الرسائل في الوقت، ورضي بعد ذلك عن عبد الملك لما حمد حاله في الرياضة، ولم يزل يتولى له ديوان الرسائل إلى أن هلك

عمار في حال التأذي والإيلام -[1] خلال القرن الخامس الهجري، كما اتسم بذلك ابن الأبار[2] خلال القرن السابع الهجري، وابن زمرك[3] في القرن الثامن الهجري.

أما ابن الخطيب فقد اتسم بقدرة كبيرة على الاستهزاء والازدراء بمن عارضه أو عاداه أو تنكر لجميله أو خاب ظنه فيه، لذلك اعتبر شبانة[4] أن ترجمة ابن الخطيب لبعض معاصريه بمؤلفه أوصاف الناس جاءت مشوبة بالانفعال النفسي، ومجانبة الواقعية، الأمر الذي دفع عبد الله كنون إلى الاهتمام بجانب من شخصيته وأدبه وهو عنصر السخرية، [5] محاولا تفسير سر ذلك بابتلائه ب«الأرق الذي هو داء ولا تسلية مع الداء، غير أن من عرف طبيعة الحياة اللاهية في الأندلس، وما لأهلها من قدرة على إغراق

---

[1] حسين خريوش، الفكاهة الأندلسي: دراسة نقدية تطبيقية، منشورات جامعة اليرموك، 1982 م، ص 76.

[2] ترجمة ابن الأبار عن ابن سعيد في المغرب، النفح، ج 3.، ص 349. "وهو حافظ متقن، له في الحديث والأدب تصاليف، .. له تكملة الصلة وكتاب التاريخ، وبسببه قتله صاحب إفريقية، وأحرقت كتبه على ما بلغنا.. ومن شعره قوله:

أمري عجيب في الأمور بين التواري والظهور

مستعمل عند المغيب ومهمل عند الحضور

وسبب هذا أن ملك تونس كان إذا أشكل عليه شيء أو ورد عليه لغز أو معمى أو مترجم بعث به إليه، فيحله، وإذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت إليه، ووجد في تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس، فأمر بضربه، فضرب حتى مات، وأحرقت كتبه، رحمه الله تعالى ! وكان أعداؤه يلقبونه بالفار، وحصلت بينه وبين أبي الحسن علي بن شلبون المعافري البلنسي مهاجاة، فقال فيه:

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع الناس صادرة عن الأبار

أوليس فارا خلقة وخليقة والفار مجبول على الإضرار

النفح، نفسه، ترجمة ابن الأبار: وقال ابن سعيد في القدح المعلى في حقه: كاتب مشهور، وشاعر مذكور، كتب عن ولاة بلنسية، وورد رسولا حين أخذ النصارى بمخنق تلك الجهات،. إلا أن أخلاقه لم تعنه على الوفاء بأسباب الخدمة فقلصت عنه تلك النعمة، وأخر عن تلك العناية، وارتحل إلى بجاية، وهو بها الآن عاطل عن الرتب، خال من حلى الأدب، مشتغل بالتصنيف في فنونه، متنقل بواجبه ومسنونه، ولي معه مجالسات.. "النفح، ج 4، ص 282.

[3] النفح، ج 7، ص169، «وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حجاب الدولة والاسترسال في الرد عليهم بالطبع والجبلة مع الاستغراق في غمار الفتن،، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء، وغضبا،. وقد تميز بشراسة في لسانه، واغترار بمكانه، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه.. »

[4] أوصاف الناس، ص 4، (من مقدمة المحقق).

[5] عبد الله كنون، لسان الدين ابن الخطيب: الكاتب الساخر، فصلة من مجلة البحث العلمي، المرجع السابق

أحزانهم في بحر من المرح والسرور، لا يستغرب أن يقابل لسان الدين حياة البلاط الجادة بوجه متهلل بشوش، وأن يمزج والبساط أبعد ما يكون عن المزاح والضحك»[1]

وقدمت لنا بعض المصادر[2] عدة أمثلة في هذا المجال، مجال ازدراء ابن الخطيب بمختلف العناصر، فقد وصف السلطان إسماعيل النصري بالخنوثة وسوء سيرة أمه مريم[3]، بينما وصف السلطان أبا سعيد البرميخو (حكم بين 761 هـ - 763 هـ) بأوصاف دنيئة، مثل الخمول والانحطاط في المهاوي، مما أدى إلى تبخيس منصب الملك. أكثر من ذلك أشار إلى تعاطيه الحشيش والخمر[4].

ووصف ابن الخطيب وزيرا للبرميخو- اسمه محمد بن علي بن مسعود - بالصرع والجنون، وأن أعماله وتصرفاته لا تقاس بمقياس منطقي معقول، ولهذا انقلب عليه السلطان وأغرقه في البحر كما فعل بسابقيه من قبل.[5] وأضاف في حق هذا الوزير ما ملخصه: «وأنه أحول العين، وحش النظرة، يظن به الغضب في حال الرضا، يهيج به المرار فيكمن زمانا خلف كلة مرقده...»[6]

وترى إحدى الباحثات[7] أنه رغم ذلك لا يمكن مقارنة تعالي ابن الخطيب عن الأندلسيين والازدراء بهم بتعاليه عن المغاربة والمغرب، حيث تصل به أحيانا إلى درجة الاحتقار والسخرية كما تثبت النصوص. فقد وصف أمير المغرب إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن «بالصبي البعيد عن الحزم، وبالبلادة، وبالإسراف، والقناعة من الإمرة بالاسم...»[8]

[1] نفسه، ص 6 – 7.

[2] نفاضة الجراب، ص 103، النفح، ج 7، ص 70-71.

[3] نفسه.

[4] نفسه، ص 103.

[5] نفسه، المقدمة، ص 16.

[6] النفح، نفسه.

[7] فاطمة السعدية، شخصية ابن الخطيب، م س، ص 137.

[8] ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج 2، ص 215.

وانقلب ابن الخطيب على السلطان أبي سالم بعد وفاته، ووصفه بأقسى النعوت، واعتبره «صبيا ذاهلا عن الحزم، مثلا في البلادة، وكلا مؤثرا للحجبة معوضا للبطالة، مسلوب الغيرة على المال، قانعا من الإمارة بالاسم.. »: هذا ما كتبه ابن الخطيب في نفاضة الجراب عن أبي سالم بعد أن عاش في رحابه وكتب له الكتب الكثيرة، كما أرخ له في الإحاطة. ولكن حين قتل السلطان انقلب ابن الخطيب عليه في خسة ودناءة وحطة، مما يبرز أنه لم يكن متقلب الأهواء كما تصور بعض مؤرخيه، وإنما كان متقلب الولاء، يتقلب بسهولة من مادح إلى قادح، ومن شاكر إلى ذام، وكل هذا في سبيل شيء واحد: ذاته وترفه هو.[1]

وفي هذا الصدد نشير أن الصداقة لها دور في حفظ الصحة النفسية، ذلك أن نجاح الإنسان في تكوين أصدقاء، واستمرار علاقاته معهم، والاعتراف بها حتى بعد مماتهم، يعد شرطا أساسيا من شروط تمتعه بصحة نفسية وجسمية، واستمتاعه بحياة لها معنى.[2] وقد خصص ابن مسكويه[3] فصلا لآداب الصداقة.

و رغم إلزام ابن الخطيب بمدح وزراء، فإن أشعاره لم تخف ما يختلج دواخله من كبرياء وتعاليه عنهم، يقول في مدح الوزير المغربي السبيع:

لعمرك ما تدري الوزارة كفؤها سواك يمينا لا يخاف من الوزر
ومثلك من يعنى بمثلي فإنني تهيم المعاني في ثنائي وفي شكري [4]

وعبر المقري[5] عن قدرة لسان الدين بشكل مبالغ في هجو وقدح الوزراء، منهم الوزير إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي، إذ قال في المذكور وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبي

---

[1] ابن رضوان، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص 21. (المحقق علي سامي النشار).

[2] أسامة سعد أبو سريع، الصداقة من منظور علم النفس، عالم المعرفة، العدد 179، نوفمبر 1993 م، ص 7، (من تقديم عبد الحليم محمود السيد)، ويندرج هذا الموضوع ضمن ما اصطلح عليه الباحثون المحدثون ب " سيكولوجية العلاقات بين الأشخاص " الذي فرض نفسه على ساحة البحث النفسي الاجتماعي،. " من التمهيد، ص 9.

[3] تهذيب الأخلاق، ص 135 – 141.

[4] نفاضة الجراب، ج 3، ص 11، (من مقدمة المحققة)، هامش 26

[5] النفح، ج 7، ص 66-67.

الفتح العقرب الردى بعد كلام ما صورته: «وما ظنك برجل مجهول الجد، موصوم الأبوة؟ إلى أن قال: تنور خبز، وبركة مرقة، وثعبان حلواء، وفاكهة معى، في شح النفس، متهالك في مسترذل الطبع..».

وأما الوزير المريني الشيخ علي بن كماشة فقد سجل في حقه، «أشعب الطمع. قد احتال في الوصول، موريا بخدمة السلطان، هاويا إلى استنجاز ما أخذه على السلطان أبي زيان من الشروط التي تشطط فيها عدم الحياء، وزمانة المروة، حين تردد في أمره، من مال وأقفزة بر وأشخاص بلاد ومجال إثارة، فأقرض ما يليق بذوي الأطماع الجامحة..»[1]

كما أورد المقري[2] هجو وازدراء لسان الدين بقاض يتجلى من خلالها المنظور الطبقي المتعالي، الذي يمس بكرامة المزدرى به: «الغريب الاسم والولاية .. فلان البناء المسخر في بناء الحفيرة، المستخدم في دار ابنه أجيرا، مختضبا بالطين، مضايقا في رمق العيشة.. فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق.. شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى بحسب شهوته، تحكمه في غزل أمه إيثارا للعاجل واسترابة بالوعيد، ففسخوا النكاح، وحللوا محرم البضع للداثل.. وباء مشيخة السوء بلعنة الله وسوء الأحدوثة..»

وانتقد قاضي مكناسة الزيتون الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة لما تأخر عن لقائه، يتبين منها إعجابه بنفسه وشعوره بالاستعلاء.[3] وسخر أيضا من قاضي دكالة الحاج أبي عبد الله محمد ابن سعيد الصنهاجي الزموري، واصفا إياه بالحفظ دون ذكاء.[4]

أكثر من ذلك ألف ابن الخطيب عدة مؤلفات سار فيها نحو الازدراء، وتعديل بعض التراجم التي سبق وأن ضمنها كتبه الأولى، بعدما تغير موقفه من أصحابها، وهكذا ألف

---

[1] نفاضة الجراب، نفسه، ص 121.

[2] النفح، نفسه، ص 70.

[3] نفسه، ص 71.

[4] نفاضة الجراب، ص 75، وريحانة الكتاب، ج 2، ص 187 -188، الشهب اللامعة، ص 20.

سنة 774هـ «الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»[1]، إذ تبدو السخرية والتهكم واضحة فيه،[2] فقد كال لمعارضيه من الذم في هذا المصدر ما شفى به بعض غليله. كما ترجم للكاتب أبي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك (توفي بعد 795 هـ) مستصغرا إياه ومحتقرا، واصفا إياه بالخبث والخدع والمكر، نادما على ما قدمه له في فترات سابقة من مساعدات ساهمت في احتكاكه بالعمل السياسي والتدبير الاداري. «هذا الرجيل[3] والتصغير على أصله.. مخلوق من مكيدة وحذر، خبيث إن شكر، خدع ومكر.. فأنا المعتوب إذ اصطنعته وروجته.. فهو اليوم لولا النشأة الشائنة، صدر العصبة، ونير تلك النصبة، وآدابه مستميلة، ومحاضرته خميلة، وخلقه لولا الخبث والغدر جميلة»[4]

و اعتمد المقري[5] على كلام ابن الخطيب الابن في حق ابن زمرك، مقتبسا من الاحاطة «هذا الوغد من شياطين الكتاب، ابن حداد بالبيازين، قتل أباه بيده، أوجعه ضربا فمات من ذلك، وهو أخس عباد الله تربية، وأحقرهم صورة وأخملهم شكلا، استعمله أبي في الكتابة السلطانية، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب (أي الاحاطة) الذي رباه وأدبه واستخدمه حسبما هو معروف، وكفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه وأساء إلينا».

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1963م.

[2] نفسه، ص 146- 147.انظر كنون، المرجع السابق، ص 11.

[3] "فقد كان هذا الأديب ابن زمرك من تلامذة ابن الخطيب، وممن درج بين يديه في مناصب الدولة، وهو يعتبر في الحقيقة ربيب نعمته، لكنه لم يحفظ له عهدا ولا ودا ولا راعى فيه إلا ولا ذمة، وكان هو العامل الأساسي في نكبته". كنون، نفسه، ص 9.النفح، ج 7، ص 169- 170، ويستخلص من نص مهم أورده المقري نقلا عن ابن الأحمر ممارسة ابن زمرك للفساد السياسي والظلم باتهام المشتغلين كبيرهم وصغيرهم بذنوب لم يقترفوها، ونسب إليهم احتجان الأموال، وإساءة الأعمال، فامتحنوا وهم البرؤون، فطفت أخلاقه، وسئم الناس وساطته، إلى أن هلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه، فقضي عليه وعلى من وجد من خدامه وابنيه، كل ذلك بمرأى عينمن أهله وبناته، وكان ذلك بعد 795 هـ

[4] الكتيبة الكامنة، نفسه، ص 282– 283.

[5] النفح، نفسه، ص 161.

نستنتج أن ابن الخطيب كان ينفس عن موجدته بما كتب في حق خلفه على وزارة غرناطة، والذي لم يقنع بأن برئه في مجده ومنصبه، بل سعى في إتلاف نفسه، ومضايقته في منفاه البعيد، إذ قدم ابن زمرك إلى فاس لما خلا الجو لخصوم ابن الخطيب، فاحتقره وانتقص من قدره وامتحنه، ولم يرجع إلى الأندلس حتى قتله.[1]

وهذا يختلف عما وصف به لسان الدين الفقيه أبا عبد الله ابن زمرك سابقا،[2] أثناء تعيينه رئيس الكتاب، إذ يبين بروزه وشفوفه وتقدمه على أقرانه معترفا بميزاته وكفاءته الأدبية الفكرية: «فحمد أثره، وشكر ظاهره ومضمره.. ميمون النقيبة، حسن الضريبة، خالصا في الأحوال المريبة، ناطقا عن مقامه بالمخاطبات العجيبة.»

كما ذم وقدح القاضي النباهي، ذلك أنه لما لجأ الأخير إلى الإساءة إلى ابن الخطيب واتهمه بالزندقة، أطلق لسان الدين قلمه في سب المذكور وقدحه، ولم يقتنع بذلك حتى ألف الكتاب الذي سماه ب«خلع الرسن في التعريف بأحوال أبي الحسن»، لكونه تولى الحط منه، والسعي في هلاكه.[3] وهكذا يصف النباهي «بالقاضي علي بن عبد الله بن الحسن النباهي المدعو بجعسوس (الذميم) أطروفة الزمن التي تجل غرائبها عن الثمن.. قرد شارف من قرود اليمن، ذنبا وإحداقا.. وخبثا وسلاحا، لا يفرق بينهما في الشكل وقرب الغائط من الأكل، وإن كان لأبيه ببلده درجة الأمير، عند مولدي الحمير، ينظف بيديه أرحامها.. وكانت أمه أم جعسوس قابلة ذلك الوضع.»

وقد لجأ المقري[4] إلى موازنة بين لسان الدين والنباهي وابن زمرك يبدو من خلالها وقوفه إلى جانب ابن الخطيب متهما إياهما بالغدر والحقد والغل والقتل.

---

[1] انظر هامش 353.

[2] ريحانة الكتاب، ج 2، ص 85 – 86.

[3] نفسه، ص 66، 106.

[4] النفح، نفسه، ص 64. «فانظر صانني الله وإياك من الأغيار، وكفانا شر من كفر الصنيعة التي هي على النقص عنوان ومعيار، إلى حال الوزير لسان الدين مع هذين الرجلين، القاضي ابن الحسن والوزير ابن زمرك اللذين تسببا في هلاكه، حتى صار أثرا بعد عين، مع تنويهه بهما في هذا الإنشاء وغيره، وتخليهما – كما هو معلوم – ظلال خيره، فقابلاه بالغدر، وأظهرا عند الإمكان حقد القلب وغل الصدر، وسددا لقتله سهاما ولسيا، وصيرا سبيل الوفاء نسيا منسيا.»

ونفس الأمر ذهب إليه ابن الخطيب مع ابن مرزوق، فقد اتسم ابن الخطيب بالتشهير والسخرية الجارحة والهزأ الفاضح بصاحبه حسب كنون[1]، فقد ذم أخلاقه، وشكك في كفاءته العلمية، ونبش في ماضيه بما فيه من أصل وفصل، إلى غير ذلك من ضروب الإهانة والتحقير، مما يلوح جليا لكل ذي عينين، «ولولا أننا لعلم الباعث على ذلك من الخصومة الحادة التي كانت بين الرجلين، ونعلم كذلك ما كتب ابن الخطيب عن خصمه في كتاب الإحاطة، قبل أن يفسد ما بينهما من ترجمة حافلة بذكر فضله ونبله، لداخلنا ريب في هوية الرجل وتفاهة شخصيته، ولكننا بصدد إبراز هذا اللون من كتابة صاحبنا وتفننه فيه».

وبالفعل فإن كنون يشير إلى ما سجله من قبل ابن الخطيب في حق ابن مرزوق، فقد وصفه بأوصاف مدحية جميلة منها العلم السامي الجلال،[2] والرأي السديد، وشيخ زاوية الخلافة..[3] وهو ما أكده ابن خلدون[4].

ويبدو أن الدوافع– حسب كنون -[5]كانت كثيرة، فابن الخطيب في منصبه وجاهه وفضائله، مني بحسد الحاسدين ودس الدائسين، وحينما كان قويا في دولته، كان الناس يتهافتون على القرب منه والتودد إليه، فلما تغيرت الأحوال وتنكر له الدهر، أعرضوا عنه وتآمروا عليه، وكان أشدهم سعيا في ذلك من يعدون من صنائعه، ثم رمت به الأقدار إلى حيث جهل قدره، وعومل معاملة سيئة، فكان ذلك مما أشعل نار غيظه، "فجرى قلمه بما

---

[1] كنون، م س، ص 7.

[2] ريحانة الكتاب، نفسه، ص 145.

[3] نفسه، ص 158.

[4] النفح، نفسه، ص 331-333 «صاحبنا الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق من أهل تلمسان، كان سلفه نزلاء الشيخ أبي مدين بالعباد، ومتوارثين تربته من لدن جدهم خادمه في حياته، وكان جده الخامس أو السادس أبو بكر بن مرزوق معروفا بالولاية فيهم، ونشأ محمد هذا بتلمسان.. ولاه السلطان أبو الحسن خطابة مسجد تلمسان، وقربه وحضر وقعة طريف، ثم استعمله سفيرا.. واستخدمه أبو عنان.. وفي عهد أبي سالم جعل زمام الأمور بيده.. ثم رحل إلى الإسكندرية والقاهرة، وولاه السلطان الأشرف الوظائف العلمية.. مرشحا لقضاء المالكية، ملازما للتدريس، إلى أن هلك 781 هـ

[5] كنون، م س، ص 14.

ذب به عن عرضه، وانتقم لنفسه من خصوم لم يكونوا شرفاء، لكنه تعرض لعقاب ومحنة انتهت إلى قتله".[1]

خلاصة القول لقد لجأ ابن الخطيب إلى التشفي والانتقام، مستخدما أوصاف الهزء والهمز واللمز، إضافة إلى التنقيص والتحقير، ولا يضره تناقضه فيما سجله في حق بعض المزدرى بهم سابقا، مثل ما رأينا بخصوص ابن مرزوق.

و ذم ابن الخطيب الموثقين في كتاب «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة»، وذكر مثالبهم. وقد انتقد الإمام الحافظ أحمد الونشريسي[2] هذا الكتاب مشيرا إلى عدم الفائدة منه لا في الدنيا ولا في الآخرة، إذ ركز على مساوئ طائفة من الناس مزدريا ومحتقرا إياهم .

و بالفعل فإن وقوف الآداب إضافة إلى التصوف سواء في هذه الحقبة أو قبلها موقف الانتقاد والسخرية يجعله شديد الصلة بالسياسة وقضاياها، لأنه يهتم برجال السياسة وأصحاب الخطط وسلوكهم بالدرجة الأولى. وقد وصل موقف الشعر أحيانا مع ابن الأبار[3] ثم ابن الخطيب، وفيما قبل - مع الرمادي والحجاري والسميسر- إلى درجة الانتقاد العنيف والهجاء الحاد والازدراء البغيض، فواجهتهم السلطة مواجهة متشددة صارمة، وترصدتهم فأوقعت بهم الأذى من سجن ونفي وتقتيل وغير ذلك؛[4] فمحنة ابن الخطيب تأتي في هذا السياق، فقد اتهم بالزندقة من خلال كتابه روضة التعريف، مما يسر لأعدائه إيجاد المبررات للحكم عليه بالإعدام.

ورغم أن ابن الخطيب يعد أيضا من المؤرخين، وبالرغم من الرسالة التي وجهها لابن مرزوق، فإنه لم يستفد من دروس التاريخ ولا أخذ العبرة منها بالرغم من باعه الطويل في

---

[1] إعتاب الكتاب، ص 65.انظر هامش 818.

[2] المقري، أزهار الرياض، ج 2، ص 297. «الحمد لله، جامع هذا الكلام المقيد هنا بأول ورقة منه، قد كد نفسه في شيء لا يعني الأفاضل، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل، وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوئ طائفة بهم لستباح الفروج، وتملك مشيدات الدور والبروج، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة، سامحه الله وغفر له».

[3] ونفس الأمر حدث في القرن السابع الهجري لابن الأبار، انظر هامش 314.

[4] انظر علي الغزيوي، أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1987م.، ص133، رشا عبد الله الخطيب، م س، ص 35.

هذا المجال، فالوزير أبو عبد الله بن الحكيم الرندي ذو الوزارتين، وهو من مشيخته، نال من الرياسة والتحكم في الدولة ما صار كالمثل السائر، وخدمته العلماء الأكابر.[1] ثم تغيرت الظروف فانقضت أيامه كأن لم تكن وذهبت، وقتل يوم خلع سلطانه، ومثل به سنة 758 هـ، وانتهبت من أمواله وكتبه وتحفه ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى..[2]

فالسياسة صراع قاتل من أجل السلطة والتوجيه والتملك، صراع تتحكم فيه قواعد الغلبة والقوة، كما يتم اللجوء فيه إلى الحيلة والخدعة، ومحاولة الإقناع والتضليل[3]، بينما يبدو أن ابن الخطيب تحكم فيه الغضب[4]– مثل ما تحكم من قبله في ابن الأبار– الذي يعكس قلة الحيلة، وضعف الحجة، فعاد ضرر الغضب ونكايته عليه، فظهر ذلك في نفسيته، المتسمة بالاستعلاء والكبر، وصار سلوكه قبيحا مذموما، فاكتوى بنار تصرفاته الهوجاء البعيدة عن العقل والحكمة.

ويشير ابن عاصم[5] إلى أن «من أعظم الأسباب التي تجر الابتلاء اللسان.. فكم من ممتحن لم يجن عليه الجناية إلا لسانه! وكم من مبتلى لم يورطه في الابتلاء إلا كلامه»، في هذا الإطار يبدو ابن الخطيب لم يعر الاهتمام لانعكاسات ذلك، ولا للأخلاق الفاضلة، ولا للصداقة التي جمعته ببعض هؤلاء، ولا لميزان القوى، لاسيما وأنه في عصر تمكن فيه حكامه من غلق الأفواه وقطع الألسن ترغيبا وترهيبا[6].ويبدو من سلوك ابن الخطيب

---

[1] النفح، ج 3، ص 374.

[2] نفسه، 380 – 381.

[3] محمد سبيلا، للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000 م، ص 57، نقلا عن محمد بنحمادة، م س، ص 104.

[4] انظر النبج المسلوك في سياسة الملوك، ص 123. " فالغضب وصف طبيعي ركبه الله في الحيوان ليكون له به الانتقام من المؤذي له، وسببه هجوم ما تكرهه النفس ممن هو دونها، والحادث عن الغضب السطوة والانتقام، فإذا أفرط وجاوز حده، سلب العقل، وحجب عن صواب الرأي.. "

[5] ابن عاصم، أبو يحيى محمد الغرناطي، "جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى"، ج 2، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1410هـ-1989م، ص 46.

[6] جمعة شيخة، المرجع السابق، ج 1، ص 46.

اقترانه بالعجلة وارتباطه بالطيش والتهور.[1] وهذا السلوك «أوله ملامة، وآخره ندامة، لا يفارقه الزلل ولا يتعداه الفشل».[2]

وقد انتقده ابن الأحمر من منظور القيم الدينية على هذا السلوك المتصف بالهجاء والباحث عن نواقص منافسيه، وإظهار عوراتهم وتتبع عثراتهم.[3]

ولم يكتف لسان الدين بالاستهزاء بالأشخاص، بل مس حتى المدن وأهاليها، فانتقد أهل أغمات، ووصفهم بالحمق والغفلة والسذاجة.[4] أما سلا التي استقبلته ووفرت له الاستقرار والعيش الكريم، بل وأقطع الأراضي وخصص له مدخول مجباها، فإنه لم يكترث بذلك، فنظم مقامته في المفاضلة بين مدينتي مالقة وسلا قائلا: «على أن التفضيل إنما يقع بين ما تشابه وتقارب، أو تشاكل وتناسب، وإلا فمتى يقع التفضيل بين الناس والنسناس، والملك والخناس، وقرد الجبال وظبي الكناس.. مالقة أرفع قدرا، وأشهر ذكرا، وأجل شأنا، وأعز مكانا، وأكرم ناسا، وأبعد التماسا من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض أو تصاول أو تراجع أو تعادل..»[5]

---

[1] وهي نفس السمة التي اتصف بها الوزير الكاتب أحمد بن طلحة الوزير، وهو من المشهورين بالخلاعة والمجون بالأندلس – مع البلاغة والبراعة – وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر، من عمل بلنسية، وكتب عن ولاة الموحدين، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس، وربما استوزره في بعض الأحيان. وقال ابن سعيد: وهو ممن كان والدي يكثر مجالسته.. وكان شديد التهور، كثير الطيش، ذاهبا بنفسه كل مذهب. (يعتبر نفسه أفضل من أبي تمام والبحتري والمتنبي)". النفح، ج 4، ص 284 – 285.

[2] الشيزري، النهج المسلوك في سياسة الملوك، ص 132- 133، "فالعجلة مذمومة إلا في أفعال البر وصنائع المعروف.. وعلى الملك أن يعمل بخصال ثلاث: تأخير العقوبة في سلطان الغضب، وتعجيل مكافأة المحسن، والأناة فيما يحدث.. قال الرسول محمد (ص) " العجلة من الشيطان ". وكان يقال: لا يواجه العجول محمودا، ولا الغضوب مسرورا.. "

[3] أزهار الرياض، ج 1، ص 191. النفح، ج 8، ص 135. وقد قال ابن الأحمر: «هو شاعر الدنيا وعلم المفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض.. وهو نفيس العدوتين ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم العقلية والإمتاع بالفهوم النقلية، لكن صل لسانه في الهجاء لسع.. حتى صدمني وعلى القول فيه أقدمني، بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي.. ثم صفحت عنه صفحة القادر، ولا يجمل به تتبع العثرات اتباعا للشرع في تحريم الغيبة.. فما ضره لو اشتغل بذنوبه، وتأسف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه».

[4] نفاضة الجراب، ص 55.

[5] ريحانة الكتاب، ج 2، ص 355 – 356.

وقارن بينهما على مستوى المنعة والصنعة والبقعة والشنعة.[1] وسنقتصر على بعضها. «فأما المنعة، فلمالقة حرسها الله فضل الارتفاع، ومزية الامتناع.. »[2]«وسلا كما علمت سور حقير وثور إلى التنجيد والتشييد فقير.. سورها مفرد، لا سلوقية نقية، وبابها تقصد لا ساتر تحميه، والماء بها معدوم.. »[3]«وسلا بلد عديم الظلال، أجرد التلال، إذا ذهب زمن الربيع والخصب المريع، صار هشيما، وأضحى ماؤها حميما، وانقلب الفصل عذابا أليما.».[4]

كما قارن بينهما على المستوى الاقتصادي والاجتماعي مشيرا بإعجاب ومدح إلى ثمار وسهول وسمك مالقة، بينما ينتقد سلا مبينا عيوبها إن تهاطل المطر، وفاكهتها العديمة، وسمكها المحدود الفترة البيولوجية، وثياب أهلها الرثة، وموادها الغذائية القليلة الجودة، وقيساريتها الحقيرة، ومجالها الذي يسيطر عليه الخراب والخلاء، وذمم أهلها المنحطة الفقيرة[5]. بينما « مالقا فجبالها لوز وتين، وسهلها قصور وبساتين، وبحرها حيتان مرتزقة في كل حين.. ووادها الكبير عذب فرات.. ».[6]

أكثر من ذلك ازدرى بأهلها وبرائحة ريحانهم:

أهل سلا صاحت بكم صائحه	غـاديــة مـا بينكم رائحه
كـفـــاكـم ياعـور أنــكـم	ريحانكم ليست له رائحه.[7]

إن سلا كانت مقر إقامة لسان الدين في هجرته الاضطرارية إلى المغرب معززا مكرما من أهلها ومن السلطان، فما حدا به إلى الزراية عليها بهذا الشكل الذي ضمنه تلك المقامة التي تدل على الحالة النفسية القلقة التي كان عليها إذ ذاك.؟

---

[1] نفسه، ص 356.

[2] نفسه، ص 355.

[3] نفسه، ص 356.

[4] نفسه، ص 358.

[5] نفسه، ص 357– 358.

[6] نفسه، ص 356.

[7] نفاضة الجراب، ج 3، ص 96.

ونفس الأمر سجله في حق مكناسة، إذ قال وقد نظر إلى خمول أسوارها وكثرة قذر سككها:

أسوار مكناسة مرقعة   كأنها من ثياب أهليها
دور خراب على بحر خرا   تناسبت حالها بمن فيها[1]

وقد حاول المرحوم زنيبر تفسير هذه الظاهرة المتمثلة في ازدراء الأندلسيين بالمغاربة: «الأندلسيون في وضعهم التاريخي العام كانوا يتأرجحون بين الإعجاب بنفسهم، والتشكي من حظهم. لقد كانوا دولة وصولة أيام الأمويين، فإذا بهم يصبحون مغلوبين ومستضعفين. وفي الوقت الذي يقدمون فيه أنفس بضاعة في ميادين العلم والأدب والحضارة، كانوا يقفون موقف الاستجداء من العالم الإسلامي بصفة عامة، ويستنفرون المغرب الأقصى بصفة خاصة للحصول على النجدة العسكرية. ولذلك فهم يصبون جام غضبهم وسخريتهم على المغرب الذي أصبح عنصرا من عناصر تلك العقدة النفسية»[2]

فهذا التعصب للإقليم جعل الأندلسي لا يرى الجمال إلا فيه، ويعتبره مهد الحضارة ومركز العلم بل أحسن الأقاليم، ويتأدب بعضهم فيصنفه بعد مكة، لكن ابن الخطيب بتعاليه يقف متوسلا متضرعا إلى الملوك والوزراء المغاربة بأمداح ينبع منها التملق والزيف، لتحقيق مصالح مادية، وضمان وضعية مستقرة في خضم الاضطرابات السياسية التي عرفها النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، سواء في غرناطة أو المغرب.[3]

يبدو أن ابن الخطيب ابتعد عن توصية المرادي[4] بترك الإنسان الإفراط في المدح إذا مدح، وفي الذم إذا ذم، بمعنى يدعو إلى التوسط الجميل. ويبدو أن المرادي يهدف من هذا

---

[1] نفسه، ص95 – 96.

[2] فاغية السعدية، المرجع السابق، ص 139 – 140، نقلا عن محمد زنيبر، "ابن الخطيب والتجديد في المنهاج التاريخي"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، الرباط، 1977 م، ص 94(صص 79 – 126).

[3] نفسه.

[4] كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، مص س، ص 28.

حماية الفرد من فتح أبواب العداوة والخصام على نفسه، داعيا إلى الحذر من دخول أمور قبل معرفة منتهاها .

نستخلص أن الشعور بالتفوق العلمي والفكري، قد أدى إلى الثقة في النفس، والتي نتج عنها الاعتداد والعجب بالذات، المتجلية في مظاهر منها الاستعلاء والكبر والازدراء والسخرية، وقد اتسم بهذه السمة الأخيرة لسان الدين ابن الخطيب، الذي عبرت كثير من النصوص عن ضعف التزامه الأخلاقي الديني، وعدم مراعاته للصداقة، فكان حربائيا ينقلب موقفه بسرعة، لاسيما عندما لا تشبع رغباته، لذلك ازدرى ببعض السلاطين، منهم من أكرمه وبوأه المناصب العليا، كما ازدرى بالوزراء والقضاة وعناصر من المجتمع المغربي بالخصوص، أكثر من ذلك لجأ إلى الاستهزاء واحتقار بعض المدن التي احتضنته وأوته في فترة كان لاجئا، ووفرت له مداخيل مالية من جبايات موانئها حتى يعيش مكرما، ومنحته إقطاعات، فعوض اللجوء إلى مدحها في إطار النبل والاعتراف، إذا به يصوب نيران كبره ليزدري بها، عاقدا مقارنة بينها وبين مدن أخرى من الأندلس، مما يدفعنا إلى افتراض وجود بواعث نفسية عميقة تتمثل أساسا في عجبه بذاته وأنانيته، ضاربا عرض الحائط بالقيم والمبادئ والالتزام والاعتراف بالجميل.

لقد حاولنا من خلال هذا الفصل الاقتراب من شخصيات ثلاث لعبت دورا هاما إبان القرن 8 هـ / 14 م، معتمدين على سيرهم الذاتية (الأوتو بيوغرافية) وعلى مصادر متنوعة، حيث أمدتنا بنصوص دفعتنا إلى افتراض تميزهم بالعجب بالذات، انطلاقا من سماتهم الشخصية المتمثلة في دوافع الطموح والتطلع والرغبة في العيش الرغيد، إضافة إلى عوامل اجتماعية ومهنية كما رأينا .

وقد تجلى العجب بالذات في الاستعلاء المتجلي في كتابة السير الذاتية، والحديث عن النسب والسلف والافتخار بهما، مما أدى إلى كثير من النتائج الإيجابية بما فيها ارتفاع تقدير الذات، لكنهم اكتسبوا أيضا صفات سلبية، تجلت في المبالغة في الحديث عن النسب والزهو به، والتكبر وممارسة الاستبداد والسيطرة على غيرهم.

كما تميزوا بالتطلع للمناصب العليا والازدراء بالآخرين لاسيما ابن الخطيب، ولم يقنعوا أحيانا ببعض الوظائف التي أسندت لهم، انطلاقا من تكبرهم وعدم قناعتهم، وذلك انطلاقا من مؤهلاتهم الشخصية المتمثلة في الكفاءة والثقة والقبول والتفوق في مجال الكتابة والتدبير.

لكن تسلق الوظائف السامية ونجاحهم أحيانا في تدبير الشأن السياسي والإداري، أثار حقد منافسيهم، فكثرت السعايات والمؤامرات، وشاركوا فيها بأساليب ملتوية، واكتووا بنارها، الأمر الذي حال دون إشباع جميع رغباتهم.

2.آلية الإحباط:

يتعرض للإحباطFRUSTRATIONالفرد الذي يحال دونه وإشباع أحد مطالبه الترويية، أو الذي لا يبيح هذا الإشباع لنفسه، [1]لوجود عائق ما يحول دون إشباع دافع لديه، [2] ولاسيما إذا كان يتسم بالعجب بالذات. أما العوائق التي يمكن أن تسبب الإحباط للفرد فكثيرة ومتنوعة، بعضها داخلي المصدر يرجع إلى عوامل ترتبط بالفرد ذاته أكثر من ارتباطها بما يحيط به من ظروف بيئية، وبعضها خارجي المصدر يرتبط بالبيئة التي يعيش فيها أكثر من ارتباطها بالفرد نفسه، [3]وبصفة عامة فهناك تبادل التأثير والتأثر بين المصدرين.

أما أعراض هذا الإحباط فتتجلى في عمل الحداد وفي القلق وفي الهم والغم، ويحاول الشخص المحبط غالبا اللجوء إلى حيل دفاعية لتقليص حدة الصدمة كالتبرير والانسحاب والنكوص.

واجتنابا لهذا المرض فقد «أوصى الحكماء بالقناعة وبعدم الاشتغال بفضول العيش، فإنها بلا نهاية، ومن طلبها أوقعته في مهالك ونكبات ذات تأثير على حياته

---

[1] جان لابلانش وبونتاليس، م س، ص 46.

[2] سامي محسن الختاتنة، علم النفس العسكري، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1437 هـ - 2016 م، ص 298.

[3] نفسه، ص 299.

النفسية مثل ما لها من تأثير على حياته المادية، وتتحول وتنقلب آماله يأسا وظلاما، كما يتحول تعاظمه واعتزازه بالذات خمولا وانكسارا».[1]

وهذا ما أكده أيضا ابن مسكويه[2] داعيا إلى التحرز من الوقوع في المفاسد، ومن طلب اللذة، مع الاقتصار في الرزق على الكفاية وعدم التطلع والسعي إلى ما يفوق القصد، والابتعاد عن الحرص الشديد حتى لا يتعرض الشخص للمكاسب غير الشرعية، فتؤدي به إلى ضروب المهالك والمعاطب.

ونفترض أن كلا من ابن الخطيب وابن خلدون وابن مرزوق قد طالهم الإحباط، على نحو ما يبدو من مؤلفاتهم[3]، وهم في أحلك فترات حياتهم[4]، فما هي أسباب ذلك ؟

أ. أسباب الإحباط

❖ أسباب ذاتية:

تتمثل أساسا في عدم إشباع جميع رغبات العناصر الثلاث، فقد سبق أن بينا أسباب وعوامل عجب العناصر الثلاث بذاتها، كما أشرنا إلى تجليات ومظاهر ذلك، فقد ترعرعوا في بيئة متميزة اتسمت ببحبوحة العيش، مما وفر لهم تكوينا متميزا، دفعهم إلى الطموح الزائد، وحب الدنيا، والتطلع إلى المناصب العليا، والرغبة في امتلاك أكثر ما يمكن من العقارات وغيرها، كما أهلهم للتقرب من ذوي النفوذ والسلطة، فتقلدوا مناصب سامية، واغتروا بالزمان، وكبرت ثقتهم به، حتى اعتقدوا أن لا سبيل للدهر عليهم، وأن ممتلكاتهم

---

[1] روضة التعريف، ص 51. (من مقدمة المحقق)

[2] تهذيب الأخلاق، ص 152.

[3] يتضح ذلك فيما دونه الأول في مؤلفاته روضة التعريف وأوصاف الناس وريحانة الكتاب والإحاطة ونفاضة الجراب- كما رأينا -، والثاني في التعريفص99 - 100، والثالث في المناقب وجني الجنتين: ابن مرزوق التلمساني، محمد، جني الجنتين في فضل الليلتين ليلة القدر وليلة المولد النبوي، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ك 1228، ص 3.نقلا عن المناقب المرزوقية، المحققة سلوى الزاهري، ص 122.

[4] نفاضة الجراب، ج 3، ص 10، من مقدمة المحققة.

الموروثة والمكتسبة غير خاضعة للمصادرة والنهب، وأن ثمارها وفوائدها سيستفيدون منها حيث تواجدوا من المعمور.[1]

لذلك عندما تغيرت الظروف، وثارت الحزازات ضدهم وضد بعضهم البعض، وتفجر الحسد والمؤامرات والسعايات، تعرضوا للمحن والكروب من سجن ونفي ومصادرة[2]، فحال ذلك دون تمكنهم من تحقيق تطلعاتهم بشكل شامل، وإشباع جميع نزواتهم ورغباتهم وحاجاتهم.

وأمدتنا مؤلفاتهم المشار إليها سابقا بمعطيات هامة، تؤكد معاناتهم من الكرب، وتغير أحوالهم نحو الأسوأ.[3] ونتج عن هذا الانقلاب والتحول والتدحرج في الهرم الاجتماعي نحو الأسفل أن برزت لديهم ميول نحو الزهد والتصوف تمظهر ذلك في:

- ✓ الكتابة، حيث عبروا عن مواقفهم وتحولهم الفكري بواسطة نصوص احتوتها المؤلفات السابقة.
- ✓ الانسحاب من المجال السياسي الذي لم يشبع رغباتهم التي فاقت قدراتهم ووضعهم الاجتماعي.
- ✓ الزهد والذكر والعبادة والاعتبار والاستعداد للموت لاسيما بعد تقدمهم في السن، ومعاناتهم من الأمراض، وفقداتهم الكثير من ممتلكاتهم. فأكثروا من العبادة وتقديم نصائح للأصدقاء والأبناء، مما يبرز أن المرض والفشل يجعلان المشاعر الدينية تتوقد وتتقوى الإحساس بالندم على ما مضى، وتتحرك الرغبة في التوبة والتخلص من كل التبعات. فالمرض إذن اعتبر قرينا للموت. لا يذكر هذا إلا

---

[1] ريحانة الكتاب، ج 1، ص 12، من مقدمة إحسان عباس. والنص من أعمال الأعمال، 319-320.
[2] أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ي وك، من مقدمة المحققين، انظر المناقب المرزوقية، ص 311.
[3] المناقب، نفسه.

وذكر الآخر بعده، ومن جهة ثانية، يطمع المرضى في العلاج والشفاء، فيبحثون عن الوسائل المناسبة.[1]

❖أسباب سياسية:

تعرض الأشخاص الثلاث للفشل السياسي الذي يمكن اعتباره من أهم العوامل التي حولت اهتماماتهم، إذ عانوا من الأزمات والفشل والكروب وما نتج عنها من عقاب مادي ونفسي، فتحولت حياتهم من التدبير المستبد إلى الخضوع المهان، والتحول من مجال أو بلاط إلى آخر، الأمر الذي سيدفعهم إلى البحث عن آليات أخرى لإشباع رغباتهم، ف **«المكانة السياسية التي تمتع بها ابن الخطيب لم تكن لتظل على حالها، أو تدوم على سلكها، نظرا لتبدل الدول، وتغير الأحوال»**.[2] وهذا يتساوق مع ما سجله المرادي[3] سابقا: **«لا تفرح بالمال والسلطان، فإنهما ظلان زائلان»**.

ذلك ما نعتقد أنه حصل لابن الخطيب بعد نكبته الأولى مع سلطانه الغني بالله سنة 760 هـ حيث وفدا على البلاط المريني بفاس، وقد كان ابن الخطيب يناهز سن الخمسين، وهي سن الارتداد إلى الشيخوخة، فكانت نكبته في مثل هذا السن بمثابة اليقظة من نوم الغرور بالحياة،[4] كما تدفقت ينابيع نفسه بالشعر المؤثر، المعبر عن اتجاهات روحية جديدة.»[5]

وتتشابه أيضا وضعية ابن خلدون ووضعية زميله لسان الدين على مستوى المحن والإكراهات التي كابداها، فقد عانى ابن خلدون – كما سجلنا - من تحولات وانقلابات غيرت مسار حياته رأسا على عقب، فقد تعرض لعدة نكبات: نكبة صديقه أمير بجاية، واعتقال

---

[1] التعريف، ص 130 – 132، انظر محمد حتي، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007 م، ص 120.

[2] محمد البركة وسعيد بنحمادة، م س، ص 48.

[3] المرادي الحضرمي، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ص 29. انظر ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص 166، هامش 35.

[4] روضة التعريف، ص 51، (من مقدمة المحقق)، انظر الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 4، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 م، ص 13.

[5] نفسه، انظر أزهار الرياض، ج 1، ص 295.

أخيه، وتفتيش منزله، ومصادرة أملاك أسرته، وسجن في عهد أبي عنان، وتنكر له الأصحاب ورجال الدولة في أواخر عهد أبي سالم، وتنكر له ابن الخطيب، الأمر الذي يبين الانعكاسات المادية والنفسية التي عانى منها.[1]

ويسجل ابن مرزوق أن أباه كان يخشى عليه من خدمة ومخالطة السلطان خوفا من الحساد والأعداء، وحذره من تولي خطة القضاء أو خطة تكون فيها علاقة بالمال،[2] وكان يردد عليه: «يابني امالك وللسلطان ؟ أخوف ما أخاف عليك مخالطة السلطان»[3]

و بالفعل تعرض للاعتقال والمكابدة – كما رأينا - أكثر من مرة،[4] «فقد أسكن قرارة مطبق عميق القعر، مقفل المسلك، حريز القفل، ثاني اثنين، »[5]ثم سرح.[6] وقال لسان الدين[7] في حقه: «ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله تعالى متجنى عليه بسببه، محمولا عليه من أجله، تقبض عليه وأجمع الملأ على قتله، وشد اعتقاله».

ومما يبرز حدة الإحباط الذي تفترض تعرض ابن مرزوق له، ما كتبه فيما بعد أبو الحسن علي بن لسان الدين ابن الخطيب: «صدق وهو فوق ذلك كله، فقدره معروف، ولطالما كان ملك المغرب يفتخر به، فصار يفتخر بتقليد الدروس، والدهر لا يبقى على

---

[1] العصبية والدولة، ص 57. "فغادر بجاية إلى البادية، وربما المقصود غادر « العمران الحضري » إلى «العمران البدوي".

[2] المسند، ص 482.

[3] المناقب المرزوقية، ص240.

[4] المسند، ص 497. " فقد اقتضى الخوض الواقع بين يدي تأميل الأمير أبي الحسن رحمه الله، وتوقع عودة الأمر إليه، وقد ألقاه اليم بالساحل بمدينة الجزاير، أن قبض عليه بتلمسان، أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة، من بني زيان، إرضاء لقبيلهم، المتهم بمداخلته، وقد رحل عنهم دسيسا من أميرهم عثمان بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن، فصرف مأخوذا عليه طريقه، منتهبا رحله، منتهكة حرمته.."

[5] الإحاطة، ج3، ص 106. النفح، ج7، ص313-314.

[6] المسند، نفسه.

[7] النفح، ج 7، ص326.

حالة»[1]. وهذا يعكس الحالة النفسية التي أصبح يعاني منها ابن مرزوق، زادها الطين بلة تعرض أخيه للاعتقال من طرف صاحب تلمسان، إذ اتهمه بالميل للسلطان أبي يعقوب.[2]

واتهم ابن مرزوق أيضا بالميل عن بني عبد الواد، ويتضح من بعض النصوص[3] أنه ربما ظلم وافتري عليه في هذه القضية، إذ اتهم بالتجسس وبالغدر، بينما «بعض رجال السلطة» هم الذين اقترحوا عليه الإصلاح بينهم، فغدر به التيار المتشكك في ميولاته، والذي تريبه تحركاته.

كما عانى العناصر الثلاثة من النفي، حيث تفككت روابطهم المتنوعة بمجالهم، وانعكس ذلك على حياتهم المادية والنفسية، ولم يتردد ابن الخطيب في إظهار تلك المعاناة والتقلبات والتحولات الاجتماعية التي أصابته، حيث أقصي من البلاطات، وشرد، فانعكست هذه الأوضاع على نفسيته ووضع أسرته، فعبر عن حنينه الجارف لوطنه غرناطة لما كان بالمغرب، حيث عبر عنه شعرا ونثرا طوال مقامه بسلا وشالة وفاس، ومثال ذلك قوله: «مزق شملي، وفرق بيني وبين أهلي، وتعدى علي، وصرفت وجوه المكائد إلي حتى أخرجت من وطني وبلدي، ومالي وأولادي، ومحل جهادي وحقي الذي صارلي طوعا عن آبائي وأجدادي».[4]

وتناول ابن خلدون أيضا تأثير الفراق الذي عانى منه، والظروف السياسية والمادية والنفسية التي تساوقت مع ذلك الحدث.[5] ومما يؤكد هذا التأثر، إشارة ابن خلدون[6] بأن «الإنسان أسير الأقدار، مسلوب الاختيار، متقلب في حكم الخواطر والأفكار، وأن لابد لكل أول من آخر.. ».

---

[1] نفسه، ص328.

[2] المسند، ص 479.

[3] النفح، نفسه، ص314. " ولأيام قتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شفى تلك الركية.. وأيقن الناس بفوات الأمر فيه. ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه، في خبر ينظر بطرقه إلى الكرامة. فنجا ولا تسل كيف، وخلصه الله خلاصاً جميلاً، وقدم على الأندلس، والله ينفعه بمحنته. " الإحاطة، نفسه، النفح، نفسه.

[4] أعمال الأعلام، القسم الثالث، نفسه ،المناقب المرزوقية، ص 311.

[5] التعريف، ص 114 – 115. «في تفاقم الخطب وتلون الدهر والافلات من مظان النكبة.. ومهلك السلطان المرحوم على يد ابن عمه.. وتغير السلطان واعتقال الأخ المخلف، واليأس منه، والعيث بعده في المنزل والولد واغتصاب الضياع من بقايا ما متعت به الدولة النصرية – أبقاها الله – من النعمة ".

[6] نفسه، ص 130.

وفي هذا الصدد يعترف ابن مرزوق[1] في مقدمة المسند بتعرضه بعد وفاة أبي الحسن المريني لعوارض وامتحان، وتقلبات أزمان، نتج عنها تهجير وترحال وغربة، فذاق ألم البعد، وتحمل ثقل مسؤولية الأبناء مع معاناته من قلة الإمكانات المادية.

يتضح أن للنفي مشقة لا تنكر، وللخروج من الديار صعوبة لا تفند ولا تدحض، يؤدي إلى قطع الصلة بالوطن والأحباب، كما يؤدي إلى الحلول بمناطق قد يصعب التأقلم معها صحيا ونفسيا واجتماعيا، مما يؤكد شدة هذه العقوبة وتأثيرها.[2]

وقد نتج عن هذه العوامل والنكبات أن قرر الوزراء الثلاث مع اختلاف الفترات الانسحاب من السياسة، والتفكير في الزهد والتصوف، وهو ما سنحاول تأويله فيما بعد.

❖ أسباب اقتصادية واجتماعية:

لم يقض الوزراء الثلاثة مدة طويلة في وظيفة ثابتة، وكانوا عرضة للانتقال أو الالتحاق الذي يكون في أغلب الأحيان وفقا لصلتهم بالسلطان أو الأمير، وكثيرا ما كان الحكام يرفعون من مركزهم لأعمال تبدر منهم، ويرون فيها حسن تصرفهم،[3] كما رأينا سابقا، لكن في حالات أخرى تعرض الوزراء الثلاث لمختلف أشكال التهميش والمصادرة والعنف.

فقد عانوا من مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم، فانتقلت حياتهم من البسط والرفاهية والسلطة، إلى واقع حالك أليم صوروه عبر بعض مؤلفاتهم وأشعارهم، وأفصحوا بشكل واضح وصريح بالثقة الزائدة والاطمئنان اللذين كانوا يتمتعون ويشعرون بهما، لذلك فإن

---

[1] المسند، ص 92.

[2] انظر ابن عاصم، جنة الرضا، ج 2، ص 155، يذكر ابن عاصم في هذا الصدد: "لولا أن تمحيص الاغتراب عظيم، وخطبه كبير، لما عمرت الأوطان العديمة المرافق، والثغور الشديدة المخاوف، ولكن الله عمر البلدان بحب الأوطان.. فليس الناس بشيء من أنسابهم أقنع منهم بأوطانهم، ولذلك عظم النفي والاغتراب على من قضي به عليه، وسبب ذلك – والله أعلم- كون الإنسان حيوانا مدنيا، لا يقدر على الإقامة وحده، ولا تقوم مصالحه على انفراده، والنفي والاغتراب نوع من الانفراد، لأنه يحصل بين ناس لا يعرفهم، ويفتقر إلى قوم لا أنس لديهم، ولا موجب لديهم للعطف عليه.".

[3] عبد الله أنيس الطباع، مص س، ص 281.

الانقلاب الذي أصابهم قد مس وضعهم المادي الاقتصادي للأسرة، فتدحرجت قيمتهم ووضعيتهم الاجتماعية، مما قد يفسر لنا الإحباط الذي سيعانون منه لاحقا.[1]

يزكي هذا ما جاء على لسان ابن الخطيب[2]: «وكنت لغروري بالزمان، وثقتي منه بالأمان، أظن أن لا سبيل للدهر علي، ولا تطرق له إلي، وأن مفارقتي لمن بالأندلس هي مفارقة أب لولد، .. وأن عقاري الموروث والمكتسب جار مجرى الوقف الذي لا يبدل، وصريح الشريعة الذي لا يتأول، وأن فوائده تلحق بي حيث كنت من المعمور، فلا أكلف رزقا جهدا لغرور.»

ويعبر أيضا عن إحباطه المادي بوضوح في رسالة إلى خدمة الدولة متسائلا بنبرة يستشف منها الإحباط والتذمر: «فأين الرباع المقتناة، وأين الديار المبتداة، وأين الحدايق المغترسات، وأين الذخاير المختلسات، وأين الودايع المؤملة، وأين الأمانات المحملة، تأذن الله بتتبيرها، وإدناء وتار التيار من دنانيرها».[3]

نستخلص اهتمام ابن الخطيب بالجانب المادي، والسعي وراء المال والتفكير فيه والحصول منه على قدر وفير، فقد سبق أن أشرنا إلى جمعه أموالا من خلال تولية العمال على يده بالمشارطات زمن السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول (ت 755 هـ).[4] أكثر من ذلك حول ابن الخطيب أمواله إلى مصر والمغرب الأقصى بالخصوص[5] حيث اشترى العقار، مما يوحي بنظرته الاستشرافية المستقبلية للوضع الذي كان يبرز حتمية سقوط الأندلس نهائيا، وتهيئ ابن الخطيب الظروف المادية للاستقرار به. لذلك فإن تعرضه للمصادرة والاستيلاء والنهب قد أدى إلى إصابته بالإحباط كما نعتقد.

---

[1] أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص ي. ك (من مقدمة المحققين).

[2] ريحانة الكتاب، ج 1، ص 12 ز (من مقدمة إحسان عباس).

[3] الإحاطة، ج3، ص118 – 123، أوصاف الناس، ص 152.

[4] النفح، ج7، ص 26، انظر أحمد مختار العبادي، "النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين ابن الخطيب"، مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، المجلد 12، 1958 م، ص 145 – 146.

[5] النفح، ج 10، ص 150، العبادي، نفسه.

لقد عانى ابن الخطيب من عدة محن، وازدادت مسؤوليته المتعلقة بنفقات الأبناء في ظل تقلص الموارد المالية بشكل ملموس، الأمر الذي شكل انعكاسا نفسيا سلبيا، وإحساسا بالذل والتشرد والتهميش الاجتماعي، وغياب طمأنينة البال وراحة النفس.

و يتمظهر هذا التغير والإحساس بالمهانة وتأثيرها فيما سطره ضمن رسالة كتبها إلى السلطان أبي زيان بمناسبة توليه الملك: «فلم يتح الله نعرة ترعى الضيف، وتحمي الذليل إلا على يديكم.. »، [1] مما يبرز توظيف لسان الدين ما يملكه من ثقافة واسعة ومقدرة أدبية في مدح ملوك المغرب ورؤسائه.. مدح تنبثق المرارة والحزن من ألفاظه. ويقول في قصيدة مرفوعة إلى نفس السلطان:

أمولاي راع الدهر سربي وغالني	فطرقني مذعور وقلبي خفاق
وليس لكسري غيرك اليوم جابر	ولا لـيـدي إلا لمجدك اعلاق [2]

ويبدو أن ابن الخطيب لجأ إلى ما يسمى في علم النفس بالإسناد الاجتماعي، [3] وهو محاولة الحصول على مساعدة الآخر اجتماعيا ونفسيا، ويبدو من البيتين الشعريين طلب الدعم الأمني، أي الاطمئنان الذي فقده بسبب انغماسه في ممارسة السلطة ودواليبها، وما جرته عليه من كروب ومحن.

من جانب آخر يبدو أن التأزم النفسي دفعه إلى تأليف روضة التعريف، الأمر الذي يدفعنا إلى تأويل ذلك بميله إلى التصوف كحيلة دفاعية نفسية هدف منها محاولة البحث عن الطمأنينة والسكينة، والملاذ الآمن الذي يجد فيه ما يعوضه عن لسعات الدهر، للتخفيف من الأزمات التي ألمت به. إلا أن «تلك اليقظة الروحية كانت تغشاها عنده غواش من تكاليف الأيام وفتنة الحياة وأهواء النفس في انسياقها مع النفوذ

---

[1] نفاضة الجراب، ج 3، من مقدمة المحققة، ص 11، هامش 24.

[2] نفسه، هامش 25.

[3] سعد الإمارة، أساليب التعامل مع الضغوط: حدود المنهج والأساليب، الرابط الالكتروني: https: coping //annabaa.org/nba55/asaleb.htm يوم 23-11-2018م.

والسلطان، ثم تنجلي في ساعات الخلوة بالنفس، بل تتوهج كلما هبت عليها خواطر الروح تستحث على الخلاص.»[1]

نستخلص مما تقدم أن ابن الخطيب عاش تحولات سياسية ومادية اقتصادية واجتماعية انعكست على حياته بشكل شامل، فأثرت على نفسيته، وأحبطته إذ حالت دون تحقيق طموحاته، وإشباع رغباته.

ويمدنا كتاب التعريف[2] بمعطيات ونصوص تتعلق – كما رأينا – بسيرة ابن خلدون بإيجابياتها وسلبياتها وتموجاتها، فقد تقرب إلى الحكام وقربوه، فاستفاد ماديا واجتماعيا، إلا أن التحولات السياسية التي عرفتها المنطقة انعكست على أحواله وأحوال أخيه، فهدمت مساكنهما وصودرت أملاكهما، وتفاقم خطبهما.

نستنتج تشابه وضعية ابن خلدون مع قرينه لسان الدين، فقد عانيا من النفي والتهميش، إضافة إلى النهب والمصادرة، فانعكس ذلك على مواقفهما ورغباتهما، الأمر الذي أدى إلى إصابتهما بالإحباط، مع اختلاف في درجته وقدرة كلاهما على تقليص حدته..

أما ابن مرزوق فقد عانى أيضا من محن وكروب، تمثلت أيضا في تعرضه لاقتحام داره في تلمسان، ونهب كتبه وثيابه، كما صودرت أملاكه في نكبته الثالثة.[3] ولم يقتصر تعرضه للمصادرة في فترته فقط، بل يشير أيضا إلى ضياع بعض ممتلكات أسرته لما دخل الأمير أبو زكرياء ابن عبد الواحد الأمير الحفصي تلمسان عنوة واستباحها سنة 646هـ.[4] يقول المقري[5]: **«وطلب ابن مرزوق بالمال العريض وانتهبت أمواله، واعتقلت رباعه، وجنبت مراكبه، واصطفيت أمهات أولاده، وتمادى به الاعتقال والشدة، إلى أن عادته عوائد الله في الخلاص من الشدة، والانتياش عن الورطة عليه بركة سلفه».**

---

[1] روضة التعريف، ص 53.(من مقدمة المحقق).

[2] التعريف، ص96.

[3] المناقب المرزوقية، ص 67، 69–70.(المحققة)

[4] نفسه، ص172.

[5] النفح: ج7، ص326.

خلاصة القول إن حياة هؤلاء الوزراء المثقفين الثلاثة قد تأثرت بعدة عوامل منها ما هو ذاتي نفسي، ومنها ما هو سياسي، ومنها ما هو اقتصادي اجتماعي، الأمر الذي يبين لنا بعض الأسباب التي دفعتنا إلى افتراض معاناتهم من الإحباط، بعدما فشلوا سياسيا وتدحرج وضعهم المادي، «ولاشك أنهم تأثروا بمجال تجاذبتهم فيه القوى الداخلية والخارجية، فاضطروا أحيانا إلى اتخاذ إجراء معين أو تحاشيه».[1] «فما يحدث في تواريخ حياة الأفراد يعد مرتبطا بشكل لا ينفصل بالبيئة الأوسع والتي تعد نتاج الأزمنة»[2] ولاشك أن طموحهم وتطلعاتهم واختياراتهم كانت كبيرة فلم يتمكنوا من إشباع رغباتهم، فأحبطوا، فما هي أعراض هذا الإحباط ؟

ب. <u>أعراض الإحباط:</u>

من أهم الأعراض التي دفعتنا إلى افتراض إحباط الشخصيات الثلاث عمل الحداد والقلق الدائم المرتبط بالهم والغم، فقد عانوا من ضغوطات نفسية كبيرة، حالت أحيانا دون تمكنهم من إيجاد الحلول لها.

❖ عمل الحداد Travail du Deuil

هي عملية نفسية داخلية تلي فقدان موضوع التعلق العاطفي (شخص محبوب، وطن..)، مما يفرض عليه النجاح في الانفصال عن ذلك الموضوع.[3] وربط فرويد بين السوداوية والحداد، مشيرا إلى أنه على الرغم من أن الحزن العميق ينطوي على ابتعاد خطير عن الموقف السوي اتجاه الحياة، إلا أنه لا ينبغي اعتباره حالة مرضية تستدعي خضوع أو تسليم المحزون إلى العلاج الطبي، ويضيف بأن السمات العقلية المميزة

---

[1] انظر المرجع في علم النفس السياسي، ص 53.

[2] نفسه، ص 141.

[3] جان لابلانش وبونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص 369، سيغموند فرويد، أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1981 م، ص 67، 69.

للسوداوية هي"غم مصحوب بألم عميق، نبذ الاهتمام بالعالم الخارجي، فقد القدرة على الحب، كف كل نشاط، وانخفاض لمشاعر اعتبار الذات".[1]

ويتميز هذا العمل النفسي الداخلي في نظر فرويد، بقلة اهتمام الفرد تجاه العالم الخارجي بعد فقدان الموضوع، حيث يبدو أن آلام الشخص وذكرياته تستحوذ على كل طاقاته حتى تأتي لحظة «يمكننا معها القول إن الأنا يضطر فيها أن يقرر ما إذا كان يريد مشاطرة الموضوع المفقود مصيره، أو أنه يحزم أمره فيقطع الصلة مع الموضوع المفقود، انطلاقا من اعتبار مجمل الإرضاءات النرجسية التي يتضمنها البقاء على قيد الحياة».[2] كما نستخلص أن الذات تحتفظ فيها على قيد الحياة بالشخص المفقود، ويستمر بالعيش معه ويهلوسه احتماليا.[3]

والحداد حسب ابن مسكويه[4] «ألم نفساني يعرض لفقد محبوب أو ضياع مطلوب، وسببه الحرص على الدنيا، والشره إلى الشهوات البدنية، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها، لذلك عليه أن يعي أن جميع ما في عالم الكون غير ثابت ولا باق، لذلك عليه أن لا يطمع في المحال كي لا يحزن لفقد ما يهواه، ويقتصر على طلب المحبوبات الباقية».[5]

وترى بعض الدراسات[6] أن هذا الحداد يمكن أن يتطور إلى اكتئاب نفسي الذي يعتبر موت الأقارب والأحباب من أهم أسبابه، إذ يشعر المرء بالحزن والتعاسة والتشاؤم مع إحساس بالخوف والضيق.

---

[1] فرويد، نفسه، ص 68 – 69. "ترتبط السوداوية بفقد لا شعوري لموضوع حب، على النقيض من الحداد، الذي لا يوجد فيه شيء لا شعوري فيما يتعلق بالخسارة." ص 70.

[2] جان لا بلانش وبونتاليس، نفسه.

[3] جان لا بلانش، إشكاليات 1، القلق، أشرف على الترجمة عباس محمود مكي، ترجمة حبيب نصر الله نصر الله، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1436 هـ - 2015 م، ص 303 فرويد، المرجع السابق، ص 69.

[4] تهذيب الأخلاق، ص 181.

[5] نفسه، ص 182.

[6] عز الدين توفيق، المرجع السابق، ص 396.

وشكل عمل الحداد الذي عانى منه ابن الخطيب وابن خلدون بالخصوص وهما في بداية ارتقائهما السياسي أهم مظاهر أو أعراض هذا الإحباط . كما نشير إلى ورود إشارة بإحدى الدراسات الحديثة[1] إلى وفاة أحد أبناء ابن مرزوق، دون أن تمدنا المصادر بمعطيات عن هذا الفقدان.

وتجلى هذا التأثر وهذا الألم إثر وفاة زوجة لسان الدين بسلا سنة 762 هـ، حيث حزن لذلك المصاب الجلل، فقد تركت له أبناء صغارا ذكورا وإناثا في بلد الغربة، فتحسر واشتد جزعه، فهو يعترف بدورها ومكارم أخلاقها وصبرها[2] قائلا: «وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة طرقني ما كدر شربي، ونغص عيشي، من وفاة أم الولد، عن أصاغر زغب الحوامل، بين ذكران وإناث في بلد الغربة، وتحت سرادق الوحشة، ودون أذيال النكبة، تجلت عليها حسرتي، واشتد عليها جزعي.. إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبرا ومكارم أخلاق، حازت بذلك مزية الشهرة حيث حلت من القطرين. فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا».[3]

وشهد ابن خلدون هلاك جماعة من فضلاء المغرب وأعيانه في الطاعون الجارف 749 هـ / 1348 – 1349 م بتونس،[4] وغرق جماعة منهم في أسطول أبي الحسن لما غرق،[5] كما يشير إلى هلاك أبويه بذلك الوباء،[6] إضافة إلى تعرض عائلته للغرق بعدما استدعاها من

---

[1] نقلا عن المناقب المرزوقية، المحققة، A.Bel , Inscriptions Arabe de Fès, Journal Asiatique , série 11.t.9,1917,p.47 سلوى الزاهري، ص 69، هامش 218.

[2] نفاضة الجراب، ص 205.

[3] أعمال الأعلام، القسم الثالث، المصدر السابق، ص د (من مقدمة المحققين).

[4] التعريف، ص 57، 65. انظر محمد الأمين البزاز، " الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14 م "، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 16، 1991 م، ص ص 109 – 122، مصطفى نشاط، إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، سلسلة بحوث ودراسات، وجدة، 2003 م. ابن الشماع أبو عبد الله محمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984 م، ص 98.

[5] ابن الشماع، نفسه، ص 99.

[6] التعريف، نفسه، ص 65.

القاهرة، الأمر الذي انعكس على نفسيته، فعانى من الحزن والغم. ويعترف ابن خلدون بتأثره بفقدان تلك العناصر، وانعكاس ذلك على طلبه العلم.

فبالنسبة للحداد يبدو أن الأمر طبيعي تماما، من وجهة نظر عادتنا العاطفية، تحزن عندما نفقد أحدا ما،[1] لكن الأمر يصعب عندما يتطور إلى السوداوية والإرهاق العميق وبالتالي عدم التمكن من الانفصال عن الموضوع أي الشخص الميت.

نقدر مما سبق معاناة ابن الخطيب وابن خلدون من الحداد النفسي، المتجلي في التكدر والحزن وفقدان الثقة في المستقبل والاستمتاع بالحياة، كل ذلك نتج عن فقدانهما لأقربائهما وأصدقائهما وأولياء أمورهما. ويشير فرويد لتجاوز اكتئاب الحداد القيام بعمل نفسي حقيقي يهدف إلى فصل المرء قطعة قطعة عن موضوع تركيزه النفسي، أي عن الشخص الميت..[2] بمعنى أن عمل الحداد يتلخص «بقتل الميت».[3]

نستخلص أن هذه العناصر عانت من الحزن والحداد، الذي هو ألم نفسي له انعكاسات على مستقبل الفرد، كما عانت من أعراض أخرى منها القلق والهم والغم..

❖ القلق:

القلق ميل لتصور متشائم للأشياء،[4] يمكن أن يبرز كأعراض جسدية أو إدراكات حسية، كما أنه يرتبط بالخوف،[5] إلا أن القلق هو الخوف دون موضوع.[6] فالرعب والقلق

---

[1] انظر محمد حقي، الموقف من الموت، في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانيال، بني ملال، 2007، ص ص63 – 101.

[2] جان لا بلانش، القلق، ص 128.

[3] جان لا بلانش وبونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص 369.

[4] جان لا بلانش، القلق، ص 35.علم النفس العسكري، ص 318، "ويرى باحث أخر ان القلق يمكن أن تسببه عوامل معروفة بالنسبة للفرد (شعورية)، وهذا قلق موضوعي، ويمكن أن تسببه عوامل غير معروفة (لاشعورية) بمعنى لا يعرف مصدرها، ويصطلح عليه بالقلق العصابي، يؤثر على حالة الفرد ويسبب توتر شديد واضطرابات نفسية وانفعالية تؤدي إلى سوء التوافق لدى الأفراد".

[5] نفسه، ص 37.انظر محمد عز الدين توفيق، المرجع السابق، ص 387.

[6] نفسه، ص 71، 60، 79." ففي الخشية والخوف يقوم الانتباه على الموضوع، وفي القلق يقوم الانتباه على الحالة ويغض النظر عن الموضوع. وفي الحقيقة القلق في النظرية التحليلية لا يغض النظر عن الموضوع بكل بساطة "ص 72. "الخوف متنقل بالقلق، والقلق مرتبط بالخوف، " ص 78-79.

والخوف كلمات نخطئ باستخدامها كمترادفات.[1] واعتبرت كارن هورني (1885– 1952 م) Karen Horney[2] القلق كمفهوم أساسي في فهم الشخصية. فالفرد يشعر بالقلق عندما يقف وحده في مجابهة العالم الخارجي القوي. ويؤدي القلق الشديد الذي ينشأ عن الاستقلال إلى أساليب وحيل عقلية مختلفة للهرب تعتبر سمات مميزة للشخصية.[3]

ويصعب التمييز بدقة بين القلق الطبيعي والقلق المرضي. وغالبا ما يبدأ القلق طبيعيا ثم يستفحل ليصير مرضيا، ولذلك فالأسباب مشتركة بين النوعين والتي من أهمها الوراثة والبيئة والأزمات والصدمات والإخفاقات التي تعرض للشخص في حياته. وتحد من طموحاته وتعيق رغباته. إضافة إلى الشعور بالذنب والخوف من العقاب. والصراع بين الدوافع والميول والعجز عن الجمع بينهما أو الترجيح، زيادة على الشعور بالعجز عن تفسير لغز الوجود والإحساس بتفاهة الحياة وفقدان المعنى والهدف.[4] ومن أهم الأعراض النفسية للقلق الخوف الزائد وما يرافقه من الرعب والفزع.[5]

وأشرنا في إحدى الدراسات[6] اعتمادا على كتب التراجم بالخصوص إلى سمات غالبية وزراء الغرب الإسلامي من الناحية النفسية والمتمثلة في القلق المستمر والوساوس وانتظار

---

[1] نفسه، ص 199، هامش 1 نقلا عن محاولات في التحليل النفسي، باريس، بايو، 1965، ص 14، "تشير كلمة قلق إلى حالة متميزة بترقب الخطر والاستعداد له، حتى ولو كان مجهولا. كلمة خوف تفترض موضوعا محددا نخاف منه [إذن بالنسبة للخوف العلاقة بالخوف علاقة أساسية، وبالنسبة للقلق قلما يهم أن يكون الموضوع معلوما أو مجهولا. إنه الموقف الذاتي بالنسبة للخطر القادم الذي يكون ميزة]. أما الرعب فيحدث فجأة عندما يقع الفرد في وضع خطير دون أن نكون مستعدين له. وتشدد هذه الكلمة على عامل المفاجأة."

[2] محللة نفسية ألمانية. ولدت 1885 في قرية بلانكينز بهامبورغ الألمانية، كان والدها قائد بحري نرويجي الأصل وأم هولندية وتوفيت هورني في نيويورك بسبب السرطان في 04 ديسمبر 1952. ساهمت في تأسيس المعهد الأمريكي للتحليل النفسي سنة 1934 م، وكونت بعدها مؤسسة أمريكا للتحليل النفسي من بين أعضائه فروم - سوليفا كونت. اهتمت بتأثير العوامل الاجتماعية والثقافية في بناء الشخصية.

[3] محمد عثمان نجاتي، مدخل إلى علم النفس الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1422هـ - 2001 م، ص 80 – 81

[4] محمد عز الدين توفيق، المرجع السابق، ص 388 – 389.

[5] نفسه، ص 390.

[6] حميد الحداد، السلطة والعنف، م س، ص 68. انظر أيضا جمعة مشيخة، الفتن والحروب، ص 60.

المكروه من عزل أو سجن أو قتل، إضافة إلى الانكفاء على الذات، والغموض في الرؤية، و«غياب الحزم»[1].

ويمكننا افتراض من خلال بعض النصوص معاناة لسان الدين من اضطرابات نفسية المتمثلة في القلق المتجلي في شعوره بعدم الطمأنينة، وبالخوف، مما يوحي بأنه كان يتوقع وينتظر أمرا سيئا، انطلاقا من تجربته وممارساته للسياسة منذ حداثة سنه، خاصة وأنه خبر المؤامرات والسعايات، والتي أودت بالكثير بما فيهم أصدقاءه السلاطين والأمراء، فقد اعترف بقلقه وزعزعة صبره، وتذكره إشراف العمر على التمام،[2] و« بخباطه »[3]، وهذا يؤكد ما سجلناه سابقا من معاناته من الأرق[4] الذي يعد من سمات المريض بالقلق، لأن اهتماماته تتركز في ترقب الأخطار والمساوئ[5].

و عبر إحسان عباس[6] أحسن تعبير عن وصف هذا الوضع قائلا: «ولقد قضى ابن الخطيب في هذا الجو المكفهر فترة من الزمن وهو فريسة للخوف والحذر، نهبة للتلوم

---

[1] الشهب اللامعة، مص س، ص 269 فالحزم هو النظر في الأمور قبل نزولها، وتوقي المهالك قبل الوقوع فيها، وتدبير الأمور على أحسن ما يكون من وجوهها ؛ فتضييع الحزم يؤدي إلى الهلاك، وقالوا «من الحزم الوقوف عند الشهوة، والأصل في الحزم الاحتراس من جميع الناس، والحذر من كل مكروه يحذر، ثم معاشرة الناس بالاسترسال مع شدة الاحتراس، والتيقظ لما عسى أن يدخلوا عليك منه الغفلة، ويأخذوك عليه من الغرة».

[2] التعريف، ص 130.

[3] نفسه، ص 133. (داء مثل الجنون)

[4] إذ كان لا ينام من الليل إلا النزر اليسير جدا، وقد قال في كتابه « الوصول لحفظ الصحة في الفصول »: العجب مني –مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملي ذلك – لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي، أو كما قال، ولذا يقال له « ذو العمرين » لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل.

[5] القلق النفسي، أعراضه

www.arabmoheer.net/.. /b47eea18-75ff-4c06-ae69– https: //bawaba.khayma.com/.. /.. mawdoo3.com/ 8367719c1d69... الرابط

يوم 2018/2/26م

إلا أننا نسجل بأن ابن الخطيب كان يعي بأن المحيط الذي اشتغل فيه وخبره وعايشه بإيجابياته وسلبياته، قد يسبب له مكروها، إلا أن قلقه هنا يصبح ربما طبيعيا وليس مرضيا، لأن مصدره خارجي، والخوف هنا موضوعي وليس ذاتي وجداني، دليلنا على ذلك استمرار ابن الخطيب في توظيف طاقاته في التصليف والإنتاج والكتابة.

[6] الكتيبة الكامنة، ص 9 (من مقدمة المحقق)، روضة التعريف، ص 58 – 59.

النفسي والتردد، وكلما خلا لنفسه جعل يخاطبها قائلا: يا مشؤومة أما تشعرين لما نزل بك...».

وأشار الكتاني[1] «أن مجرد تفكير ابن الخطيب في تأليف روضة التعريف يعبر وحده عن القلق الروحي الذي كان يعانيه ابن الخطيب، وهو في أخريات أيامه بين مغريات السلطان والجاه والنفوذ، وبين هواتف الضمير، وروادع الهوى، وهجس الخاطر بوخامة المصير الذي كان ينذر المملكة الغرناطية الصغيرة، فضلا عن وخامة مصير من يحكمون ويأتمرون».[2]

ويستشف من سياق تأليف هذا الكتاب ومن رسائله سيطرة اليأس على ابن الخطيب، طارحا مسألة العمر المتقدم وغياب الطمأنينة، ونهب الأموال، مذكرا بالآخرة والمعاد والحساب، مما يبرز اتعاظ ابن الخطيب من التحولات وعزمه على الرحيل من الأندلس، الأمر الذي يدفعنا إلى افتراض رغبته في الانسحاب من مشاغل الدنيا والتحول نحو الاهتمام والانغماس في الملذت الروحية.

يتضح معاناة ابن الخطيب من القلق المادي والروحي والخوف وترقب السوء بسبب السعايات والمؤامرات، وبسبب المرض (الخباط) والفشل.

وعانى ابن خلدون كذلك من الإخفاقات الكثيرة التي تعرض لها، وانعكست على آماله وتطلعاته.. «فأظلمت الدنيا في عينيه، بعد أن تنكر له الدهر وقلب له ظهر المجن.»[3]

وقد عكست مراسلات ابن خلدون مع ابن الخطيب، قلقه وحيرته، وراح يبحث عن تفسير للخيبات الشخصية، ويهدف إلى اكتشاف الأسباب التي طرأت، لتشوه في كثير من الحالات، مجرى حياته الذي كان في البداية طبيعيا ميسرا وإيجابيا إلى حد ما. وقد دلت تجربته على أن الأمر لا يعني سوء طالع شخصي، ولكن خيباته الخاصة ليست سوى مظهر من القلق الذي يعتري المغرب بأسره، فثمة كثيرون ممن ليسوا أقل منه قدرا أصيبوا أيضا بما أصيب به، فقد

---

[1] روضة التعريف، ص 39 (من مقدمة المحقق).

[2] نفسه.

[3] العصبية والدولة، ص 57. فغادر بجاية إلى البادية، وربما المقصود غادر « العمران الحضري » إلى «العمران البدوي».

خنق ابن الخطيب بشناعة، وقتل أبو عنان، والأخرون من أمراء ووزراء، ورجال حاشية ممن هم أقل منه أهمية، تحطموا منذ أن توصلوا إلى تحقيق مطامعهم.

و قد كتب ابن خلدون إلى ابن الخطيب يقول: «لقد كنا شموس المجد، لكنها غابت، وكل الأفق حزن لذلك»[1]

كما عانى ابن مرزوق من الاضطرابات النفسية، لاسيما بعدما تقلصت إمكاناته المادية، وانعكس ذلك على وضعية أسرته. كما عانى من الحسد[2] ومختلف المكائد والمحن كما سجلنا سابقا.[3]

وارتبط بالقلق الهم والغم اللذين يعتبران من أعراض الإحباط، وهما من المواضيع التي طرحها [أبو بكر الرازي(ت 313 هـ)[4] في أواخر القرن الرابع أو بداية القرن الخامس الهجري] وابن حزم (ت 456 هـ)[5] في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وابن الجوزي ت 597 هـ[6] في القرن السادس الهجري، وهي بداية مبكرة لأحد الموضوعات التي تهم الدارسين في مجال علم النفس وسيكولوجية الانفعالات EMOTIONS والصحة النفسية، والتي ترتبط بما يسمى بتغيرات المزاج، وكيفية تشخيصها ومعرفة أسبابها وعلاجها.

فقد عانى الأشخاص الثلاثة منهما، فالهم هو خوف ما يتوقع حدوثه وطروءه في الزمن المستقبل من الأمور المهمة، والغم هو كمد النفس وحزنها على ما ذهب إليه الزمان

---

[1] إيف لاكوست، م س، ص 73.

[2] المسند، ص 496.

[3] المناقب المرزوقية، ص 143.

[4] أبو بكر الرازي ، الطب الروحاني والأقوال الذهبية للكرماني ومعهما المناظرات لأبي حاتم الرازي ، تقديم وتحقيق عبد اللطيف العبد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1978 م، ص ص 83 – 89. وقد أخطأ البعض بنسب الكتاب لفخر الدين الرازي ، انظر علم النفس في التراث الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 979 - 985 . نزار العاني ، الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي : دراسة مقارنة ، سلسلة بحوث علمية إسلامية – علم النفس 15 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، مكتب بيروت ، ط 1 ، 1418 هـ 1998م ، ص 242 .

[5] ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص 13 – 16. انظر إبراهيم شوقي عبد المجيد وآخرون، علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، ص 612.(عرض جمعة سيد يوسف)

[6] الطب الروحاني، مكتبة القدس، دمشق، 1929 م. انظر إبراهيم شوقي عبد المجيد وآخرون، نفسه، ص 906. (عرض عبد اللطيف محمد خليفة)

مساء، لأنه يؤدي إلى المنافسة، ومعاداة الأشراف والرؤساء، وإخفاء الضغينة للجار الماضي.[1] لذلك فإن العمل السياسي خاصة الوزاري يجعل صاحبه يتوقع المكروه صباحا الجنب، وتصيد أخطاء الصديق، وانتشار الأحقاد بسبب الامتيازات المحصل عليها. فيتحول من النعيم إلى البؤس،[2] مما يؤدي إلى انعكاسات وخيمة على الشخص.

وبرز هذا الهم من خلال سرد ابن خلدون لمقتل ابن الخطيب، مما حق لباحث[3] اعتبار الحادث بمثابة ناقوس خطر حمله على الإقلاع والانكماش. لأجل ذلك بدأ ابن خلدون بكتابة المقدمة، أي بكتابة تأويله للتاريخ المرتبط بمغامرة شخصية وبتاريخ عائلي: فالأمر يتعلق بتفسير الفشل بالتاريخ.

نستنتج من خلال نصوص أوردنا بعضها أن الوزراء الثلاثة عانوا من هذين المظهرين اللذين أثرا على نفسيتهم، وانعكس ذلك على بدنهم، إذ غالبا ما يحدثان الألم والأذى. كما نستخلص أن الفشل السياسي وانعكاس ذلك على الحياة المادية والاجتماعية للشخصيات الثلاث، والحيلولة دون تحقيق تطلعاتهم الذاتية، أدى إلى الإصابة بالإحباط الذي تجلت أعراضه في عمل الحداد، والقلق، والهم والغم.فكيف واجهت العناصر الثلاثة الإحباط ؟

ج. الآليات أو الحيل الدفاعية (العقلية) mental mechanism

حددنا مفهوم الإحباط في الحالة التي تواجه الفرد عندما يعجز عن تحقيق رغباته النفسية أو الاجتماعية بسبب عائق ما، وقد يكون هذا العائق خارجياً كالعوامل المادية والاجتماعية والاقتصادية، أو قد يكون داخليا كعيوب نفسية أو بدنية أو حالات صراع نفسي يعيشها الفرد تحول دونه وإشباع رغباته ودوافعه. ويدفع الإحباط الفرد لبذل مزيد

---

[1] النهج المسلوك في سياسة الملوك، ص 136.

[2] النفح، ج 7، ص 73.

[3] أومليل، المرجع السابق، ص 67. ويرى هذا الباحث أن كتاب شفاء السائل لابن خلدون يعرض لجذور التصوف في طبيعة النفس الإنسانية، ولتطوره ومختلف اتجاهاته، وما هو موافق للسنة وما هو خارج عليها، ليصل في نهاية الأمر إلى إصدار الفتوى التي تبدو نتيجة منطقية لكل فصول الكتاب. لقد تأكد أن من العبث أن يبحث المرء عن المجد السياسي في بلد ذي هيكل قبلي عندما لا يتوفر على عصبية، من ثم عكف في القلعة على صياغة نظرية مدارها علاقة العصبية بالسياسة. إلا أنها وكما نلمس ذلك نظرية تتبلور من خلال فشله السياسي نفسه، ص 187.

من الجهد لتجاوز تأثيراته النفسية والتغلب على العوائق المسببة للإحباط لديه بطرق منها ما هو مباشر كبذل مزيد من الجهد والنشاط، أو البحث عن طرق أفضل، لبلوغ الهدف، أو استبداله بهدف آخر ممكن التحقيق. وهناك طرق غير مباشرة، يطلق عليها في علم النفس اسم الميكانزمات (الآليات) أو الحيل العقليةmental mechanism وهي عبارة عن سلوك يهدف إلى تخفيف حدة التوتر المؤلم الناشئ عن الإحباط، واستمراره لمدة طويلة، وهي حيل قد تكون لاشعورية، منها: التبرير، الانسحاب، والنكوص. وعندما يتكرر حدوث الإحباط لدى فرد ما فإنه يؤدي إلى مشاكل نفسية معقدة وخطيرة تستدعي العلاج، وقد يكون الإحباط بناء في بعض الأحيان، لأنه يدفع بالفرد لتجاوز الفشل ووضع الحلول الملائمة لمشاكله،[1] كما سنرى مع الشخصيات الثلاث.

يتضح أن الحيل العقلية هي سلوك دفاعي يلجأ إليه الإنسان ليقي نفسه من القلق الذي ينتابه إذا عرفت دوافعه الحقيقية، فيخفي الأخيرة وراء حيل دفاعية.[2]

❖ حيلة التبرير RATIONALISATIONوالشعور بالذنب

وهي حيلة دفاعية تتمثل في عقلنة الفعل أو السلوك الذي يصدر عن الفرد، فالتبرير بمثابة إيجاد مبرر منطقي للأفعال السلوكية غير المقبولة أو اللا أخلاقية التي تصدر عن الفرد، أو تفسير حالات الفشل والإحباط التي يمر بها.[3]

فقد لجأ الأشخاص الثلاثة إلى محاولة تبرير سلوكهم السابق عن طريق هذه الآلية قصد الدفاع عن مواقفهم السابقة. فحاول ابن الخطيب في رسالة إلى ابن خلدون تبرير سلوكه، داعيا إلى ضرورة أخذ في الاعتبار ظروفه، وعدم لومه، والمقارنة بين إيجابياته وسلبياته، مسجلا«إن كان تصرفه صوابا، وجاريا على السداد، فلا يلام من أصاب، وإن كان عن حمق، وفساد عقل، فلا يلام من اختل عقله، وفسد مزاجه، بل يعذر، ويشفق

---

[1] أحمد السيد كردي، علاج مشكلة الإحباط النفسي، http://kenanaonline.com/users/ahmedkordy/posts/124913 يوم 23-11 – 2018م: الرابطhttp://www.mishooo.net/vb/t162268.html

[2] محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ط 1، 1982 م، والحديث النبوي وعلم النفس، ط 1، 1409 هـ - 1989 م، نقلا عن محمد عز الدين توفيق، م س، ص 459.

[3] علم النفس العسكري، ص 309.

عليه، ويرحم، وإن لم يعط مولاي أمري حقه من العدل، وجلبت الذنوب، وحشرت بعدي العيوب، فحياؤه وتناصفه ينكر ذلك، ويستحضر الحسنات، من التربية والتعليم وخدمة السلف، وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان، والإرشاد للأعمال الصالحة والمداخلة والملابسة، لم يتخلل ذلك قط خيانة في مال ولا سر، ولا غش في تدبير..»[1]

وفي هذا الصدد ألف رسالة في أحوال خدمة الدولة ومصايرهم،[2] خاطب فيها ابن مرزوق عندما سرح عام 762 هـ / 1360 م بعدما امتحن بالاعتقال والمصادرة، إثر انقلاب محمد بن عبد الرحمان بن أبي الحسن على السلطان أبي سالم.[3]

وحاول ابن الخطيب تبرير دعوته إلى التخلي عن خدمة الدولة، لاجئا إلى تقديم تفسير عقلاني ومنطقي يتطابق مع القيم والأخلاق، مستندا في هذا التبرير إلى الدين، موظفا آيات قرآنية، إضافة إلى القناعات السياسية وغيرها، إذ «يأتي فعل الأنا الأعلى هنا كي يعزز دفاعات الأنا».[4]

يقول ابن الخطيب[5] في هذه الرسالة مبررا بعض السلوك الذي يمارسه الوزير أو الإجراءات التي يضطر إلى اتخاذها، أو عدم التمكن من تلبية بعض الطلبات بسبب الصعوبات والإكراهات: «.. ألنسبة وقائع الدولة إليك وأنت بري، وتطوبقك الموبقات وأنت منها عرى.. ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاها الوجود، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود، ألقطع الزمان بين سلطان

---

[1] التعريف، ص 131 – 132.

[2] الإحاطة، ج3، ص118 – 123، أوصاف الناس، ص 151 – 157، ريحانة الكتاب، ج 2، ص 11، من مقدمة المحقق شبانة، ص 430- 437، النفح، ج 7، ص 72 – 77.، انظر محمد البركة وسعيد بنحمادة، المرجع السابق، ص 62 : إن توجيه رسالته «في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم» لابن مرزوق، هو دليل على أهمية الرجلين، مضافا إليهما ابن خلدون، إذ «برز الثلاثة معا كمثال ثقافي وسياسي» بالمغرب والأندلس خلال القرن المذكور. انظر ابن مرزوق المسند، ص 31 (من مقدمة المحققة).

[3] التعريف، ص 63، محمد البركة وسعيد بنحمادة، نفسه، ص 63.انظر محمد ياسر الهلالي، المرجع السابق، ص 167.

[4] جان لابلانش وبونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص 152.

[5] الإحاطة، نفسه، النفح، نفسه.

يعبد، وسهام للغيوب تكبد، وعجاجة شر تلبد، وأقبوحة تخلد وتوبد. الوزير يصانع ويداري، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويماري، وعورة لا توارى، المباكرة كل عايب حاسد، وعدو ومستأسد... الوفود تتزاحم بسدتك، مكلفة لك غير ما في طوقك. فإن لم تنل أغراضها، قلبت عليك السما من فوقك. الجلساء ببابك، لا يقطعون زمن رجوعك وإيابك، إلا بقبيح اغتيابك، فالتصرفات تمقت، والسعايات تحث... يعتقدون أن السلطان في يدك، بمنزلة الحمار المدبور، واليتيم المحجور، والأسير المأمور، ليس له شهوة ولا غضب... وليس في نفسه عن رأي نفرى، ولا بإزاء مالا يقبله نزوة وطفرة... الشرار يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك».[1]

لقد بدا خطاب ابن الخطيب وكأنه يبرر ويدفع عن نفسه ما كان يشاع عنه من أثرة واستبداد، مضيفا إعلانه عزمه ورغبته في تغيير اهتماماته وطموحاته، مبينا انسحابه من السياسة للاقتصار على الكتابة، والاستمتاع بالزهد والتعبد، ولبس الصوف، وترك الغرور، وإيثار المصلحة الدينية على المصلحة الشخصية.[2]

يتضح أن ابن الخطيب يعلن عن برنامجه المستقبلي الجديد لتجاوز عثراته وكبواته التي حالت دون إشباع رغباته المتمثلة في برنامجه السابق الغير المصرح به علنا، والذي تركز على الاهتمام بالحياة الدنيوية، والتفكير في مستقبل الأبناء مع اتخاذ إجراءات احتياطية من ادخار واستثمار بشراء أراضي ودور في مجال أكثر استقرارا وأمنا. ويتلخص المشروع الذاتي الجديد في الإقبال على الحياة الروحية المتمثلة في التصوف باحثا عن الطمأنينة والراحة النفسية. فهل تأثر ابن الخطيب بالرسالة الوعظية للنباهي[3] التي تؤكد كلام ابن خلدون سابقا، إذ تم نقده على اهتمامه بشراء العقار وإقامة البنيان وترك الاستعداد للآخرة ؟

أما ابن خلدون فقد اعتذر في كتابه التعريف عن إحدى أفعاله، المتسمة بالنفعية والأنانية، مبررا ذلك بأنه أقدم عليها لما رأى من اختلال أحوال منصور بن سليمان، وما تبينه من أن مصير الأمور سيكون حتما إلى السلطان أبي سالم الذي جلس بالفعل على

---

[1] نفسه، أوصاف الناس، ص 152 – 156.

[2] الإحاطة، ج 4، ص 445، روضة التعريف، ص 21.

[3] المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص 212.

عرش أبيه في شعبان 760 هـ وعين ابن خلدون في كتابة سره، «وجعله موضع ثقته وعطفه».[1] كما اعترف ابن خلدون بتطلعاته،[2] مما جعله يهاجر إلى الأندلس 764 هـ

نفس الأمر يؤكده ابن مرزوق الذي يعترف باهتمامه بالدنيا، وانغماسه في ملذاتها، وطموحه إلى ما هو أعلى، وانقطاعه عن القناعة والرضى بما كتبه الله له، ويتضح من خلال المناقب[3] تشابه ظروفه مع صديقيه المشار إليهما سابقا.

نستخلص لجوء الشخصيات الثلاث إلى تبرير سلوكهم السابق المتسم بالاستبداد عن طريق ممارسة السياسة بمنافعها وعثراتها، مما أوقعهم في سلوك غير منطقي في كثير من الأحيان، يتسم بالتفكير الآني المصلحي، ويتناقض مع الأخلاق والقيم الدينية.

وترتبط حيلة التبرير بحيلة أو آلية الشعور بالذنب Sentiment de Culpabilité، وقد سبق للغزالي[4] (ت 505 هـ) وابن قدامة[5] (ت 620 هـ) أن تناولا هذا الموضوع في إطار التوبة وشروطها ودوامها.. وتجدر الإشارة أن هذا الموضوع يتضمن تأنيب أو لوم الذات.

و بالفعل نقدر أن ابن الخطيب وابن خلدون وابن مرزوق شعروا بالذنب، مما يدل على حالة عاطفية تتلو فعلا يعتبره الشخص مدعاة للملامة.[6] ويؤدي تمايز الأنا الأعلى، كركن ناقد ومعاقب تجاه الأنا، «فالشعور بالذنب هو ذلك الإدراك الذي يتطابق في الأنا

---

[1] التعريف، ص 75. انظر مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص 55 (من مقدمة المحقق).

[2] نفسه، ص 80.

[3] المناقب المرزوقية، ص 149 – 150، 169.

[4] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء، بقلم بدوي طبانة، ج 4، مكتبة ومطبعة «كرياطة فوترا» سماراغ، د.ت، ص 2-58، خاصة ص 49 – 50. انظر علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 712 (عرض شعبان جاب الله رضوان).

[5] أبو محمد عبد الله المقدسي ابن قدامة، التوابين، حقق نصوصه وعلق عليه عبد القادر الأرناؤوط، دار الإيمان، دار البيان، بيروت، ط 3، 1986 م، ص 105 – 107، انظر علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 1001، 1004، (عرض الحسين محمد عبد المنعم).

[6] جان لا بلانش وبونتاليس، م س، ص 293.

مع الانتقاد الصادر عن الأنا الأعلى».[1] وهذا يذكرنا أيضا بموقف عبد الله بن بلقين خلال القرن الخامس الهجري.[2]

ويتضح هذا الشعور بالذنب من خلال الرسالة[3] السابقة التي بعثها ابن الخطيب إلى ابن مرزوق، فبعدما يعترف بأنه سبق له أن تدنس « بقاذورة الدنيا» يسجل بأن الله ألهمه لنصحه وإرشاده، مشيرا أن «حسنها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرو.. داعيا إياه الله أن يحقر الدنيا وأهلها في عينه إذا اعتبر.. كل من تقع عليه عينه حقير قليل، وفقير ذليل، لا يفضله بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غي، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل، وعروة غيره يفصلها الفاصل.. »، أكثر من ذلك يدعوه إلى الاتكال على الله عز وجل في رزقه.[4]

---

[1] نفسه، ص 294

[2] التبيان، ص 196-197. عندما أشار إلى قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا فقال: «والصبوة تحدث للإنسان هيجانا وهموما: كالمهتم بالنظر في ماله، أو المشغب بمحاولة ما يصلحه :.. والنفس تواقة: متى سمحت إلى مرتبة، تاقت إلى ما فوقها ; فالعاقل يرى أن كل كد وطلب دون السعي في طلب ما، لابد منه من قوام العيش فخر وأشر ورغبة وحرص.. .والانسان ولو أن له الدنيا أجمع، لم يكن له منها زائدا إلا حظ العين الذي يستوي به فيه مع غيره من الناظرين، فسلم من تبعاته، وتورط هو في حسابه وأوزاره، وما كان إلى انقطاع ونفاد، فحقيق على اللبيب أن يزهد فيه ; لو آلت حاله إلى السلامة بعد ذهابه، لا عليه ولا له : فكيف، وهو قد أيقن بالفناء وبعده الحساب والجنة والنار؟»

واجدني في كثرة المال، بعد تملكي عليه مع ذهابه، أزهد مني فيه قبل اكتسابه، مع شغوف الحال إذ ذاك على ما هي عليه الان، وكذلك شاني كله في كل ما أدركته قبل من الأمر والنهي، واكتساب الذخائر، والتأنق في المطاعم والملابس والمراكب والمباني، وما شاكل من الأحوال الرفيعة التي نشأنا عليها، حتى إنه لم يبق من ذلك ما تتمناه النفس، وما لا تظنه، إلا وقد بلغنا منه الغاية، وتجاوزنا فيه النهاية : ولم يكن عند الحصول عليه ينقطع ويذهب وشيكا، فتطول عليه الحسرة، ويعد من جملة الأحلام ابل، تمادى برهة من عشرين عاما، وما كان قبله يكاد أن يوازيه، إذ ربينا في حجره، ووجدتني بعد فقد هذا كله، على الولد أحرص مني على ما سواه من كل ما وصفنا، لعدمه ذلك الوقت ; وقلت في نفسي: «الغاية التي إليها يسعى الناس من أمر دنياهم، قد أدركناها، وشهرنا بها في الآفاق، ولابد من فقدها، باكرا كان أو مؤخرا، بحياة أو موت ! فتحسب هذه العشرين عاما هي مائة عام، إذا تمت سواء، وكأن لم تغن بالأمس ونحن الآن جدراء بالنظر فيما نبتغيه»

[3] الإحاطة، ج3، ص 123 – 126.

[4] نفسه.

كما يدعو الله أن يطهر أيديه وقلبه، خاصة وقد تقدم في السن، وانتشر الشيب في رأسه، واعترف بأخطائه بعدما اكتشفها، نادما على ما اقترفه من إثم.[1] وأبرز الكتاني أن ابن الخطيب تعلق قلبه بالتصوف منذ حلوله بالمغرب، إلا أنه ندم على عدم التزامه بسلوك الزهاد المتصوفة في غمرة شواغل الدنيا وفتنة الحياة[2]. يقول لسان الدين: « وكنت وصلت إلى المغرب، ولي ورد من الليل، ووظيفة من الذكر، وحظ من الخير، ضايقني في ذلك كله فضول القول والعمل، فهجرت السبحة، وطلقت الورد، وماطلت الفرض بوقته، وعمرت الزمان بما لا يغني عني من الله من شيء».[3]

وينفجر هذا الشعور أثناء إصابة الفرد بالمرض أو محنة، إذ يحضر الإحساس بضرورة التوبة والتراجع عن كل التصرفات المشينة التي ارتكبت فيما مضى.[4]

في نفس السياق شعر ابن مرزوق أيضا بالذنب على الحالة التي أصبح عليها، والتي وصفها بالخسيسة والعصيان والاحتكاك بأهل الخسارة، متحسرا على الفترة التي كان يقضيها في الرباطات، حيث الذكر والتلاوة والانغماس في اللذات المعنوية الروحية، والاحتكاك بأهل الزهد والشرف،[5] والتي لم يستمر فيها.

واعتبر أن العقاب والمحن التي أصابته كانت نتيجة تخليه عن النهج القويم المرتبط بالزهد والذكر والتصوف، والارتماء في أحضان الدنيا الفانية، وخدمة الدولة وما ارتبط بها من سلوك غير خاضع لضوابط دينية ولا أخلاقية.[6]

وقد عبر ابن مرزوق على عزمه في إصلاح أحواله داعيا الله عز وجل إلى تخليصه مما هو فيه وإنقاذ وحلته وذريته..

---

[1] نفسه.

[2] روضة التعريف، ص 54. انظر أبو حامد الغزالي، مكاشفة القلوب، مختصر من المكاشفة الكبرى، حقق نصوصه وخرج أحاديثه أبو عبد الرحمان صلاح محمد محمد عويضه، (د ت ودون م ن)، ص 12-13. (نسخة إلكترونية).

[3] نفسه، ص 53. انظر أعمال الأعمال، القسم الثاني، تحقيق بروفنسال، ص 316.

[4] رحلة ابن خلدون، ص 130 – 132. محمد حقي، الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، م س، ص 24.

[5] المناقب، ص 221.

[6] نفسه، ص 253.

فصارى القول إن العناصر الثلاثة لجأت إلى حيلة التبرير لإضفاء تفسير منطقي لبعض سلوكها الغير أخلاقي، والمتسم أحيانا بالاندفاع وطغيان الشباب، وبالأنانية والنفعية الهادفة إلى المصلحة الخاصة. في غياب رؤية واضحة تستحضر القيم السامية والمصلحة العامة وتتسم بالحزم والحذر. كما استخلصنا انطلاقا من بعض النصوص شعورهم بالذنب بسبب انغماسهم في اللذات الدنيوية، وغياب القناعة والرضى، وعدم التزامهم– حسب ما سجلوه - بسلوك الزهاد المتصوفة.

❖حيلة الانسحاب:

تعد آلية الانسحاب استجابة شائعة للتهديد، وحينما يختار الناس الانسحاب فهم يختارون ألا يفعلوا شيئا، وغالبا ما يصحب هذا الشعور الاكتئاب وعدم الاهتمام، وهي آلية يستخدمها الفرد كوسيلة لمواجهة حالات الإحباط والتهديد من خلال الابتعاد عن تلك المواقف، وعدم مواجهة المشكلات أو المواقف الخطرة.[1]

و ألف الغزالي كتاب آداب العزلة[2] تناول فيه اختلاف الناس من حيث تفضيل العزلة أو المخالطة، وحجج كل فريق من وجهة نظره، وتضمن هذا الحديث عن العزلة والمخالطة إشارة لبعض المفاهيم النفسية هي مفهوم الانسحاب الاجتماعي، وسيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة. لكننا نسجل أن الغزالي يشير إلى العزلة كسلوك أو موقف اختياري، بينما نقصد هنا آلية الانسحاب الاضطراري وقد يكون لاشعوريا.

ويرى بعض الباحثين أنه عندما يكون الدافع المحيط قويا جدا، والعائق شديدا لا يمكن التغلب عليه بأي حال، ومع استمرار الإعاقة لفترة طويلة، في هذه الحالة يحدث الشعور بالانسحاب واللامبالاة.[3]

ومن الأسباب التي أدت إلى انسحاب ابن الخطيب أنه يئس من حياة السياسة وصروفها، وتغير النفوس عليه لما بلغه من مكانة واستقلال في النظر وبسطة في النفوذ،

---

[1] علم النفس العسكري، ص 310.
[2] علم النفس في التراث الإسلامي، ج 2، م س، ص 699.(عرض شعبان جاب الله رضوان).
[3] علم النفس العسكري، نفسه.

فكثرت السعايات، وتنكر له من كان هو سببا في تقريبهم ورفع جاههم، وسيطر الحسد على بعض النفوس، ولم يكن هو غافلا عما يجري من حوله.[1] ويبرز من رسالته إلى ابن مرزوق أن المناصب التي تولاها والقرب من رجال الحكم والسلطة قد أدى إلى زيادة الحساد، وأصحاب القلوب الفاسدة، كما نتج عنه مواجهة الأعداء المستأسدين، يقول: «وإن وجدت في القعود بمجلس التحية بعض الأريحية، فليت شعري أي شيء زادها، أو معنى افادها، إلا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، مواجهة العدو المستأسد...».[2]

في هذا السياق يخبرنا ابن الخطيب بأنه خلال منفاه الأول قرر الانسحاب من الحياة السياسية لينصرف إلى التصوف، وخلال هذه المدة اعتذر عن قبول عرض قدمه له السلطان المريني، ويتعلق بوظيفة سامية لا يحدد الكاتب ماهيتها، ولكنها تدخل في إطار وظائف القلم على ما يفهم من قوله: «أقصى ما تنتهي إليه وسائل الأقلام»، وهدف ابن الخطيب من هذا الانسحاب الراحة والفرار من هفوات الغير والابتعاد عن المنافسين وأصحاب القرار.[3]

كما فكر ابن الخطيب في الانسحاب لما تأكد من تغير وضعه مع بداية 770هـ، إذ أحس بنجاح سعايات خصومه خاصة النباهي وابن زمرك[4]، يؤكد ذلك ما سجله في رسالة إلى ابن خلدون من استيلاء سوء المزاج المنحرف عليه، وتوالي الأمراض، وعوز العلاج.. ولجأ إلى تعويض ذلك بالتأليف مع الزهد في ربيع الثاني771 هـ.[5]

يتأكد هذا الانسحاب أيضا من إحدى رسائل ابن الخطيب،[6] حيث ورد على سبتة في جمادى الأخرة 773 هـ تاركا أعباء الوزارة بالأندلس، مفارقا المال والولد والجاه، فارا إلى ما يرجوه من حياة هادئة مطمئنة في ظل السلطان أبي فارس عبد العزيز. وقد كانت هجرته تلك – حسب إحسان عباس –وليدة أزمة نفسية طالت به معاناتها إلى أن وضح له المنهج واستبانت الطريق.

---

[1] أوصاف الناس، ص 153، 155 – 156.

[2] نفسه، ص 152، محمد البركة وسعيد بنحمادة، م س، ص 74.

[3] أوطيل، المرجع السابق، ص85.

[4] روضة التعريف، ص 21-22.

[5] - رحلة ابن خلدون، ص 117.

[6] لسان الدين ابن الخطيب، أوصاف الناس، ص 151. والكتيبة الكامنة، ص 7، (من مقدمة إحسان عباس)، النفح، ج 7، ص 80.

وهذا الانسحاب المتمثل في هجرة البلاط النصري، والأندلس ككل، ليس حدثا عاديا في المسيرة السياسية لابن الخطيب، بل هو صورة مختصرة عن طبيعة العلاقة بين خدمة الدولة، بين مرحلتي القوة والضعف، وتراوحها بين التودد والانتقام. فأن يلتمس ابن الخطيب من سلطانه إقالته وتمكينه من تحقيق رغبته في الهجرة أو الرحلة، أمرا ليس سهلا، خاصة وأنه كان طامحا متمسكا بمكانته داخل البلاط، مما يعني أن ابن الخطيب كان على علم بأن ما وقع لغيره على يده، سيقع له عند ترهله وكبره.[1] فلما «كانت له الأيام مسالمة، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه، فلما قلبت الأيام له ظهر مجنها، وعاملته بمنعها بعد منحها ومنها، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة، والقول بالحلول والاتحاد، والانخراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد، مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، ولا يدين بها ويفوه إلا الضال الغوي».[2]

وقد صور دواعي هذه الأزمة في رسالته إلى الغني بالله حين فارقه،[3] وفي رسالة إلى ابن خاتمة حين عذله على اعتزام الهجرة، وفي كتابه "أعمال الإعلام"، وفي مقدمة الكتيبة الكامنة. فتحدث عن رغبته في الراحة والذهاب إلى مكة وإيثاره للآخرة على الدنيا:[4] «وأنا قد رحلت، فلا أوصيكم بمال، فهو عندي أهون متروك، ولا بولد فهم رجالكم، وخدامكم، وممن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم، ولا بعيال، فهي من مربيات بيتكم، وخواص داركم، .. إنما أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجد، والحياء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها، وأطلب منكم عوض ما وفرته عليكم من زاد طريق، ومكافأة، وإعانة، زادا سهلا عليكم، وهو أن تقولوا لي: غفر الله لك ما ضيعت من حقي خطأ أو عمدا، وإذا فعلتم ذلك فقد رضيت».[5]

---

[1] محمد البركة وسعيد بنحمادة، م س، ص 54 – 55

[2] نفسه، نقلا عن المقري، النفح، 5/ 118 – 119.

[3] رحلة ابن خلدون، ص 130 – 132.

[4] الكتيبة الكامنة، ص 8، النفح، ج 8، ص 143، التعريف، ص 148 – 149.

[5] رحلة ابن خلدون، نفسه.

وقد جاء هذا النص في سياق السعاية ضده والتي لم تفتر، حيث قام النباهي بإصدار فتوى توجب حرق كتبه، لأنها تنطوي في رأيه على الزندقة، فحرقت وصودرت أملاكه، وأبى سلطان المغرب تسليمه. ولستخلص منه حالة الإحباط التي أصبح يعاني منها لسان الدين، إذ حالت الأوضاع «دون إشباع مطالبه النزوية أو حاجاته التي لم تلق الإشباع».[1]

وآثر ابن خلدون أيضا الانسحاب من السياسة والعزوف عن الوظائف والاهتمام بالعلم والتدريس[2] حينما عانى من الإخفاق وخيبة الأمل،[3] إذ لجأ إلى فاس في 774 هـ بعدما تغيرت أحواله ببسكرة، وبعدما فشل في استعادة مركزه في بلاط فاس ثانية، اضطر إلى السفر إلى الأندلس 776 هـ - 1374 م،[4] والتمس من الفقيه أبي عبد الله بن زمرك بإجازة أهله وأولاده إلى غرناطة. إلا أن أهل الدولة في فاس تنكروا لذلك، بسبب استقراره بالأندلس، واتهموه بحمل السلطان ابن الأحمر على الميل إلى الأمير عبد الرحمان، ومنعوا أهله من اللحاق به، بل خاطبوا السلطان ابن الأحمر في تسليمهم ابن خلدون، فأبى من ذلك.[5] إلا أنه سيلجأ إلى تلمسان وسيلتحق به أهله وأولاده من فاس، وذلك في عيد الفطر 776 هـ وأخذ في بث العلم، ثم استقر في قلعة ابن سلامة مبتعدا عن ممارسة السياسة، فأقام بها أربع سنوات ألف فيها المقدمة.[6]

وتؤول هذه العزلة بالانسحاب، لاسيما وأنه تعب وأرهق، وأصيب بمرض خطير، واغتيل أخوه بدناءة وهو كبير الوزراء في تلمسان، مما دفعه إلى التقزز من الحياة السياسية.[7]

---

[1] جان لا بلانش وبو نتاليس، م س، ص 47.

[2] التعريف، ص 244، نقلا عن العصبية والدولة، ص 56.

[3] رحلة ابن خلدون، ص 187. طه حسين، المرجع السابق، ص 20- 21. «إلا أنه لم يلق في هذه المرة من سلطان غرناطة ما كان يؤمل من المعاضدة، إذ كان السلطان مضطغنا عليه، لأنه سعى وهو بفاس في مساعدة وزيره المنفي، هذا فضلا عن أن بلاط فاس حذره من دسائس ابن خلدون، لذلك اضطره إلى العودة إلى العباد بتلمسان ليشتغل بالعلم والتدريس بإفريقية. الجابري، نفسه. وقبض عليه سلطان تلمسان إلا أنه عفا عنه.»

[4] نفسه. الجابري، نفسه.

[5] نفسه، ص 186

[6] نفسه، ص 187.

[7] العلامة ابن خلدون، ص 72.

كما أدت الغيرة والسعاية أحيانا إلى انسحاب الفرد. فقد عانى ابن خلدون بإفريقية من غيرة وسعاية محمد بن عرفة - إمام الجامع وشيخ الفتيا- صحبة بطانته، فألبوا السلطان ضده،[1] لذلك التمس من الأخير الانسحاب وذلك بالإذن له بالسفر لقضاء الفرض سنة 784 هـ[2]

لقد كانت لهذه المحن انعكاسات وخيمة على نفسية ابن خلدون، مثل ما كان لها تأثير على لسان الدين، الأمر الذي يدفعنا إلى افتراض إصابته أيضا بالإحباط، فلجأ إلى الانسحاب، فاعتزل العمل السياسي بعدما تكبد الكثير من أشكال العقاب، سواء المادي أو النفسي.

نستخلص أن العوائق المتعددة والإخفاقات المتكررة شكلت حاجزا نفسيا أمام تلبية وإشباع رغبات الشخصيات الثلاث، مما دفعنا إلى افتراض معاناتهم من الإحباط، لذلك اتخذوا حيلة دفاعية تمثلت في الانسحاب خاصة من العمل السياسي الموبوء، والزهد في الوظائف، والتفكير في الإقبال على العلم والتصوف.

❖ النكوص: النزعة الصوفية: Regression

يدل النكوص ببساطة على عودة الشخص إلى مراحل سبق له أن تجاوزها في نموه، فهو يعتبر في أغلب الأحيان كعودة إلى أشكال سابقة من النمو والتفكير والسلوك. ويعني لفظ نكص مشى عائدا إلى الوراء، وهذا ما يمكن تصوره بمعنى منطقي أو مكاني، أو زماني على حد سواء.[3]

وغالبا ما أصر فرويد على واقعة بقاء الماضي للفرد -خاصة الطفولي-، كما للإنسانية حيا فينا على الدوام، فبالإمكان استعادة قيام حالات الماضي من جديد. فالنفسي البدائي غير قابل للفناء حسب نظريته. ويتضح انبثاق الماضي في الحاضر تماما في فكرة اضطرار التكرار.[4]

---

[1] رحلة ابن خلدون، ص 190، 198.

[2] نفسه، ص 199.

[3] لا بلانش وبونتاليس، ص 555.

[4] نفسه، ص 557.

ويعتبر علماء النفس أن هذا الأسلوب عبارة عن حيلة للدفاع عن الذات أمام الضغوط والعوائق التي تقف أمام إشباع الحاجات أو تلك التي تشكل مصدرا للتهديد.[1]

لذلك نعتبر تساؤل أحد الباحثين[2] فيما إذا كان التصوف شكل حيلة نفسية لتخفيف أو لتجاوز الفشل والتوتر اللذين عانى منهما ابن خلدون سؤالا مشروعا سنحاول الإجابة عنه بفرضية من خلال هذه المحاولة، مضيفين ابن الخطيب وابن مرزوق أيضا كما سنرى.

يتضح أن العناصر الثلاثة لما عجزوا عن التعامل مع الوضع الجديد المتقلب والغير المستقر، والذي انعكس على مختلف أوضاعهم سلبا، أصيبوا بخيبة أمل ويأس وإحباط. مما دفعنا إلى افتراض تراجعهم إلى مستوى وسلوك سابقين لإثبات ذواتهم من جديد، لتجاوز شعورهم بالعجز والفشل، إضافة إلى تجنبهم المخاوف والرعب والاهتزازات النفسية الصعبة، «التي نشأت من مواجهة بيئة أصبحت تشكل لهم عوائق وإكراهات حالت دون إشباع رغباتهم وحاجاتهم وطموحاتهم».[3]

لذلك نقدر أن التصوف شكل نكوصا لهم، باعتبار أنه سبق لهم أن مارسوه أو قاربوه لإشباع دوافعهم وحاجاتهم، فهو بمثابة «ارتداد إلى أساليب سلوكية ماضية»[4]، هدفوا منها التغلب على حالات الصراع والقلق اللتين عانوا منها، والحصول على السكينة والطمأنينة التي افتقدوها منذ تخليهم عن الورد والذكر والزهد، في غمرة الصراعات والمؤامرات والسعايات التي ميزت حياة البلاطات على مر العصور.

ونفترض أن هذا الارتداد وهذا الميل إلى التصوف يتجلى بوضوح في كتاب روضة التعريف الذي يمدنا بدوافع تأليفه،[5] والهدف منه رضى الله وحبه[6]، وهو شديد الصلة بابن الخطيب نفسه، عميق التأثير في حياته وتحديد مصيره، قدمه للسلطان أبي عبد الله محمد بن يوسف

---

[1] علم النفس العسكري، ص 307.

[2] أومليل، المرجع السابق، ص79.

[3] علم النفس العسكري، ص 306.

[4] نفسه، ص 307.

[5] روضة التعريف في الحب الشريف، ص 38 (مقدمة المحقق)

[6] نفسه، ص 39

الملقب بالغني بالله (ت 792هـ)، والكتاب صورة لنزعة ابن الخطيب في هذه المرحلة من حياته، وهو يشعر بإصر الحياة على ظهره، ورغبته في الخلاص من ذلك كله.[1] كما يتجلى في كتاب الزواجر والعظات الذي يعد ملحقا لأوصاف الناس، وقد استشهد في كثير من أفكاره بأحداث الدهر ونكباته، جاعلا من تجربته الشخصية مجالا للتنظير في هذه الحياة، واضعا هذه التجربة في متناول الاستيعاب، عبرة للآخرين.. وقد كانت الأغراض من كتب الزواجر والعظات التذكير بالآخرة، وحث الهمم للتزود لها، والإشعار بالوعد والوعيد في يوم الحساب[2]. أما رسائله فإن الغاية التي قصدها ابن الخطيب هي والترهيب والتزهيد في متاع الدنيا[3].

وقد كشف ابن الخطيب عن هذا التحول النفسي والسلوكي– كما رأينا - حين كتب إلى الشيخ أبي عبد الله ابن مرزوق رسالة[4]، يستخلص منها تذمره من العمل السياسي ورغبته في

---

[1] نفسه، ص 21، وكان لسان الدين قد توقع مصيره المحزن، فقال:

بعدنا وإن جاورتنا البيــوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكــتــت دفعــة	كجهر الصلاة تلاه القنــوت
وكنا عظاما فصرنا عــظــاما	وكنا نقوت فها نحن قــوت
وكنا شموس ســمــاء العلا	غربن فناحت عليها البيوت
فكم جذلت ذا الحسام الظبا	وذا البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خــرقــة	فتى ملئت من كساه التخوت

ابن الخطيب، أوصاف الناس، ص 12، (من مقدمة المحقق كمال شبانة).

وأضاف:

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	فقل يفرح اليوم من لا يموت
فمـن كـان يفـرح منهـم لـه	فقل يفرح اليوم من لا يموت

ابن الخطيب، نفسه، ص 13.

[2] ابن الخطيب، أوصاف الناس... ص 11، (من المقدمة).

[3] نفسه، روضة التعريف، ص 58 – 59يقول ابن الخطيب: "... وفي كل أونة وساعة، وأثناء كل تفرد وخلوة، بعد أن كبر الولد، واستراح من هم الحرص الخلد، أخاطب نفسي فأقول لها: يا مشؤومة، أما تشعرين لما نزل بك، حملت هذا الكل على ضعفك، وأوسعت هذا الشغب في فكرك، وعمرت بهذه الحظوظ حظ ربك"

[4] الكتيبة الكامنة، ص 10، الإحاطة، ج3، ص118 – 123، النفح، ج 7، ص 72 – 77، أوصاف الناس، ص 152 – 156، يقول: " ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا، وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وأفرض المثال لحالة إقبالها، ووصل حبالها، وضراعة سبالها، وخشوع جبالها، التوقع المكروه صباح مسا، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم الباسا، ولزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤسا.. وظعينة جار الجنب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب". "وما الغاية في فرش تحتها جمر الغضا، ومال من ورايه سوء القضا، وجاه يحلق عليه سيف منتضا، وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك... هل التذت إلا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور مجاذب...ويضمر الشرك ولرسيك، وأي راحة

تغيير اهتماماته، بالتركيز على التفكير في المآل، كما يتبين الدعوة إلى العودة إلى الذات، وإلى الله عز وجل. وهذا التصريح يدل على الحقيقة النفسية الكامنة التي كانت تتعلل بالماضي والمستقبل. أما الماضي لاسيما السيامي فقد انتهى بالنسبة له بالانسحاب، وأما المستقبل فسوف يكون هجرة إلى الله تعالى، وزيارة لمكة وقبر الرسول (ص).[1] لكن هذا المستقبل هو في الواقع يشكل عودة إلى الماضي، إذ سبق له أن اتعظ ببعض الأحداث، مما دفعه إلى ممارسة سلوك المتصوفة من زهد وذكر و..

يقول: «وما أنا إلا عابر سبيل، وهاجر مرعى وبيل.. قد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد، وحاولت المقاطعة، حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي، وله الحمد، من الطمع والحسد، فلم أبق عادة إلا قطعتها، ولا جنة للصبر إلا ادرعتها.أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما في أيدي الناس فمعروف، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف.».[2] ويتمنى ابن الخطيب من خلال هذه الرسالة[3] الراحة والخلوة والابتعاد عن الموبقات، ويؤكد ذلك في رسالة جوابية إلى ابن خاتمة.[4] و في رسالة أخرى مركزا على الاجتهاد في الابتعاد عن اللذات، مستشهدا بعدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية.[5]

تلك صورة دقيقة عن نفسية ابن الخطيب وأزمته، يصفها بنفسه، ولم يكن بد من أن تدفعه إلى الفرار بنفسه[6]، والبحث عن حيلة دفاعية ضد الإحباط.

لمن لا يباشر قصده، ويسير متى شا وحده...والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لأهلها، فما أركس حظوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناؤهم..»

[1] نفسه.

[2] الإحاطة، نفسه.

[3] روضة التعريف، ص 59 (انظر أعمال الأعلام ص 314 – 317)

[4] نفسه، ص 52، أزهار الرياض، ج 1، ص 260 – 270، يقول بعد أن رجع إلى الأندلس وقبل الوزارة، واشتهر عنه ما اشتهر من الانقباض عن خدمة سلطانه مما حسبه البعض تيا عليه، فكتب إليه ابن خاتمة يصرفه عن ذلك، فيجيب ابن الخطيب«.. والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة، والتوبة بفضل الله عزوجل منقودة، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق، وقد رق لدغتها ألف راق، وجمعتني بها الحجرة، فما الذي تكون الأجرة جل شاني، وإن رضي الوامق وسخط الشاني، وإني إلى الله مهاجر، وللعرض الأدنى هاجر»

[5] أوصاف الناس، ص 162- 163.

[6] روضة التعريف، ص 59 (من مقدمة المحقق).

نستلنج من خطاب لسان الدين إلى ابن مرزوق وخدمة الدولة إيمانه بالانسحاب من العمل السياسي، والإقبال على العمل الذي يخلص صاحبه من الذنوب والآثام،[1] وذلك بالسعي إلى الزهد في الحياة،[2] والسلوك المنهج المرتكز على النصيحة، والذي يتلازم مع الترهيب والتخويف من الملذات الدنيوية. وقد علق ابن مرزوق عليها حين قرأها بقوله «العجب كل العجب أن جميع ما خاطبني به – أبقاه الله تعالى – تحلى به أجمع، وابتلي بما منه حذر، فكأنه خاطب نفسه وأنذرها بما وقع له».[3]

أما ابن خلدون فنفترض أن نكوصه يبرز من خلال نصوص بالمقدمة والتعريف، هذا الأخير الذي يشير فيه إلى أن أحد أجداده قد أدى فريضة الحج سنة 718 هـ وأظهر التوبة والإقلاع، وعاود الحج سنة 723 هـ، ولزم بيته، وامتنع مرارا من تقلد حجابة السلطان أبي يحيى.[4] وتبرز هذه الإشارة تحولا جذريا في مصير الأسرة بتركها السياسة لتتجه إلى العلم المتصل أوثق الصلة بالتصوف.[5] أما محمد أبو بكر -والد عبد الرحمان صاحب المقدمة – فقد أبعده أبوه عن العمل السياسي والتطلع للوظائف السامية، ووجهه إلى طريق العلم والرباط، حيث درس على يد الفقيه أبي عبد الله الزبيدي (ت 740 هـ) الذي كان كبير تونس لعهده في العلم والفتوى، «وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه، وهو والدي رحمه الله فقرأ وتفقه.. وهلك في الطاعون الجارف سنة 749 هـ».[6]

لذلك سيحاول صاحب المقدمة البحث عن حل لمشاكله النفسية والمادية الآنية، وتجاوز الإكراهات والعوائق التي اعترضت سبيله، وحالت دون إشباع رغباته، وهو ما سيعيده إلى مرحلة سابقة، سبق له أن خبرها نسبيا حسب ما نعتقد انطلاقا من تأثير العائلة، إلا أنه لم يستمر في نهجها، الأمر يتعلق بالتصوف.

---

[1] النفح، ج 7، ص 75.

[2] نفسه، ص 77.

[3] انظر الهامش السابق، 494.

[4] التعريف، ص 35.انظر أبو زكرياء يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 1، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011 م، ص 6.(من مقدمة المحقق).

[5] بغية الرواد، نفسه. أومليل، م س، ص 78.إيف لاكوست، م س، ص 46

[6] التعريف، نفسه، ص 36.بغية الرواد، نفسه.

ونقدر من خلال بعض النصوص[1] ميل ابن خلدون للتصوف، إذ وظف مصطلحات ذات دلالة صوفية واضحة مثل المجاهدة والرياضة والمقامات، وانخرط في خصومة شغلت علماء ومتصوفة عصره كثيرا، حول مسألة الشيخ، فألف بالمناسبة شفاء السائل،[2] وخصص بعد ذلك فصلا في المقدمة للتصوف، «كما أن القرن الذي عاش فيه العناصر الثلاثة طبعه تيار قوي من الصوفية والطرقية، مما جعل العلماء يتحولون نحو التصوف». فقد عرفت الفترة استمرار التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي ساد منذ بداية القرن السابع الهجري، انعكس على مختلف الطبقات خاصة الدنيا، فبرزت دعوة إلى التجرد من الدنيا وزينتها،[3] إضافة إلى العفة والزهد في شهوات النفس، والارتقاء بالإنسان من الخطايا والمعاصي إلى الأخلاق الفاضلة.[4]

ويتضح بصفة عامة - بالرغم من بعض التموجات التي طبعت مواقفه – أن ابن خلدون ركز على التصوف الذي يتساوق مع الكتاب والسنة، والذي هو ثمرة للعبادة والإخلاص فيها، كما في مجاهدة التقوى، ومجاهدة الاستقامة.[5]

أما ابن مرزوق فيبدو من خلال تناوله لسيرته الذاتية بالمناقب المرزوقية ميله نحو الزهد والتصوف، فقد استحضر سيرة سلفه الصالحين المنقطعين للعبادة والمبتعدين عن السلطة ورموزها، والنابذين للدنيا وزينتها، كما استحضر سيرته وانكبابه على التحصيل العلمي قبل الارتماء في أحضان السلطة.[6] يقول: «وكان لي سلف صالح متجرد لطريق

---

[1] نفسه، ص 144 – 145. الجابري، م س، ص 56.

[2] أومليل، المرجع السابق، ص 79. انظر شفاء السائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، 1417 هـ / 1996 م، ومحمد بن تاويت الطنجي، شفاء السائل لتهذيب المسائل، اسطانبول، 1978 م.

[3] انظر أبو العباس أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر،، بيروت، ط 1، أبريل 1969م، ص 64، نقلا عن الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و 7الهجريين / 12و 13ميلاديين، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م، ص 97.

[4] الطاهر بونابي، نفسه، ص 100.

[5] عمار الطالبي، موقف ابن خلدون من التصوف، ضمن الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 140، ط 1، 1427 هـ/ 2007 م، ص 55.

[6] المناقب، ص 119. (من مقدمة المحققة).

الأخرة، ومرتفع بهمته الكبيرة عن زينة الدنيا الدنية الفانية، كما أنه كان لي قبل التوغل في هذا المقام، الذي سبق القضاء الذي لا محيد عنه ولا انفصام، الانقطاع لخدمة الكتاب والسنة، وكثير من العلوم الشرعية».[1] ويتمنى ابن مرزوق أن يكون له في باقي عمره فضل العاملين السابقين، وأن يبتعد عن الملوثات الدنيوية والتركيز على الحياة الأخروية.[2] ودعا ابن مرزوق الله أن يرده إليه ردا جميلا، وأن يستعمله فيما بقي من عمره في خدمته، وأن ييسر عليه الانتقال إلى حرمه، وحرم رسوله (ص) بفضله ومنه.[3]

كما أشار إلى إحدى كرامات جده أبي عبد الله ابن مرزوق،[4] إضافة إلى إشارته لأحد شيوخه بأنه كان أصح خلق الله باطنا، وله كرامات.[5] و ترجم لكثير من الأولياء الذين لقيهم، والذين يشير إلى أنه ذكرهم في برنامجه..[6]

يستخلص مما سبق الأسباب الفعلية التي أدت بهذه العناصر الثلاثة إلى النكوص ومن ثمة إلى التصوف، فقد تعرضت لفقد المال والامتيازات والممتلكات من ضياع وغيرها، كما فقدت الحظوة والتدبير السياسيين، وأصيبت بالقلق والحزن والغم، فأحبطت وتصوفت وزهدت آخذة العبرة من الماضي وتقلباته خاصة في الممارسة السياسية، فعزفت عن الوظائف، وقدمت نصائح لبعضها البعض ولأبنائها بالابتعاد عن السياسة وبعدم الاغترار بالأوضاع، لأنها تنقلب رأسا على عقب.

لذلك شكل التصوف رد فعل لنفوس تروم إنقاذ صفائها ضد سلطان البدع، أي ضد الانفصام المتفاقم بين المجتمعي والديني، بين الدنيا والدين،[7] وتجلى هذا في سيرة ابن

---

[1] نفسه، ص 140.
[2] نفسه.
[3] نفسه، ص 142.
[4] نفسه، ص 152.
[5] نفسه، ص 298.
[6] نفسه، ص300 – 301.
[7] أومليل، م س، ص 187.

خلدون حيث انقلب من الولع بالعلوم العقلية إلى رجل ذي ميول صوفية، معرض عن الفلسفة وقضاياها، مؤثر العزلة للتأمل والتفكير والمطالعة والتدريس.[1]

لذلك يتضح أن انقلاب ظروف حياة العناصر الثلاثة وتغير ظروف بيئتهم التي عاشوا فيها، قد اضطرهم إلى تغيير نشاطهم بالإقبال على التصوف، باحثين إشباع كثير من رغباتهم وحاجاتهم الروحية بالخصوص، ويسجل ابن مسكويه أن كمال الإنسان في اللذات المعنوية،[2] لذلك وجب عليه الابتعاد عن التركيز على اللذات البدنية، وعدم جعلها غايته وأقصى سعادته، حتى لا يصير عبدا للنفس الدنيئة.[3]

---

[1] العصبية والدولة، ص 67.

[2] تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص 35-38.

[3] نفسه، ص 36.

خاتمة

استنتجنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة ضرورة استعانة المؤرخ بمختلف مناهج العلوم الإنسانية خاصة علم النفس وعلم النفس الاجتماعي في البحث التاريخي، وذلك للتمكن من سبر أغوار الظواهر والنفس الإنسانية. وفك لغز وفهم بعض الإشكالات والقضايا، واكتشاف الدوافع الحقيقية لبعض القرارات والإجراءات. واستكناه الرغبات والحاجات النفسية والأبعاد العاطفية للفاعلين من مختلف الشرائح الاجتماعية.

لذلك وجب على المؤرخ التمكن من أدوات البحث وتقنياته لاسيما أدوات المنهج النفسي، قصد المساهمة في تجديد الكتابة التاريخية.

و استخلصنا توفر بعض المصادر على معطيات تحمل في طياتها مضامين ودلالات نفسية تحتاج إلى تطبيق المنهج السيكولوجي لسبر أغوارها واستنطاق كنهها.

وإذا كنا قد أشرنا في خاتمة الباب الأول إلى بعض الخلاصات التي استنتجناها إضافة إلى اقتراحنا بعض الآليات النفسية التي من شأنها تفسير بعض السلوك كظاهرة الاقتداء والتماهي، وآلية الهو، والسادية، إضافة إلى آلية التعويض والاستمهاء وغيرها، فإننا في الباب الثاني حاولنا الاقتراب من فهم سلوك شخصيات ثلاث لعبت دورا هاما خلال القرن 8 هـ/ 14 م، معتمدين على سيرهم الذاتية (الأوتو بيوغرافية) وعلى مصادر متنوعة، حيث أمدتنا بنصوص دفعتنا إلى افتراض تميزهم بالعجب بالذات، وذلك انطلاقا من مؤهلاتهم الشخصية المتمثلة في الكفاءة والثقة والقبول والتفوق في مجال الكتابة والتدبير، ساعدتهم في ذلك الظروف الاجتماعية المتميزة والمتمثلة في انتمائهم إلى أسر مثقفة، ميسورة ماديا، تركت لهم أملاكا، ووفرت لهم تعليما ذا جودة بفعل التكوين العلمي الرصين لشيوخهم، فأهلهم للاحتكاك بشخصيات علمية ذات صيت، مما أحسهم بالفخر والاعتداد بالنفس، فتميزوا بدوافع الطموح والرغبة في العيش الرغيد، فأصبحوا كتابا وشعراء ومفكرين برعوا في مختلف المجالات، فقربهم الأمراء والسلاطين، وكلفوهم بمهام سياسية وإدارية وهم في سن الحداثة.

وتجلى ذلك العجب في حب الاستعلاء والسيطرة الذي برز في كتابة السير الذاتية، والحديث عن النسب والافتخار به، والتطلع للمناصب العليا، والسخرية والازدراء بالآخرين..

و اشتدت المنافسة بين النخبة لتقلد المناصب العليا، فكثرت السعايات والمؤامرات، وشاركت العناصر الثلاثة فيها، فاكتوت بنارها، الأمر الذي حال دون إشباع جميع رغباتها، فتعرضت للإحباط الذي تجلت مظاهره في عمل الحداد والقلق، إلا أنها لجأت إلى ميكانيزمات أو آليات دفاعية تمثلت في التبرير والشعور بالذنب والانسحاب والنكوص: العودة إلى الذات والرجوع إلى الله (النزعة الصوفية).

قصارى القول، إننا حاولنا من خلال هذه الدراسة تسليط أضواء أولية قد تتطور إذا ما تمكن الباحثون من العدة والأدوات التي تمكنهم من تطبيق هذا المنهج في الأبحاث المقبلة، وإذا ما تعاونوا مع زملائهم الأخصائيين النفسيين.

البيبليوغرافيا:

المصادر:

❖القرآن الكريم

❖ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي الأندلسي. (ت 658 هـ/ 1260 م).

-«إعتاب الكتاب»، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ط1، 1380هـ/1961م.

-«الحلة السيراء»، جزآن، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1985م.

-«كتاب الحلة السيراء» لابن الأبار، دراسة عبد الله أنيس الطباع، دار النشر الجامعيين، بيروت، 1381هـ/ 1962م.

-«التكملة لكتاب الصلة»، ج 1، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دار المعرفة، البيضاء، (دون تاريخ). ونسخة من ضبط النص والتعليق عليه جلال الأسيوطي، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط 1، 2008م.

❖ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي، (ت 741 هـ/ 1340 م).

-«الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس». راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1420هـ / 1999م.(وهناك طبعة1972م.)

-«الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية»، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.

❖ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل، (ت807هـ/ 1404 م).

- «مستودع العلامة ومستبدع العلامة»، تحقيق محمد التركي ومحمد بن تاويت التطواني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، بمساهمة المركز الجامعي، مطبعة المهدية، تطوان، 1964م.

-«روضة النسرين في دولة بني مرين»، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1411 هـ- 1991 م.

❖ابن الأزرق، أبو عبد الله (ت 896هـ/ 1491 م).

-«بدائع السلك في طبائع الملك»، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، نشر دار السلام، القاهرة، ط 1، 2008 م.

❖ابن بسام أبو الحسن علي الشنتريني(ت 542هـ/1148م).
-«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، 8أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417 هـ - 1997م، وط 1399هـ/1979م.
❖ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، (ت 578 هـ).
-«كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم»، جزان، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
❖ابن بلقين، عبد الله بن زيري، (خلع483هـ / 1090 م).
- «التبيان - مذكرات الأمير عبد الله-»، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، 1955م.
❖ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، (ت 456 هـ / 1064 م).
-«الأخلاق والسير أو رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل»، تحقيق إيفا رياض، راجعه وقدم له وعلق عليه عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، (د ت). وهناك نسخة من تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1980 م.
-«الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى»، تحقيق إحسان عباس، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1380هـ/1960م.
❖ابن الخطيب لسان الدين، (ت 776 هـ/ 1374 م).
-«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، ج 2، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 م.
-الجزء 3، تقديم وتحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1989 م
-«الإحاطة في أخبار غرناطة»، ج 1، تحقيق وتقديم محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، 1375 هـ/ 1955 م.
-ج 3، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، الشركة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1395 هـ - 1975 م. الجزء 4، ط 1، 1397 هـ - 1977م.
-«أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام»، القسم الثاني، اعتنى بنشره وتصحيحه إ. ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العليا المغربية، الرباط، 1353 هـ/ 1934 م.

-«تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط»، القسم الثالث من كتاب «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام»، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

-«كناسة الدكان بعد انتقال السكان»، القاهرة، 1966 م.

-«ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب»، ج 1، تحقيق محمد عبد الله عنان، الناشر مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1400هـ/1980م.الجزء الثاني، ط 1، 1401هـ/1981م.

-«أوصاف الناس في التواريخ والصلات تلها الزواجر والعظات»، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، اللجنة المشتركة لإحياء التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1977 م.

-«اللمحة البدرية في الدولة النصرية»، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1400 هـ - 1980 م

-« روضة التعريف بالحب الشريف»، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 1970 م.

-« الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة»، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1963م.

❖ابن خلدون، أبو زكرياء يحيى (ت 1379 م)،

-«بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد»، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1903 م.

❖ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الاشبيلي، (ت 808 هـ/ 1406 م)،

-«رحلة ابن خلدون»، عارضها بأصولها وعلق حواشها محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1425 هـ، 2004 م.

-«مقدمة ابن خلدون»، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 3 أجزاء، سلسلة التراث، مكتبة الأسرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 2، 2006م.

-«تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر»، ج 7، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، 1421هـ، بيروت، 2000 م.

-«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، القسم 2، المجلد6، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959م.

❖ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت 681 هـ/1282 م)،
-«وفيات الأعيان في أنباء الزمان»، ج5، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968-1972م.
❖ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الجد(ت 595 هـ/ 1198 م)،
-«بداية المجتهد»، ج2، دار الفكر، بيروت.(قرص مدمج).
❖ابن رضوان، أبو القاسم المالقي، (783 هـ/ 1381 م)،
-«الشهب اللامعة في السياسة النافعة»، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1404 هـ/ 1984 م.
❖ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي، (ت 673 هـ/ 1274 م)،
-«المغرب في حلى المغرب»، ج 1، حققه وعلق عليه شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978م
-«المغرب في حلى المغرب»، ج 2، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1995 م.
❖ابن الشماع أبو عبد الله محمد بن أحمد،
-«الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية»، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984 م.
❖ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد، (ت 594 هـ/ 1198 م)،
-«المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، (تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين)»، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987م.
❖ابن عاصم، أبو يحيى محمد الغرناطي، (829هـ/1426 م)،
-«جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى»، ج 2، تحقيق صلاح جرار، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، 1410هـ-1989م.
❖ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي، (ت 703 هـ/ 1303 م)،
-«الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، السفر1، القسم1 و2، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت،(دون تاريخ).
-السفر 8، ق1 و2، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984م.

❖ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد، (ت 712 هـ / 1310 م).
-«البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب»، جزآن 2 و3، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان وا.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دون تاريخ.
-«البيان المغرب، قسم الموحدين »، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1406هـ/1985م.
❖ابن عطاء الله، أبو الفضل تاج الدين السكندري(ت 709 هـ / 1309 م).
-«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.(د.ت).
❖ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري المالكي (ت 799هـ / 1396م).
-«الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، جزآن، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 2، 1426هـ - 2005م.
-«الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب»، ج 2، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 1423 هـ - 2002 م.
❖ابن القاضي أحمد المكناسي (ت 1025 هـ / 1616 م).
-«جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس»، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973 م
❖ابن القطان، أبو محمد علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي.
-«نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان»، درسه وقدم له وحققه محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990م.
❖ابن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني (ت 781 هـ / 1379 م).
-«المسند الصحيح في مآثرومحاسن مولانا أبي الحسن»، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م.
-«المناقب المرزوقية»، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1429 هـ - 2008 م.
❖ابن مريم التلمساني، أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت بعد 1014 هـ / 1605م).
-«البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان»، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1336هـ – 1908 م.
❖ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، (ت 421 هـ /1030 م).
-«كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، المطبعة الحسينية المصرية، ط 1، 1329 هـ

❖ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الإفريقي، (ت 711هـ/ 1311 م).
-«لسان العرب»، إنتاج المستقبل للنشر الإلكتروني، دار صادر للطباعة والنشر، المجلد 1، بيروت، ط 1، 1995م. (قرص إلكتروني)
❖التنبكتي، أحمد بابا (ت 1036 هـ/ 1627 م).
-«نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع حواشيه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس.
❖الثعالبي المالكي، عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف (ت 875هـ/ 1468م).
-«تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن»، ج 1، حقق أصوله وعلق عليه وخرج أحاديثه الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وشارك في تحقيقه عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
❖البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، (عاش في القرن 6 هـ/ 12 م).
-« أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين»، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.
❖الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (ت 398 هـ).
-«تاج اللغة وصحاح العربية مرتب ترتيبا ألف بائيا وفق أوائل الحروف». راجعه واعتنى به محمد محمد تامر، أنس محمد الشامي، زكرياء جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1430 هـ - 2009 م.
❖الحميدي، أبو عبد الله محمد الأزدي، (ت 488 هـ/ 1095 م).
-«جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس»، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، 1983م.
❖الرازي أبو بكر (ت 313 هـ).
-«الطب الروحاني والأقوال الذهبية للكرماني ومعهما المناظرات لأبي حاتم الرازي»، تقديم وتحقيق عبد اللطيف العبد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1978م.
❖الزّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، (ت 1205هـ).
-«تاج العروس من جواهر القاموس»، ج3، مجموعة من المحققين، دار الهداية . (نسخة إلكترونية).

❖الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم التونسي، (883هـ/1478م)
-«تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية»، تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العريقة، تونس، 1966م.(سلسلة من تراثنا الإسلامي).
❖الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، (توفي نحو 590هـ).
-«النهج المسلوك في سياسة الملوك»، تحقيق علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار – الزرقاء، ط 1، الأردن، 1407هـ - 1987م.
-و هناك نسخة من تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424 هـ - 2003 م.
❖الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764 هـ).
- «الوافي بالوفيات»، ج 3، طالعه يحيى بن حجي الشافعي ابن أيبك الصفدي، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط – تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 1، 1420 هـ - 2000م
❖الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري (ت 520 هـ).
- «سراج الملوك»، مجلدان، حققه وضبطه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد فتحي أبو بكر، تقديم شوقي ضيف، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1414 هـ / 1994 م.
❖عياض، القاضي ابن موسى بن عياض السبتي اليحصبي، (ت 544 هـ / 1149 م).
-«ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذاهب مالك»، ج 7، تحقيق سعيد أحمد أعراب، تطوان، 1402هـ/ 1982م.
-ج 8، تحقيق سعيد أحمد أعراب، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1403هـ / 1983م.
❖الغبريني، أبو العباس أحمد، (ت 714 هـ / 1314 م).
- «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية»، تحقيق وتعليق عادل نويهض، منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط 1، أبريل 1969م.
❖الغزالي، أبو حامد محمد بن أحمد بن محمد الطوسي، (ت 505 هـ).
-«التبر المسبوك في نصيحة الملوك»، عربه عن الفارسية إلى العربية أحد تلامذته للإمام حجة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي، ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1409 هـ - 1988 م.

-«إحياء علوم الدين»، ج 3، مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء بقلم بدوي طبانة، مكتبة ومطبعة كرياطة فوترا ط سمارغ، (دون تاريخ ولا مكان النشر).

-«مكاشفة القلوب، مختصر من المكاشفة الكبرى»، حقق نصوصه وخرج أحاديثه أبو عبد الرحمان صلاح محمد عويضه، (دون تاريخ ولا مكان النشر).

❖الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ).

-«القاموس المحيط»، نسخة منقحة وعليها تعليقات الشيخ أبو الوفاء نصر الهوريني المصري الشافعي (ت 1291 هـ)، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي وزكرياء جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 1429 هـ - 2008 م.

❖الماوردي أبو الحسن علي بن محمد(ت 450 هـ).

-«أدب الدنيا والدين»، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م.

-«نصيحة الملوك»، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1986 م.

❖مجمع اللغة العربية

-«المعجم الوسيط»، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، 1425هـ - 2004 م.

❖مخلوف، محمد بن محمد بن عمر قاسم.

-«شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة 1349 هـ

❖المرادي الحضرمي، أبو بكر محمد، (ت489هـ).

-«كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة»، تحقيق محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، منشورات علي بيضون محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424 هـ- 2002 م

❖المراكشي عبد الواحد، (ت 647 هـ/ 1249 م).

«المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء وأعيان الكتاب»، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 1978م.

❖المقري، أبو العباس أحمد شهاب الدين بن محمد التلمساني، (ت 1041هـ).

-«أزهار الرياض في أخبار عياض»، الجزءان 1 و2، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المغرب والإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1978م.

-«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، 10أجزاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.(د. ت).
❖الناصري، أبو العباس أحمد، (ت1315 هـ/ 1897 م).
- «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، الدولة المرينية، جزآن 3 و4، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 م.
❖النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن المالقي، (ت 493 هـ/ 1099 م).
- «تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا»، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت.(د. ت).

المراجع بالعربية

❖ابن عبود أمحمد،
-«ابن الخطيب مؤرخا للأندلس في عهد الطوائف»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، السنة الثانية، العدد الثاني، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، 1987م، (ص ص159 – 184).
-«جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري»، مطبعة النور، تطوان، 1408هـ /1987م.
-«جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري»، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ط2، 1999 م.
-«التجديد المنهجي والمجتمع الطائفي»، ضمن التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ندوات 4، أبريل 1991م.
-«التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف»، تطوان، 1983م.
❖أبو بكر التطواني الفقيه محمد،
-«ابن الخطيب من خلال كتبه»، تطوان، 1954م.
❖الإدريسي علي،
-«جوانب من المشهد الفكري والعلمي في المغرب زمن ابن خلدون»، ضمن الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 140، ط 1، 1427 هـ/ 2007 م، ص ص 9 – 28.

❖أزرق أسعد،
-«موسوعة علم النفس»، مراجعة عبد الله الدايم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط4، 1992م.
❖أسكان الحسين،
-«الدولة والمجتمع في العصر الموحدي»، 518هـ – 668 هـ / 1125م – 1270م، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية: مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الدراسات والأطروحات، رقم 4، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2010م.
❖أو. سيرز دافيد، ليوني هادي، روبرت جير فيس،
-«المرجع في علم النفس السياسي»، ج 1، ترجمة ربيع وهبة، مشيرة الجزيري، محمد الرخاوي، مراجعة وتقديم قدري حفني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2010 م.
❖أومليل علي،
-«الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون»، الدار البيضاء، ط 2، 1404هـ – 1984 م.
❖البحراني عماد،
-«أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي للدولة العباسية»، دورية كان التاريخية، العدد5، شتنبر 2009 م، ص 54 - 58.
❖البحيري عبد الرقيب أحمد،
-«الشخصية النرجسية دراسة في ضوء التحليل النفسي»، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1987 م.
❖البرزة أحمد المختار،
-«الأسر والسجن في الشعر العربي: تاريخ ودراسة»، مؤسسة علوم القرءان، دمشق، ط1، 1405هـ/ 1985م.
❖البركة محمد، وبنحمادة سعيد،
-«لسان الدين ابن الخطيب، في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم ضمن السياسة السلطانية عند لسان الدين ابن الخطيب (ت 776 هـ / 1374 م)»، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013 م.
❖بسيم عبد العظيم عبد القادر إبراهيم،
-«شعر الأسر والسجن في الأندلس»، جمع وتوثيق ودراسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 1416هـ - 1995م.

❖البزاز محمد الأمين،
-«الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14 م»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد 16، 1991 م، (ص ص 109 – 122).
❖بنحمادة محمد،
-«صراع النخبة في الغرب الإسلامي من خلال التجربة السياسية لابن الخطيب»، ضمن النخبة في تاريخ الغرب الإسلامي: ضوابط المفهوم وتجليات الأدوار، تنسيق محمد البركة، مختبر البحث في العلاقات الثقافية المغربية المتوسطية، فريق البحث في مجتمع الغرب الإسلامي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله: الكلية متعددة التخصصات بتازة، مطبعة أنفو -برانت، فاس، ط 1، 2015 م، (ص ص 95 –112).
❖بنعبد الله عبد العزيز،
-«الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1403 هـ - 1983 م.
❖بوناني الطاهر،
-«التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هـ/12 و13 م»، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م.
❖توفيق محمد عز الدين،
-«التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي»، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 2، 1423 هـ - 2002 م.
❖تيتاو حميد،
-«الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني»، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث، منشورات عكاظ، الدار البيضاء، 2010 م.
❖الجابري محمد عابد،
-«فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 5، يونيو 1992 م، وط 6، أبريل 1994 م.
❖جاد الرب عبد القادر عثمان محمد،
-«المدرسة التاريخية المغربية الحديثة، وتأثيرات الموقع الجغرافي في تحديد سماتها وخصائصها»، مجلة التاريخ العربي، العدد 35، صيف 2005 م.

❖جسوس عز الدين،
-«موقف الرعية من السلطة السياسية، في المغرب والأندلس على عهد المرابطين»، .
دراسة في علم الاجتماع السياسي، افريقيا – الشرق، الدار البيضاء، 2014 م.
❖حبيدة محمد،
-«من أجل تاريخ إشكالي: ترجمات مختارة»، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط1، 1425 هـ/ 2004 م.
-«الكتابة التاريخية، التاريخ والعلوم الاجتماعية، التاريخ والذاكرة – تاريخ العقليات، (ترجمة)»، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2015م.
-«المدارس التاريخية: برلين – السوربون –ستراسبورغ، من المنهج إلى التناهج»، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2018 م.
❖الحداد حميد،
-«السلطة والعنف في الغرب الإسلامي»، دار محاكاة للنشر والتوزيع، ودار التايا للنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 2011م.
-«النفي والعنف في الغرب الإسلامي»، دار إفريقيا - الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2013 م.
-«المناهج المستعملة في كتابات امحمد ابن عبود: منهج التحليل النفسي»، ضمن: من الأندلس إلى تطوان، أعمال الندوة التكريمية للدكتور امحمد بن عبود، ج 1، تنسيق محمد الشريف، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2013 م.
-«المقاربة النفسية لظاهرة العنف: نماذج من البحث التاريخي المغربي»، ضمن العنف في تاريخ المغرب، أعمال الندوةالوطنية الحادية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي التي نظمت بالرباط بين 14 – 16 نونبر 2013 م، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ونشرت في كتاب من تنسيق عثمان المنصوري ومحمد ياسر الهلالي، منشورات ملتقى الطرق، 2015 م (ص ص 59 – 79).
❖حسن إبراهيم حسن،
-«تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي»، ج3، دار الجيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بيروت، ط14، 1996م.

❖حسين طه،
-«فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»، تعريب عبد الله عنان، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، ط1، 2000م.
❖حفي محمد،
-«الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط»، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007 م.
-«الموقف من الموت في المغرب والأندلس في العصر الوسيط»، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007 م.
❖حوكا بن أحمد،
-«التسلط في علم النفس السياسي: أية آفاق ابستملوجية في مرحلة ما بعد أدورنو»، مجلة وجهة نظر، العدد 49، السنة 14، صيف2011 م.
❖الختاتنة سامي محسن،
-«علم النفس العسكري»، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1437 هـ - 2016 م.
❖خربوش حسين،
-«الفكاهة الأندلسي: دراسة نقدية تطبيقية»، منشورات جامعة اليرموك، 1982 م.
❖الخطيب رشا عبد الله،
-«تجربة السجن في الشعر الأندلسي»، منشورات المجتمع الثقافي، أبو ظبي 1420هـ / 1999م.
❖خلاف محمد عبد الوهاب،
-«تاريخ القضاء في الأندلس (من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن 5هـ/11م)»، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ط1، 1992م.
❖دوس فرانسوا،
-«التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد»، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، مراجعة جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2009 م.
❖سبيلا محمد،
-«للسياسة بالسياسة في التشريح السياسي»، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000 م.
❖رايش وليام، (فلهلم)
-«المادية الجدلية والتحليل النفس»، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحداثة. (د.ت).

❖رباح غسان،
-«عقوبة الإعدام حل أم مشكلة ؟» دراسة معمقة ومقارنة في النظرية والتطبيق، تقديم ومراجعة مصطفى العوجي، مؤسسة نوفل، بيروت، 1987م.
❖زنيبر محمد،
-«ابن الخطيب والتجديد في المنهاج التاريخي»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 2، الرباط، 1977 م، (صص 79 – 126).
-«ابن تومرت، مساره النفسي والفكري»، ترجمة محمد معتصم، ضمن المغرب في العصر الوسيط: الدولة – المدينة – الاقتصاد، تنسيق محمد المغراوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 24، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1999م،(ص 133 –150).
❖روفيل جاك،
-«تاريخ العقليات»، ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل، العدد 7، السنة الثالثة، 1996م.
❖ريكور بول،
«الذات عينها كآخر»، ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، (د.ت).
❖السايح الحسن،
«منوعات ابن الخطيب»، الرباط، 1978 م.
❖السطاتي أحمد،
«تخليق السلطة»، جريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 5663، الخميس 24شوال 1419هـ - 11فبراير 1999م.
❖شبانة محمد كمال،
«المؤرخ الوزير لسان الدين ابن الخطيب»، مجلة دعوة الحق، العدد 8، 1966 م، ص 87– 92.
❖شرف الدين خليل،
«ابن خلدون»، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، في سبيل موسوعة فلسفية رقم 6، بيروت، 1995 م.

❖الشريف محمد،
«ملاحظات منهجية لقراءة جديدة لكتب التراجم المغربية – الأندلسية: قراءة في كتاب عالم علماء الأندلس» لدومنيك أورفوا، ضمن التراث المغربي والأندلسي: التوثيق والقراءة، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ندوة 4، أبريل 1991م.
❖شوقي إبراهيم عبد الحميد وآخرون،
-«علم النفس في التراث الإسلامي»، إشراف وتقديم محمد عثمان نجاتي، عبد الحليم محمود السيد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط 1، 1429هـ/2008م.
❖شيخة جمعة،
-«الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة القرن 5 هـ/11م إلى سقوط غرناطة القرن 9 هـ/15 م»، ج1، الفتن، تونس، 1994م.
❖الصبان عبد اللطيف،
-«بعض أدوار النساء في البلاط الموحدي»، مجلة أمل، عدد مزدوج 22 – 23، السنة الثامنة، 2001 م.
❖صليبا جميل،
-«المعجم الفلسفي: بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية»، ج 2، من ط إلى ي، دار الكتاب اللبناني، 1982 م.
❖الطالبي عمار،
-«موقف ابن خلدون من التصوف»، ضمن الأبنية الفكرية في الغرب الإسلامي زمن ابن خلدون، تنسيق بناصر البعزاتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 140، ط 1، 1427 هـ / 2007 م. (صص 49-56).
❖الطاهري أحمد،
-«القضاء والتشريع في الأندلس»، مجلة أمل، العدد 21، السنة السابعة، 2000م.
❖الطاهر أحمد مكي،
-«الشعر الأندلسي: نشأته وخصائصه»، مجلة البحث العلمي، العدد، 1966م،
❖طحطح خالد،
-«البيوغرافيا والتاريخ»، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2014 م.
-«الكتابة التاريخية»، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 2012 م.

-«السيرة النفسية: لوثر والإصلاح الديني»، مجلة أمل التاريخ الثقافة المجتمع، البيوغرافيا والتاريخ، العدد 51 / 1918، (ص ص 57-69).
❖طحطح فاطمة،
-«الغربة والحنين في الشعر الأندلسي»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 19، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993م.
❖الطويل مريم قاسم،
-«مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443هـ-448هـ/ 1051م-1091م»، دار الكتب العلمية بيروت، مكتبة الوحدة العربية، الدر البيضاء، ط1، 1994م.
❖الطيبي أمين توفيق،
-«دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس»، الدار العربية للكتاب، طرابلس -تونس، 1984م.
-«لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف بالأندلس (القرن الخامس الهجري – الحادي عشر الميلادي)»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، السنة الثانية، العدد الثاني، 1987م.(ص ص185 – 208).
❖العاني نزار،
-«الشخصية الإنسانية في الفكر الإسلامي : دراسة مقارنة»، سلسلة بحوث علمية إسلامية – علم النفس 15، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب بيروت، ط 1، 1418هـ1998م.
❖العبادي أحمد مختار،
-«النزعات الاقتصادية في حياة لسان الدين ابن الخطيب»، مجلة حوليات كلية الآداب، المجلد 12، جامعة عين شمس، القاهرة، 1958 م.
-«مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في المغرب والأندلس»، الإسكندرية، 1958م.
-«حياة ابن الخطيب المغربية»، مجلة البيئة، العدد 1، 1962 م، (صص 54 – 65).
❖عباس فيصل،
-«التحليل النفسي وقضايا الإنسان والحضارة»، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط 1، 1991 م.
❖العثمان عبد الكريم،
-«الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص»، الناشر مكتبة وهبة، بغداد، ط 1، 1963م.

❖العجم رفيق،
-«موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي»، سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والإسلامية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1، 1999 م.
❖العروي سهيل،
-«العنف: مقدمات ونتائج»، مجلة الفكر السياسي، السنة 4، العددان 13 – 14، ربيع – صيف 2001م.
❖عرقسوسي محمد خير حسن، وحسن ملا عثمان،
-«ابن سينا والنفس الإنسانية»، مكتبة الدراسات النفسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1402 هـ/1982م.
❖العروي عبد الله،
-«مفهوم التاريخ»، ج 1، الألفاظ والمذاهب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 2، 1992 م.
❖عنان محمد عبد الله،
-«دولة الإسلام في الأندلس–العصر الثاني-دول الطوائف، قيامها حتى الفتح المرابطي»، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس، مطبعة المدني- المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، ط3، 1411 هـ/ 1990م.
-«لسان الدين ابن الخطيب، حياته وتراثه الفكري»، القاهرة، 1968 م.
-«ابن خلدون حياته وتراثه الفكري»، تصدير محمد صابر عرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط 4، 1427هـ - 2006م.
❖غسان يعقوب،
-«سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة»، دار الفارابي، بيروت، 1999م.
❖فاغية السعدية،
-«شخصية ابن الخطيب من خلال كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد 2، السنة 2، 1408 هـ/ 1987 م، .(عدد خاص بندوة ابن الخطيب).
❖فانون فرانز،
-«معذبو الأرض»، دار القلم، بيروت، 1972م.

❖فروم إريك،

-«العدوانية المؤذية والعدوانية غير المؤذية»، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 27، 28، السنة 1983م.

❖فرويد سيغموند،

-«حياتي والتحليل النفسي»، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، القاهرة، 1981م.

-«قلق في الحضارة»، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1979م.

-«أفكار لأزمنة الحرب والموت»، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1981م.

❖القادري إبراهيم بوتشيش،

-« نصائح الآداب السلطانية كآلية استباقية لتجنب العنف بمغرب العصر الوسيط»، ضمن العنف في تاريخ المغرب، أشغال الأيام الوطنية الحادية والعشرين للجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات ملتقى الطرق، تنسيق عثمان المنصوري ومحمد ياسر الهلالي، الدار البيضاء، 2015م.

❖قدري حفني،

-«حول التفسير النفسي للتاريخ»، مجلة الفكر المعاصر، العدد 60، القاهرة، فبراير 1970 م.(ص ص 24 – 31).

-«لمحات من علم النفس: صورة الحاضر وجذور الماضي»، الهيئة العامة للكتاب، 2000م.

❖كليطو عبد الفتاح،

-«الحديث عن الذات في كتاب التعريف لابن خلدون »، مجلة الجدل، العدد 5 – 6، الرباط، 1987م.

❖كمال عبد اللطيف،

-«في تشريح أصول الاستبداد: قراءة في نظام الآداب السلطانية»، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1999م.

❖كنون عبد الله،

-«لسان الدين ابن الخطيب، الكاتب الساخر»، مجلة البحث العلمي، العدد الثاني، السنة الأولى، ذو الحجة / ربيع الأول 1384 هـ - ماي / غشت 1964 م.(صص 123 – 133). وهناك طبعة مستقلة لهذه الدراسة عبارة عن «فصلة»من مجلة البحث العلمي.

❖لا بلانش جان،
-«إشكاليات 1، القلق»، أشرف على الترجمة عباس محمود مكي، ترجمة حبيب نصر الله نصر الله، ط 1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1436 هـ - 2015 م.
❖لا بلانش جان، ج. ب. بونتاليس،
-«معجم مصطلحات التحليل النفسي»، ترجمة مصطفى حجازي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 4 منقحة ومزيدة، 1422هـ/2002 م.
❖لا كوست، إيف،
-«العلامة ابن خلدون»، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، ط 1، 1974 م.
❖لخصاصي مصطفى،
-«قضايا إبستمولوجية وديداكتيكية في مادتي التاريخ والجغرافية»، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2001م.
❖لغزيوي علي،
«أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري»، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1987م.
❖لو تورنو، روجي،
-«حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و13 م»، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1982م.
❖مجموعة: فرج عبد القادر طه، شاكر عطية قنديل، محمد السيد أبو النيل، حسين عبد القادر محمد، مصطفى كامل عبد الفتاح،
-«معجم علم النفس والتحليل النفسي»، إشراف ومراجعة فرج عبد القادر طه، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، (د ت).
❖مجموعة،
-«العنف والمجتمع»، ترجمة الأب إلياس زحلاوي، مراجعة الأستاذ أنطون مقدسي، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط 2، 1405هـ/ 1985م
❖المطيلي أحمد،
-«الاغتراب الجسدي»، مجلة قضايا، العدد 1، 2004م.
❖المغراوي محمد،
-«الموحدون وأزمات المجتمع»، جذور للنشر، الرباط، ط 1، 2006م.

❖منصور احمد أبو خمسين،
-«نظرية فرويد وأثرها في البحث التاريخي»، مجلة المؤرخ العربي، العدد 2، يناير 1994 م.
❖المنوني محمد،
-«ورقات عن حضارة المرينيين»، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط 2، 1416 هـ - 1996م.
❖نجاتي محمد عثمان،
-«مدخل إلى علم النفس الإسلامي»، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1422 هـ - 2001 م.
-«علم النفس الحربي»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952م.
❖نشاط مصطفى،
-«إطلالات على تاريخ المغرب خلال العصر المريني»، منشورات كلية الآداب، وجدة، 2003 م.
-«جوانب من تاريخ المشروبات المسكرة بالمغرب الوسيط»، منشورات الزمن، الدار البيضاء.
❖نويهض عادل،
-«معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر»، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت.
❖هامس كونستان،
-«ابن خلدون والدفاع عن الملك الشرعي»، مجلة أبحاث للعلوم الاجتماعية، عدد 28-29، السنة العاشرة، خريف 1992م.
❖الهلالي محمد ياسر،
-«علاقة المخزن المريني ب"نخبه" السياسية – العسكرية والاقتصادية – من الإغناء إلى الإفقار، ضمن النخب في تاريخ المغرب»، ج 1، أعمال مهداة إلى الأستاذ العميد مصطفى الشابي، تنسيق أحمد إيشرخان، سلسلة شرفات 82، منشورات الزمن، الدار البيضاء، ط، 2016 م.
❖وقيدي محمد،
-«العنف والإنسان»، مجلة الأيام، العدد 15، 14 – 20دجنبر 2001م.
-«هل هناك عنف مشروع»، مجلة الأيام، العدد 19، 11 – 17يناير 2002م.

الروابط الالكترونية

❖الإمارة سعد،

"أساليب التعامل مع الضغوط: حدود المنهج والأساليب".

الرابط الإلكتروني: https://annabaa.org/nba55/asaleb.htm

يوم 23-11-2018م.

❖القلق_النفسي، أعراضه- /.../mawdoo3.com/ _https: //bawaba.khayma.com

www.arabmoheet.net/.../b47eea18-75ff-4c06-ae69-8367719c1d69

يوم2018/2/26

❖بلال عوض سلامة،

-"ثقافة الغالب والمغلوب في فكر ابن خلدون: قراءة فلسطينية". جامعة بيت لحم، دائرة العلوم الاجتماعية،

https://scholar.najah.edu/sites/default/files/conference-paper/thqf-lglb-wlmglwb-fy-fkr-bn-khldwn-qr-flstyn

❖كردي أحمد السيد،

-"علاج مشكلة الإحباط النفسي"

http://kenanaonline.com/users/ahmedkordy/posts/124913

يوم 23-11-2018م

المراجع باللغات الأجنبية:

❖Bel.A ,

« **Inscriptions arabes de Fès** », Journal Asiatique , série 11.t.9,1917

❖Duby George ,

« **Guillaume le Maréchalou le meilleur chevalier du monde** » , Fayard , Paris , 1984.

❖Febvre , (L)

« **Histoire et Psychologie , Encyclopédie française** » , t.VIII, Paris, 1938.

❖Friedlander, (S)

« **Histoire et psychanalyse** » , Paris , 1975.

❖Fromm E,

« **La crise de la Psychanalyse** », Trad. Ladmiral, Ed. Anthropos, Paris, 1971, p. 206.

❖Goubert Pierre,

« **Louis XIV et vingt millions de Français** », Fayard, Paris, 1966.

❖Kantorowicz Erst,

« **L'Empereur Frédéric II** », Gallimard, 1987

❖le Goff Jacques ,

« **Le saint Louis** », édition Gallimard, 1996.,

❖Provençal. E.L.

« **Histoire de l' Espagne Musulmane** », T. III, Paris, 1967,.

❖Vernet Juan ,

« **La cultura hispano árabe en Oriente y Occidente** », Barcelona, 1978

❖Viguera María Jesús,

«**Los Jueces de Córdoba en la primera mitad del siglo XI: (Análisis de datos)**», Al-Qantara,V, 1984.

إن الحديث عن العلاقة بين التاريخ وعلم النفس بكافة فروعه ومفاهيمه، والانتقال من الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي لاسيما خلال العصر الوسيط، يحتاج إلى الكثير من التسلح بالعدة المعرفية والمنهجية، ومن ضبط المفاهيم والمصطلحات، كما يحتاج إلى الكثير من الأناة والصبر، قصد التمكن من سبر أغوار المصادر، واستنتاج المعطيات ذات الحمولة النفسية، واستخلاص المادة القابلة للتأويل، لتقديم قراءة وفرضيات، قد تشكل تصورا جديدا في مجال البحث التاريخي.

لذلك فإن هذه الدراسة تشكل محاولة اجتهادية في إطار تحديد الكتابة التاريخية، هدفت البحث عن مسلك نفساني لفهم بعض القضايا، والدوافع والبواعث التي كانت وراء اتخاذ شخصيات أو جماعات قرارات أو ممارسة سلوك معين، مع تفسير ذلك.

وقسمنا البحث إلى بابين: خصصنا الباب الأول لدراسة العنف بمجال الغرب الإسلامي من المنظور النفساني، وقد بذل الباحثون في مختلف المجالات وشتى التخصصات جهودا لتوضيح أسبابه وأشكاله وخفاياه، وتم طرح أسئلة وإشكالات تمحورت جلها حول ماهية العنف ومصادره ومسبباته، وما إذا كان يرتبط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أم بالجانب السيكولوجي الغريزي للفرد، أم بهما معا.

وتناولنا أهم المصادر التي توفر مادة «سيكولوجية» والتي يمكن أن تقدم إضافة للبحث التاريخي، إذا ما وظفت مناهج علم النفس، والمحاولات التي قام بها بعض المؤرخين المغاربة لاستثمار مفاهيم علم النفس في التاريخ أو الدعوة إلى ذلك، واقتراح بعض الآليات النفسانية التي يمكن توظيفها في تفسير ظاهرة العنف، مثل الاقتداء، والتماهي، والتعويض، والسادية، والهو، ومفهوم الزعامة وما يرتبط به من الاستهواء، والسخاء، والجود والحلم وحسن التواصل.

أما الباب الثاني فقد حاولنا من خلاله الاقتراب من سمات وبواعث سلوك ثلاث شخصيات ساهمت في أحداث تاريخية خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وهي ابن الخطيب وابن مرزوق وابن خلدون، وافترضنا اتسام الشخصيات الثلاث بالعجب بالذات (النرجسية) المتمثل في الميل إلى الاستعلاء، والتطلع للمناصب العليا والسخرية والازدراء بالآخرين، كما افترضنا إصابتهم بالإحباط بعد فشلهم السياسي لعدم تمكنهم من إشباع جميع رغباتهم، فأصيبوا بالقلق والهم والغم، وحاولوا اللجوء إلى حيل دفاعية (عقلية) منها التبرير، والشعور بالذنب، والانسحاب، إضافة إلى نكوصهم، فلجأوا إلى التصوف بحثا عن الاطمئنان والسكينة، فرارا من الحياة السياسية المليئة بالمؤامرات والدسائس والمحن والكروب، وهو سلوك تقدر أنه سبق لهم أن مارسوه بشكل أو بآخر في فترات سابقة.

لقد حاولت هذه الدراسة تسليط أضواء أولية قد تتطور إذا ما تمكن الباحثون من العدة والأدوات التي تمكنهم من تطبيق هذا المنهج في الأبحاث المقبلة، وإذا ما تعاونوا مع زملائهم الأخصائيين النفسيين.